

# قِيَامُ الدُّوَلِ الْاِيُونِيَّةِ فِي مِصْرَ

تأليف  
علي بيومك

الطبعة الأولى  
يناير ١٩٥٢

---

ملازم الطبع والنشر  
دار منشورات الحديث للطبع والنشر  
٤ شارع خديجة بن خالد





ثم ضوى السلطان ملك شاه إليه معظم الشام وفلسطين من القاطنين، ولم يلبث الفرع السلجوقي الذي أنفاه هناك أن أعدت العدة لنزول مصر، وهدت الدولة السلجوقية أو آخر هذا القرن الحادي عشر الميلادي كأنها أعادت الدولة الإسلامية سيرتها الأولى، من حيث التماسك السياسي والطاقة التوسعية، فضلاً عن المسنون الحضاري الذي ارتفعت إليه بفضل الغزالي والشيرازي والبربريني والحيام.

ثم توفي السلطان ملك شاه سنة ١٠٩٢م (٤٨٥هـ)، فدبت الانفصالية ديباً سريعاً ذريعاً في أوصال الدولة السلجوقية، وعمل كل ساجوقي على الاستقلال بما تحت يده من البلاد، كما عمل بعض أتابكهم وكبار موظفيهم على التمكين والنكوتين الاستقلالي لأنفسهم. على أن هذه الانفصالية السياسية لم تعطل الحركة الإحيائية التي ملأت الشرق الأوسط وقتذاك، بقدر ما ساعدت أصحاب القدرة والمواهب والجرأة على تحقيق أطامهم وأحلامهم المحلية الضيقة، ولذا بدا الشرق الأوسط - ولاسيما الشام وفلسطين - عدداً من إمارات ودويلات متنافرة متحاسدة غمرتها حروب تافهة بين بعضها بعضاً، وذلك حين قدم الصليبيون الغربيون إلى الشرق. ولذا كانت انتصارات الحملة الصليبية المعروفة بالأولى على المسلمين في نيقية ودوراليوم وأنطاكية وبيت المقدس هينة سهلة إلى حين، برغم ما تعثرت به زعامات هذه الحملة وجيوشها من معائر كفيفة بالفشل، وهي في طريقها من غرب أوروبا إلى الشرق.

غير أن انتصارات الصليبيين على المسلمين في هذه المعارك الكثيرة

لم يفت في عضد القوى السياسية رغم انفصام عراها وأوصالها، لم ينفذ الحركة الإحيائية رغم ذهاب شخصياتها، بدليل قيام عباقرة عسكريين وسياسيين بالدعوة لتوحيد الجبهة الإسلامية بعد سنوات معدودات من مقدم الصليبيين إلى الشرق وانتصاراتهم به، ومن أولئك أنز. وبق، وزنكي، وكان مبلغ توفيق أولئك في تحقيق بعض دعوتهم وفي تكوين دول مستقلة لأنفسهم ما شجّع أتباعهم أن يحلوا أحلامهم السياسية الخاصة، وأن يعموا على البناء لأنفسهم كذلك، وأهمهم هنا شيركوه القائد العام للجيوش الزنكية، وأخوه أيوب نائب زنكي بمدينة بعلبك قرب دمشق.

ظل هذان الأخوان في خدمة زنكي مدة غير يسيرة، وأسهما في حروبه وتحقيق سياسته وأطماعه. وبقيا بعد وفاته في خدمة ابنه محمود - وهو نور الدين محمود - حتى صار شيركوه نائب السلطنة النورية في عاصمتها حلب، وأخوه أيوب نائب نور الدين في مدينتها الثانية دمشق. ثم تطورت الحوادث بين الجبهتين الإسلامية والصليبية إلى سباق الاستيلاء على مصر من الفاطميين، ولم تكن أهمية مصر خافية على أحد الطرفين. وأرسل نور الدين قائده شيركوه ومعهم يوسف ابن أخيه أيوب على رأس الحملة إلى مصر، فرأى شيركوه ما بمصر من علامات الانهيار في أذبال دولة فاطمية محتضرة، فألني فرصته واضحة فاهتبلها، وألح على نور الدين في إنفاذه ثانية وثالثة إلى البلاد المصرية لمداغة الصليبيين ومساعدة الفاطميين. ثم لم يلبث شيركوه أن صار وزير الدولة الفاطمية، وهو في

نفس الوقت قائد عسكري تابع للدولة النورية ، ولم يبق لديه سوى أن يستغل هاتين الوظيفتين لنفسه ولبيته ، ولكنه توفي بعد قليل . ففلا الوظيفتين بعده يوسف ابن أخيه أيوب ، وهكذا ورث الشاب صلاح الدين يوسف ما اجتمع إلى عمه من سلطة ومسئولية ، وبارك له أبوه في إرثه بعد أن حضر بجميع أهله إلى القاهرة بإذن من نور الدين ، وأخذ يعمل في دأب هادىء على استقلال يوسف بمصر ، وحرص على إخفاء هذا الهدف حتى « تدرج الأيام » ( انظر ما يلي ص ١٨٤ ) .

وعلى هذا لم يكن تفكير صلاح الدين يوسف في الاستقلال بمصر بعد وفاة العاضد الفاطمي سنة ١١٧٢ م (٥٥٦٧) - والسلطان نور الدين على قيد الحياة - شيئاً مفاجئاً أو عجيباً ، كما لم يكن تفكير صلاح الدين في أنه الوريث العملي للسلطان نور الدين بعد وفاته سنة ١١٧٤ م (٥٥٦٩) شيئاً جريئاً أو غريباً . ولعل أوضح الأدلة على ذلك أن صلاح الدين لم يستقل بمصر فحسب ، بل امتد سلطانه إلى الشام وفلسطين ، والشرق الأوسط كله من العراق الأعلى وكرديستان إلى برقة والنوبة وشبه جزيرة العرب بما في ذلك اليمن ، وأنه قام بدور لا يقل كثيراً عن دور السلطان ملك شاه السلجوقي من حيث التفكير الإمبراطوري والحركة الإحيائية ، كما قام وزراؤه بشبه ما قام به الوزير نظام الملك ، ولا يجب ، فإن اثنين من رجال العصر الصلاحي الأيوبي - وهما العماد الأصفهاني الكاتب وبهاء الدين بن شداد القاضي - تخرجا من جامعة النظامية ببغداد .

على أن المؤلف لم يوغل في موضوع الدولة الأيوبية إلى أوج أيام

صلاح الدين ، بل اقتصر بحثه على قيام هذه الدولة ، وهذا الاقتصار بما جعل لبحثه صفة الابتكار القيم ، فإن حوادث صلاح الدين المسيطر على جهة إسلامية ، متحدة المجاهد ضد الصليبيين الشرقيين والغربيين ، كلها معروف واضح بقدر ما يحيط حوادث قيام دولته من قلة معرفة وغموض ، وهو ما نصّب المؤلف نفسه على استجلائه وشرحه وتحقيق مراحلها .

ويحضرني في كتابة هذا التصدير ما لقي المؤلف من عناء في جمع براهينه وربط حقائقه ، والتجائه إلى قراءة ما بين السطور في مختلف المراجع لعله واجد طلبته ، لا قفزاً خاطفاً من مرجع إلى آخر ، بل سيراً تؤد على هدى العوامل البيئية التي خلقت فكرة بناء دولة في رؤوس الأيوبيين . وأعتقد أن المؤلف نجح نجاحاً مشكوراً في إعداد هذا البحث ، تحت إشرافى للباحثين بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . ذلك أن معظم المؤرخين في العصور الوسطى في الشرق والغرب عنوا بالأخبار لا بأسبابها وعلّيتها ، وربما حرص بعضهم على إخفاء الأسباب رغبة منهم في تنزيه أعمالهم عن الدنويات ، وهو حرص معقول مفهوم لدى مؤرخي تلك العصور وأشباههم ، لا العصور الحديثة وأهلها الذين يسلطون العقل على معظم الأشياء . واختار المؤلف أن يكون من هذه الفئة الحديثة ، وسلط من عقله على حوادث إخبارية جافة جفاء ، تأليفه مبتكراً قيماً كما قلت ، وهو في غير شك يسدّ فراغاً في المعرفة بجزء هام من تاريخ مصر — العصور الوسطى .

وللمؤلف أسلوب سهل هادىء ، لا يثب ولا يرسب ، وهو أسلوب  
النغمة الوسطى فى فن الكتابة ، وهو أصح الأساليب فى التاريخ ، ولعل  
فدرة المؤلف فى الشعر هى التى ساعدته على التزام هذه النغمة التى تضيق  
على النشر الفنى شاهرية ، وتجعل هذا الكتاب جديراً بالمسكينة الحديثة  
فى اللغة العربية .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة ( ١٨ صفر سنة ١٣٧١ هـ )  
( ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥١ م )



# بعض مظاهر الكتاب

المراجع التاريخية التي تعرضت للكلام عن موضوع « قيام الدولة الأيوبية في مصر » كثيرة — أفرد لها ثبت خاص — ولكن الحقائق التي وردت فيها لا تكاد نشقى غلة الباحث في هذا الموضوع . ومرد ذلك إلى ما درج عليه المؤرخون العرب من أخذ الواحد منهم عن سبقه أخذاً قد يكون حرفياً في كثير من الأحيان . وبالرغم من أن هذه الطريقة — طريقة النقل عن السابقين — قد أفادت في حفظ كثير من النصوص الهامة التي لم يعثر على مراجعها الأصلية كاملة بعد ، كالبرق الشامي لمعاد الدين الكاتب الأصفهاني ، وكنز الموحدين في سيرة صلاح الدين ليجي ابن أبي طي . فإن عيبها — من ناحية أخرى — أن الباحث يقرأ الكثير من المصادر فلا يخرج منها جميعاً إلا بصورة واحدة هي الصورة التي رسمها المصدر الأصلي .

على أن ذلك ليس السبب الوحيد — فيما يبدو — لقلة الحقائق التي وردت في موضوع هذا البحث . إذ ربما يرجع السبب في تلك القلة أيضاً إلى عامل آخر هو تكتم الأيوبيين عن نواياهم وأغراضهم وحرصهم حرصاً تاماً على ألا يبدو من سلوكهم ما يدل على حقيقة تلك النوايا والأغراض ، ولهذا لم يجد المؤرخون المعاصرون بدا من أن يقتصروا في كتاباتهم على ذلك السلوك الظاهري دون أن يحاولوا تفسيره وبيان السرفيه . فبدأ قيام الدولة الأيوبية في مصر — نتيجة لذلك — وكأنه قد جاء بمحض الصدفة ولا دخل لإرادة الأيوبيين فيه . وقد كان

الأيوبيون محقين في تكتمهم خوفاً من أن يصطدموا بزنى أو ابنه نور الدين وهما اللذان قاما يعملان على توحيد القوى الإسلامية لمقاومة الصليبيين . ومن هنا أصبح واجباً حتمياً على الباحث أن يحكّم بجانب النصوص التاريخية - المنطق والتفكير في غير إسراف أو تبذير .

على أنه هناك بالرغم من ذلك عدد لا بأس به من المراجع الأصلية وأهمها ما كتبه ابن القلانسي وعمارة اليني وأسامة بن منقذ وابن الجوزي وابن الأثير ، وابن شداد ، وابن أبي طي . وعماد الدين الأصفهاني ، وابن خلكان . وابن واصل ، وإبراهيم الخنيلي ، وابن الفرات ، والمقريزي وغيرهم .

أما ابن القلانسي فيعتبر كتابه « ذيل تاريخ دمشق » مرجعاً أصلياً في تاريخ الشرق الأدنى منذ بداية القرن السادس الهجري ، وقد انتهى فيه إلى سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) متخذاً مدينة دمشق محوراً للحوادث . وبالرغم من أن هذا المصدر لم يتعرض للكلام عن الحوادث الهامة في قيام الدولة الأيوبية ، فإنه قد أفاد في تصوير المسرح الذي مثل الأيوبيون عليه أدوارهم الأولى أي قبل مجيئهم إلى مصر . وقد ألقى ابن القلانسي ضوءاً على كثير من الحقائق الهامة الغامضة كغزو السلاجقة للشام . وبداية عهد الصليبيين بتلك البلاد . ودفع مصر لهم مالا سنوياً ثمناً لسكوتهم إلى غير ذلك . وإذن فإن كتاب « ذيل تاريخ دمشق » مصدر لا غنى للباحث عنه في تاريخ الشرق الأدنى في النصف الأول من القرن السادس الهجري .

أما عمارة اليني المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٤ م ) فكان - كما هو معروف - شاعراً واسع الحيلة . إذ استطاع أن يكسب ثقة الوزراء

الفاطميين المتأخرين في عهدى الفائر والعاضد . وأن ينال هباتهم جميعا بالرغم مما كان بينهم من خلاف و آفاس . وقد صور فى كتابه «النسك العصرية» العهد الفاطمى المتأخر تصويراً يعطى فكرة واضحة عنه . والشىء الهام عن هذا المصدر أن الباحث يستطيع أن يستخلص من شعر عمارة العوامل النفسية الأساسية التى أدت إلى برء مؤامرتة التى قام بها ضد الدولة الأيوبية فى إبان نشأتها .

وهناك مصدر آخر أثار كثيراً من الشك حول نشأة صلاح الدين وهو كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ (١١٨٨ م) قال ذلك المؤرخ الذى كان على صلة وثيقة بكل جبهة فى الشرق الأدنى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، لم يذكر شيئاً عن صلاح الدين بالرغم من أنه قصر هذا الكتاب على ذكرياته الاجتماعية والحربية ومشاهداته فى الشام ومصر فى تلك الفترة الهامة . وقد تعرض الفصل الثانى من هذه الرسالة لهذه النقطة فلا داعى للكلام عليها هنا (١) أما أهمية هذا المصدر فترجع إلى أن أسامة تكلم عن الحوادث التى شاهدها بنفسه فى مصر والشام وأهمها فرار رضوان الوحشى والنزاع بين الوزيرين ابن السالار وابن مصال ، وقتل الخليفة الحافظ مما كان بداية لإنهاية الدولة الفاطمية .

أما أبو الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٣٠٠ - ١٢٠١ م) فلم يذكر فى كتابه «المنتظم» شيئاً هاماً عن موضوع هذا البحث اللهم إلا فيما يتعلق بإطلاق سراح رايمنذ الثالث أمير طرابلس . إذ قال إن ذلك الأمير الصليبي قد أطلق سراحه فى حياة نور الدين نفسه .

---

(١) راجع الفصل الثانى .

ومضمون كلامه أن نور الدين أراد أن يحيط ابنه اسماعيل - أثناء نزاعه مع صلاح الدين - بمجموعة من الجيران الخلفاء . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً عن « مرآة الزمان » لسبطه ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) إذ لم ينفرد هو الآخر بشيء جديد .

وقد كتب ابن الأثير في موضوع البحث كتابين هما : « السكامل في التاريخ » وهو الموسوعة التاريخية المشهورة وتاريخ « الدولة الأتابكية » الذي قصره ابن الأثير على البيت الزنكي ، ولكنه تعرض فيه بالضرورة لما جرى حول ذلك من حوادث . وأهمية هذا المؤرخ أنه ولد (١) سنة ٥٥٥ هـ (١١٦١ م) وتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) أي أنه عاصر الدولة الأيوبية في خطوات قيامها النهائية . واستمع إلى من عاصروا الحوادث الأولى التي أدت إلى قيامها .

ولهذا فقد جاءت كتابته صورة صادقة لما حدث . والنقطة الهامة أنه ليس هناك من القرائن والأدلة ما يثبت أن ابن الأثير كان متعصباً في روايته لفريق دون فريق . وبما يؤيد ذلك أن العباد الأصفهاني ذكر أن جيش غازي ( الثاني ) في موقعة تل السلطان كان عدده عشرين ألفاً فتصدى ابن الأثير لتنفيذ هذا الرأي وقال إن جيش غازي لم يزد على ستة آلاف ثم علق على ذلك بقوله « وإما قصد العباد أن يعظم من أمر صاحبه ( صلاح الدين ) بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفاً والحق أحق أن يتبع ، (٢) .

وقد كان من المنتظر أن يذكر ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ في كتابه « النوادير السلطانية والحاسن اليوسيفية » الشيء

(١) ابن خلسكان ج ١ ص ٣٤٨ .

(٢) راجع السكامل ج ١١ ص ١٩٤ .

الكثير عن نشأة الأسرة الأيوبية لما كان بينه وبين صلاح الدين من صلة وثيقة (١) . ولكنه لم يقل واكتفى بأن يملأ الصفحات الأولى من كتابه بالكلام عن أخلاق صلاح الدين ، وشدة تمسكه بدينه إلى غير ذلك . وهكذا جرى ابن شداد غيره من المؤرخين في عدم التعرض بالتفصيل لنشأة الأسرة الأيوبية .

وهناك مصدر آخر يعتبر بحق من أهم المراجع التي تعرضت للكلام عن تاريخ الأيوبيين وهو كتاب « كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين » ومؤلفه يحيى بن أبي طى وأصله من حلب وتوفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) وكان والده من أشرف تلك المدينة (٢) . وبالرغم من أنه لم يعثر على النص الكامل لهذا المصدر بعد ، فإن أبا شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) قد أورد منه كثيراً من المقتطفات الهامة الكاملة في كتابه « الروضتين » وما يجدر ذكره أن أبا شامة يتهم ابن أبي طى بتحيزه للشيعة . وتمصبه ضد نور الدين السني والواقع أن كلام ابن طى لا يفهم منه مطلقاً أنه كان متحيزاً لفريق دون فريق وإلا لوجب أن يتعصب ضد صلاح الدين أيضاً ، وهو الذي هدم الدولة الفاطمية الشيعية من أساسها . على أن هناك مؤرخاً آخر يتفق مع ابن أبي طى في كثير من الحوادث والروايات وهو ابن الفرات صاحب كتاب « تاريخ الأمم والملوك » مما يدل على أن اتهام أبي شامة لابن أبي طى قائم على أساس غير سليم . وبالرغم من هذا فإن أبا شامة قد خدم التاريخ خدمة جميلة بأثباته لكثير من النصوص التي فقدت مصادرها الأصلية ككتاب ابن أبي طى السابق الذكر وكتاب « البرق الشامي » لعهاد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) .

(١) حسن إبراهيم الفاطميون ص ١٥ .

(٢) حسن إبراهيم . الفاطميون ص ٢٩٩ حاشية رقم ٢ .

وهناك مرجعان آخران يعتبران من أهم المراجع التي كتبت عن تاريخ الدولة الأيوبية . ولا يزالان — مع الأسف — مخطوطين . وهما شفاء القلوب لإبراهيم الحنبلي .

«ومفرج الكروب» لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٧ - ١٢٩٨ م) أما الحنبلي فقد تسكلم عن الأيوبيين كطبقات بترتيب الحروف الأبجدية وبذلك أعطى صورة واضحة عن كل شخصية من شخصيات الأسرة الأيوبية . وأما ابن واصل فراجع هام ، وليس من المبالغة أن يقال إنه لاغنى عنه إباحث في تازيخ الدولة الأيوبية .

على أنه لا يمكن الكلام عن مصادر هذا البحث دون أن يذكر ابن خلدون المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨١ م) وصاحب كتاب «وفيات الأعيان» فقد ضم هذا المصدر تراجم واضحة وافية عن صلاح الدين وشيركوه والعاقد وغيرهم ممن لعبوا أدواراً هامة في قيام الدولة الأيوبية . معتمداً في ذلك على ما كتب قبله من مؤلفات أو سمعه بنفسه عن عاصروا تلك الحوادث .

ومن هنا كان كتابه مرجعاً هاماً بالنسبة للباحثين في التاريخ الإسلامي .

# الفصل الأول

## الشرق الأدنى قبيل قيام الدولة الأيوبية

الغرض من هذا الفصل ، عناصره ، نظرة عامة في العالم الإسلامي ، انقسام الخلافة الاسلامية ، انحلال الامبرطورية ، ضعف الخلافة العباسية ، بداية ضعفها ، عوامله ، بنو بوية ، السلاجقة ، الإمارات العربية بالشام ، القبائل الكردية ، غزو السلاجقة الشام ، أثرهم في الشرق الأدنى ، النظام الإقطاعي السلجوقي ، ماهية ذلك النظام ، السلاجقة بعد نظام الملك ، النزاع على السلطنة ، انحلال الدولة ، الدولة الأتابكية .

الخطر الصليبي ، تأسيس الإمارات اللاتينية ، أفاقة المسلمين ، عماد الدين زنكي ، نشأته ، هوجز عن سيرته ، بداية اتصاله بالأيوبيين ، حركاته الحربية بالشام ، فتح الرها .

الدولة الفاطمية في مصر ، ضعفها ، عوامل ضعفها ، الحافظ ، الدعوة الطيبية ، الظافر ، مقتله ، الفاتز ، وزارة زريك ، مصر والصليبيين ، سياسة ابن زريك ، مقتله ، العادل بن زريك .

تعقيب :

هل كانت الحالة في الشرق الأدنى ملائمة لقيام دولة جديدة ؟ وكيف ؟

قامت الدولة الأيوبية في مصر قياماً رسمياً خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي (السادس الهجري) ، وتعاون على قيامها

وتأسيبها نجم الدين أيوب وإليه تنسب ، وأخوه أسد الدين شيركوه وهو الذي تم على يديه فتح مصر باسم نور الدين ، وصلاح الدين يوسف ابن نجم الدين أيوب ، وهو الذي استطاع بفضل ما أوتي من مهارة ومقدرة ، وبفضل ما تلقى من تربية وتدريب وإعداد ، أن يحسن استغلال ما خلفه له أبوه وعمه ، وأن يبني على أساس ما بنا ، ويسير على رسما ، دون أن ينسى ما أحاط به من ظروف وأحوال .

لم يولد صلاح الدين يوسف ولا أبوه أيوب ولا عمه شيركوه في مصر ، ولم ينشئوا فيها ، وإنما جاءوا إليها كبارا ، ولم يقتصر ميدان مغامراتهم على مصر وحدها ، بل شمل الشرق الأدنى كله ، وذلك قبل أن يعرفوا مصر .

ولهذا وجبت دراسة الأحوال العامة بالشرق الأدنى في تلك الفترة التي عاش فيها أولئك المؤسسون للدولة الأيوبية قبل مجيئهم إلى مصر ، لأن هذه الدراسة إنما تساعد على فهم روح العصر ، والمثل العليا التي كان يتطلع إليها المعاصرون ، وتعطى التعليل النفسي والتفسير التاريخي لاطماع الطامعين ومغامرات المغامرين . على أن الغاية من كتابة هذا الفصل لا تقتصر على أن يكون تمهيدا لهذا البحث فحسب ، بل أن يكون الحجر الأساسى فى بناء الموضوع والخطوة الأولى التي لا بد من معالجتها لفهم ما يتلوها من خطوات .

وكما أن العالم النباتى - مثلا - يحاول أن أراد أن يدرس نباتا معيناً ، أن يدرس « البتة » التي ينمى فيها هذا النبات من تربة ومناخ ، فيحللها تحليلاً كافياً ويرجعها إلى عناصرها المختلفة التي تتكون منها ، ويعرف العوامل التي قد تعوق هذا النبات على النمو أو تساعد عليه . ثم يدرس بعد ذلك خصائص « البذرة » التي سيودعها باطن هذه التربة ، وما ينتظر



أن يصادفها من نجاح أو إخفاق فإن واجب المؤرخ أن يسلك نفس هذا السبيل ، ما دام يتعرض لقيام دولة جديدة وعلى تلك القاعدة يمكن أن تقوم الدراسة على أساس منطقي ومبدأ علمي سليم .

والبيئه التي يجب دراستها في هذا الفصل ، وهي البيئه التي نشأت فيها الدواة الأيوبية لا تقتصر على مصر وحدها ، وإنما تشمل الشرق الأدنى كله . وهذا الفصل هو موضع دراستها كلها . أما البذرة فهي أسرة أيوب نفسها ، وسيكون لدراستها فصل آخر هو الفصل الثاني ، ثم تتلو ذلك دراسة لعملية النمو أى الخطوات العملية التي سبقتها الأسرة نحو تحقيق أهدافها .

والمقصود بالشرق الأدنى هنا ، بلاد الاقليم المعتمد من البحر الأسود شمالا إلى بلاد النوبة وشبه جزيرة العرب جنوبا ، ومن فارس شرقا إلى برقة والصحراء الليبية غرباً ، وهذا هو الاقليم الذي بدأ يزخر بالحوادث منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، بل هو الاقليم الهام منذ القدم ، والذي سيستمر محافظا على أهميته على مر القرون .

ولعل أول ما يتطلع إليه الباحث في هذا المجال هو أن يعرف ما انتهت إليه حال الخلافة الاسلامية وما استقرت تاليه أمورها بعد أن انقسمت وتعددت إلى خلافة عباسية في بغداد ، وأخرى فاطمية في القاهرة وثالثة أموية في الأندلس - والأخيرة لا دخل لها في هذا البحث لا عن قرب ولا عن بعد - . ثم لا بد للباحث من أن يتطالع إلى معرفه ما أصبحت عليه بعض الدول التي عاشت في جوف الخلافة العباسية كالدوله الساجوقية ، وهي الدوله التي اكتسحت في طريقها جميع الامارات التي تكوّنت وانتشرت بالشرق الأدنى والتي ورث ملكها الحكام والقواد والشخصيات البارزة من رجالها ومن غير رجالها ثم حالة

الصليبيين الذين جاءوا من وراء البحار لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، ولما رُب أخرى في نفوسهم ، لعلها أعمق مما يتواتر في الكتب وأدق بكثير . وإذا تعرض الباحث لذلك كله ، فلا بد من الكلام عن تلك القبائل العربية وغير العربية المنتشرة بالجزيرة والشام ، ومعرفة ما انتهى إليه حالها أيام مجيء السلاجقة ، وبعد تفكك دولتهم . وهذا بالإضافة إلى الدولة الفاطمية لأنها الدولة التي قامت على أنقاضها الدولة الأيوبية .

ومن ذلك يتضح أن موضوع هذا الفصل محدود بأربعة عناصر رئيسية وهي الخلافة العباسية في بغداد منذ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، ثم السلاجقة وسياستهم بالشرق الأدنى وأثرهم في تاريخه ، ثم الصليبيون وتأسيسهم الإمارات اللاتينية بالشام على حساب المسلمين ، ثم الخلافة الفاطمية في أواخر أيامها بالبلاد المصرية .

أما الخلافة العباسية فقد بدت في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ( الرابع الهجري ) مختلفة تمام الاختلاف عما كانت عليه زمن العباسيين الأولين ، إذ اقتضت سلطتها على ركن واحد من أركان العالم الإسلامي الواسع ، ولم تعد هذه السلطة أن تكون سلطة إسمية ، بل أن تلك السلطة الاسمية أصبحت لا تتعدى جدران قصر الخلافة . أما السلطة الفعلية فقد باتت في أيدي الترك من بني بويه الشيعة الذين أقاموا إلى جانب الخلفاء في بغداد نفسها منذ عام ٩٤٥ م إلى عام ١٠٥٥ م ( ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ) .

وتجراً أولئك المستبدون بالخلافة جرأة لم تكن معروفة من قبل . فطمعوا في مصاهرة الخليفة يقصدون من وراء ذلك أن يقووا مراكزهم أمام المسلمين وحمل عضد الدولة بن بويه الخليفة الطائع لله (٩٧٤-٩٩١م)

(٣٦٣ - ٥٣٨١) على أن يتزوج من من ابنته (١) ليكون لبني بويه صلة من النسب والقربى بالخلفاء العباسيين وخطا السلاجقة خطوة أخرى في ذلك السبيل حين تزوج السلطان طغرل بك السلجوقي من ابنة الخليفة القائم بأمر الله (٢) الذي حكم بين عامي ١٠٣١ - ١٠٧٥ م (٤٢٢ - ٥٤٦٧) وكان السلاجقة - وهم ترك أيضا ، قد حلوا محل بني بويه في القيام إلى جانب الخلفاء العباسيين في بغداد منذ عام ١٠٥٥ م (٤٤٧ هـ) (٣) .

على أن الذي يدعو إلى الالتفات من هاتين الظاهرتين أن البيوت الإسلامية التي لم تكن من العرب أو الفرس أو الترك المتعلقة أسمائهم

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٥٧ .

(٢) انزعج الخليفة أول الأمر من ذلك الطاب ولكن لم يسهه أخيرا إلا القبول وبالرغم من ذلك فإن طغرل بك ظل يقبل الأرض بين يدي عروسه هدة أيام هببة وإجلالا . عماد الدين الأصفهاني من مختصر البنداري - دولة آل سلجوق ص ٢٤ .

(٣) مما تجدر ملاحظته أنه بالرغم من ضعف الخلفاء ذلك الضعف الشائن في الداخل والخارج ، فإن سلطتهم الروحية ظلت مرعية الجانب على أساس أنهم خفاء النبي عليه السلام وأن الأحكام لا تكون شرعية إلا إذا صدقوا عليها ، ولذلك لم يستطع الأمراء والحكام الذين استقلوا عن الدولة سياسيا أن يستقلوا عنها دينيا ، فإذا كون أحدهم لنفسه اضطر أن يرسل إلى الخليفة يبايحه ويطلب أن يقلده حكم ولايته وذلك تهيئة لسلطته أمام الجمهور من المسلمين فعضد الدولة البويهية بالرغم من استبداده بالخليفة ومخالفته له في المذهب ومفالاته في التشيع فإنه أمر بهارة دار الخلافة . أما السلطان السلجوقي محمود فقد مرض مرة عقب نزاع بينه وبين الخليفة العباسي المسترشد بالله فكان أن مرضه يرجع إلى مفاداته للخليفة ولذلك أمر بأن يجمل في محفة ويمر به على قصر الخليفة ليطلب صفحه ورضاءه ودعاءه . والقصص التي تشبه ذلك كثيرة .

ابن الأثير ، الكامل ج ٨ ص ٢٨٣ ، الحسيني أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٨

بالدور الإسلامية في عصورها الأولى قد أخذت تنزوي إلى مركز الصدارة في العالم الإسلامي كله وليس عجباً أن ينزوي غيرها إلى مثل ذلك أو ما يشبهه كإقامة دولة مستقلة بإقليم من الأقاليم وهو ما استطاعه الكثير من الرجال من قبل ومن بعد ومنهم بنو أيوب .

أما السلاجقة الذين أخذوا ، وكان البويهيين في القيام إلى جانب الخلفاء العباسيين ، فكانوا سنين ، بل منالين في تعصبهم للمذهب السني ، ومن ثم باتوا يعتقدون أن من أهم واجباتهم أن يعيدوا إلى حظيرة السنة ما استولى عليه الشيعة من الأقطار (١) ، وأن يستدقوا المذهب الشيعي أنى وجدوة ، ويدل على ذلك أنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى انحدر فريق منهم إلى الشام (٢) في عام ١٠٧٠م (٥٦٤٢) وحتى استولى أحد قوادهم وهو آتسز على دمشق عام ١٠٧٥م (٥٦٦٧) وسار آتسز بعد ذلك صوب الحدود المصرية يريد أن يهاجم الشيعة في عقر دارها وأحدث اقترابه من مصر ضجة كبرى بن المصريين لما عرف عن آتسز من الجور والعسف والطغيان ، ولأن الجيش المصري كان في ذلك الوقت في الصعيد يحارب بعض الخارجين على الخلافة الفاطمية في القاهرة واستعد بدر الجمالي للقاء آتسز استعداداً طيباً بأرب أفسد عليه بعض قواده وكاتب جنوده يغيرهم بالخروج عليه ، كما أعطى المال والسلاح لثلاثة آلاف من المصريين الخارجين إلى الحج ، وأقنعهم بأن جهاد

---

(١) اعتبر السلاجقة أنفسهم حماة للخلفاء العباسيين ومن هنا وضعوا أنفسهم موضع الأعداء الألداء للخلفاء الفاطميين في القاهرة وحاولوا أن يستولوا على أملاكهم في الشام وأن يهدموا دولتهم نفسها في مصر Gibb The Damascus Chronicle of the Crusade P. 19-20

(٢) نفس المصدر ص ٢٠ .

العدو أفضل من الحج (١) فلما التقى الفريقان ظاهر (٢) القاهرة في عام ١٠٧٦ م (٥٢٦٩ هـ) هزم آتسز وادلات في نهر يبر من أصحابه إلى الرملة ومنها إلى دمشق (٣) .

وكانت الشام قبيل مجيء السلاجقة مقسمة بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية الأولى في الجنوب والثانية في الشمال (٤) ، وتنتشر في ربوعها القبائل العربية المختلفة ، فأقامت قبيلة طيء في الجزء الجنوبي من صحراء الشام ، وسكنت قبيلتا عقيل وكلاب في الجزيرة وكانت قبيلة كلاب تحت قيادة صالح بن مرداس (٥) ، وبفضله استولت على حلب سنة ١٠١١ م ، ولكنها فقدتها عام ١٠٧٩ م للسلاجقة فتفرقت القبيلة بعد ذلك إلى أن استطاعت أخيراً أن تحتفظ بقلعة جعبر على نهر الفرات بالقرب من

(١) سبط بن الجوزي — مرآة الزمان حوادث سنة ٤٦٩ هـ .

(٢) يذكر ابن القلائس أن آتسز تقدم حتى ظاهر القاهرة حيث دارت المعركة (ص ١٠٩—١١١) بينما يقول لين بول أنه لم يتقدم إلى أكثر من غزة والعريش (ص ١٦١ تاريخ مصر في المصور الوسطي) ، والمناقضة بين المرجعين تدعو إلى ترجيح ما جاء بابن القلائس ، ولعل لين بول لم يطلع على ذلك المرجع .

(٣) ذكر ابن القلائس أن السلطان ملكشاه أراد أن ينزو مصر سنة ٤٨٥ هـ وكان حين هزم على ذلك مقبلاً في أصفهان ، فلما وصل إلى همدان وث رجل ديلمى من الباطنية على وزيره نظام الملك فقتله فخرن عليه السلطان حسرتاً شديداً ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعد وزيره بقليل .

ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٤) Lamont P. 163 .

(٥) كان صالح بن مرداس يسكن حوالى سنة ١٠١١ بالقرب من حلب وقد حدث سنة ١٠٢٣ م (٤١٤ هـ) أن ثار سكان تلك المدينة على حاكمها الفاطمي واختاروا صالحاً حاكماً عليهم وهذا هو منشأ حكم ذلك البيت في تلك المدينة. Lane-poole, The Moḥammadan Dynasties P. 114.

حلب . وكذلك استقل عين الدولة بن أبي عميل قاضي صور بتلك المدينة حتى استعادها الفاطميون (١) ثانية سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ، وسلك حسن بن عمار قاضي طرابلس السبيل نفسها على حساب الفاطميين حتى أجلاه عنها الصليبيون . أما علي بن منقذ فقد كون لنفسه أمانة عربية هامة في شيزر (٢) سنة ١٠٨١ م (٤٨٤ هـ) واستمرت تلك القلعة في أيدي ذلك البيت حتى الزلزال المشهور الذي حدث سنة ١١٥٧ . وفي حص استقر خلف بن ملاعب سنة ١٠٨٢ م (٤٧٥ هـ) نائباً عن الأمير العقيلي صاحب حلب وكان غرض ذلك الأمير أن يكون ابن ملاعب حاجزاً بينه وبين دمشق ولسكن الفاطميين أجلوه عنها (٣) سنة ١٠٩٠ م (٤٨٧ هـ) .

تلك هي القبائل العربية التي انتشرت في الشام قبل مجيء السلاجقة إلى تلك البلاد فلم يكن بد من أن تتلقى الصدمة السلجوقية الأولى ، وأن تفقد استقلالها الكامل على أيديهم . ويقال مثل ذلك بصدد القبائل الكردية التي استطاع بعض البارزين من رجالها أن يكون لنفسه دولة أو أسرة حاكمة ، سقطت جميعها على أيدي السلاجقة أيضاً .

وتاريخ الأكراد - في الواقع - تاريخ طويل (٤) ، لا دخل له في هذا

---

(١) كان عين الدولة قد قوى فلم يستطع أبناؤه مدافعة المصريين فساموها لهم انظر ابن القلانسي ص ١٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١١٣ (اشترى ابن منقذ حصن شيزر من الصليبيين) .

(٣) نفس المصدر ص ١١٥ ، ١١٠ ، ١٢١ .

(٤) هناك مصدوران عربيان عن تاريخ الأكراد أولهما « خلاصة تاريخ الكرد وكروستان » تأليف أمين زكي بك باللغة الكردية وترجمه إلى العربية محمد علي عوني .

والثاني « من عمان إلى الهادية أو جولة إلى كردستان الجنوبية » تأليف علي سيدو الكوراني . وأغلب الظن أنهما المرجعان الوحيدان باللغة العربية عن هذا الموضوع .

الموضوع إلا فيما يختص بتلك الإمارات والدويلات التي أقامتها القبائل الكردية المختلفة مع تبعيتها لبني بويه والخلافة العباسية أحياناً في القرن الحادى عشر الميلادى أو بقليل ، كدليل يوضح إلى حد كبير مدى نشاط ذلك العنصر ويعطى صورة عن الحالة العامة بالشرق الأدنى في ذلك الوقت وهو الغرض الأساسى من كتابة هذا الفصل .

ومن الإمارات الكردية . تلك الإمارة التي أسسها حسنوية بن الحسن والتي دام حكمها أ كثر من نصف قرن من سنة ٩٥٩ إلى سنة ١٠١٥ م (٣٤٨ - ٤٠٦ هـ) وشملت ديناور وهمدان ونهاوند وقلعة سرجاج وغيرها (١) . وقد كان حسنويه زعيماً لقبيلة البرزكانية التي انتشرت في كردستان (٢) . وقد بلغت قوته حدا جعل بني بويه لا يتعرضون له ولا يحاولون الانتقاص من ملكه . ولما توفى حسنويه سنة ٩٧٩ م (٥٢٦ هـ) خلفه ابنه بدر . وهو الذى منحه الخليفة العباسى لقب ناصر الدولة . ثم توفى بدر هذا سنة ١٠١٤ م (٤٠٥ هـ) وجاء بعده ابنه الظاهر إلا أنه لم يبق فى الحكم إلا عاما واحدا . إذ استولى بنو بويه على ملكه ، ثم قتلوه بعد ذلك بقليل (٣) .

وكذلك أسس باذن دستك أماره كردية أخرى فى ديار بكر منذ أواخر القرن العاشر الميلادى . وكان ذلك الرجل زعيماً لقبيلة الأكراد الحميدية التي انتشرت بضواحي الموصل (٤) . وكما كان للهدبانىة قلعة

---

• Lanc Poole. The Mo hammadan Dqnastiss. P. 138 (١)

(٢) ابن خلدون — البرج ٤ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٤ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ١١٣٧ مادة .

(٤) ابن خلدون ، البرج ٤ ص ٢٥١ .

أربل وصاحبها أبو الحسن بن موشك وهكذا (١) . ولما توفي عضد الدولة بنى بويه سنة ٩٨٢ م ( ٢٧٢ هـ ) وآنس باذ من نفسه القوة استولى على آمد وميافارقين ونصيبين . وختى صمصام الدولة الذى خلف عضد الدولة - ازدياد بنوذ باذ فأرسل حملة حربية للقضاء عليه . ولكن الحملة هزمت . واضطر فأندها إلى الالتجاء إلى الموصل التابعة لبني بويه فثار عليه أهلها وعزمت دخلها باذ سنة ٩٨٣ م ( ٢٧٣ هـ ) ، ولم يكتف بذلك بل فكر فى القضاء على البويهيين وإنهاء حكمهم فى بغداد (٢) . إلا أن صمصام الدولة هزمه فى السنة التالية ، وحال بينه وبين تحقيق مشروعه الجرى ، وخلعه من ديار بكر . وغمها إلى أملاك أنى المعالى بن حمدان صاحب حلب ، غير أن ابن حمدان لم يستطع دخول ديار بكر ، ولذلك دارت المفاوضات بين صمصام الدولة وبين باذ ، بقصد الصلح وانتهى الأمر فعلا بأن أصبح لباز ديار بكر (٣) على أن يترك بقية ما استولى عليه من البلاد .

ثم أراد باذ أن يستولى على الموصل . فجمع عدداً كبيراً من الأكراد البشوية (٤) وهاجمها واستعان الحمدانيون - أصحابها الأصليون - ببني عقيل وبالبويهيين . فلما دارت المعركة بين الفريقين هزم باذ (٥) ، وقتل عند أسوار تلك المدينة .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦٣ .

(٢) دائرة المعارف ج ٢ ص ١١٣٧ مادة Kurds ، ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥١ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ١١٣٧ مادة .

(٥) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ج ٣ ص ١٧٦ سنة ١٧٨ .



وعند وفاته أسرع ابن أخته أبو علي مروان بن دستك إلى حصن  
كيفما حيث كانت تقيم زوج غاله المتوفى فتزوجها (١) ثم تجهز وهاجم  
الموصل وأسر أبا عبد الله الحمداني (٢) ، وانصرفت هبته بعد ذلك إلى  
العناية بإقليم ديار بكر فأقام فيها دولة نسبت إليه وهي الدولة المروانية  
التي دام حكمها أكثر من مائة سنة فيما بين عامي ٩٩٠ - ١٠٩٩ م  
( ٣٨٠ - ٥٤٨٩ هـ ) . وقد اكتسب بعض أمراء تلك الدولة شهرة مستمدة  
من الحوادث التي صادفتهم كأبي نصر أحمد بن مروان (٣) (٤٠٢-٤٥٣ هـ)  
الذي بدأت طلائع السلاجقة في عهده تغزو ذلك الإقليم فدخل نصر  
في طاعة طغرل بك السلجوقي سنة ١٠٥٠ م (٤٤٢ هـ) .

تلك هي أم الإمارات والدويلات الكردية التي قامت منذ القرن  
العاشر والتي استقرت ببعض بلاد الشرق الأدنى قبيل الدولة الأيوبية  
الكردية في مصر .

أما قبيلة الروادية - وهي القبيلة الكردية التي انبعثت منها الأسرة  
الأيوبية فهي بطن من بطون الهذبانة . وقد انتشرت تلك القبيلة حول  
جزيرة (٤) زمن زعيمهم شداد بن كرتو (٥) حوالي سنة ٩٥١ م (٥٢٤٠)  
وفي سنة ١٠٧٩ م (٤٦٥ هـ) اشترى أحد رجالها البارزين وهو المدعو  
سوار مدينة آني (٦) ومنذ ذلك الوقت انقسمت الروادية شعبتين إحداهما

(١) نفس المصدر ص ١٧٨ ، ابن خلدون ، الدير ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧٨ ( ابن مسكوبه ) .

(٣) لأبي نصر ترجمة موجزة في وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٧ .

(٤) اسم مدينة بأران وهي بين شروان وآذربيجان وهي التي تسميها العامة

كنجه . راجع ياقوت ، معجم البلدان ج ٣ ص ١٥١ .

(٥) Ency. Isl. vol II P. 1138 .

(٦) قلعة حصينة ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجه . ياقوت معجم البلدان

في جنزة والأخرى في آنى . وهذا هو أهم ما يمكن استخلاصه عنها من المراجع .

على أن هدم استقلال القبائل والدويلات العربية وغير العربية لم يكن كل ما أحدثه السلاجقة بالبلاد التي دانت لهم ، بل ينسب إليهم شيرع النظام الاقطاعى ببلاد الشرق الأدنى . وهذا هو أهم ما يتصل بموضوع البحث من تاريخ الدولة السلجوقية كله لأنه يفسر كثيراً من المبادئ والحوادث والأطماع التي كان المعاصرون ومنهم بنو أيوب يتطلعون إلى تحقيقها .

ذلك أن الدولة السلجوقية نشأت حربية ، واعتمدت إلى حد كبير على الجيش فيما هو حربى وغير حربى من نواحى الحكم والإدارة . وقد تكون ذلك الجيش من نوعين من الجنود أحدهما مرتزقة والآخر أرقاء (١) ومن النوع الثانى كان معظم القواد الذين عمل السلاطين على تنشئتهم وإعدادهم لولاية زمام الأمور الحربية وغير الحربية على اعتبار أن نشأتهم فى البلاط السلجوقى يزيد فى إخلاصهم للدولة (٢) ، وقداء شخصياتهم فى شخصيتها ، وهذا هو ما سار عليه الأتراك العثمانيون فيما بعد .

والواقع أن سياسة السلاطين السلاجقة جرت على قاعدة ألا يمهّدوا بالوظائف الأساسية فى الدولة لرجال من الأحرار (٣) لأن إخلاصهم لا بد أن يكون موضع الشك . وكذلك فعلوا بالنسبة للجيش ، فانهم لم

(١) Lanc Poole, Saiadin. P. 15. Yibl P. 32-33

(٢) المغرزي، المخطوط ج ٢ ص ٢١٦ .

(٣) Lane. Poole, The Nohammadan Dynasties P. 159

يعتمدوا على جنس واحد في تكوينه بل عملوا على أن يشمل أجناس الدولة جميعاً (١). وعلى ذلك تكون الحرس الخاص للسلطان من الأرقاء ، وأصبح منهم كبار الموظفين (٢) ، ووضع لتعيينهم وترقيتهم نظام خاص يلائم مواهبهم واستعدادهم الفطري ويشمل سلك وظائفهم من منشئهم حتى يعتقوا في النهاية ويصبحوا أحراراً (٣) .

ولكن ما هو الأجر الذي يتقاضاه أولئك الرجال بمد عتقهم وإسناد الوظائف الرئيسية المختلفة إليهم في مقابل ذلك بحكم القلاع والمدن بل بحكم الأقاليم في بعض الأحيان يحكمونها باسم السلطان ويورثونها لأولادهم من بعدهم (٤) . ولم يكن الأمر كذلك — على حد قول المقرئى — قبل السلاجقة وإنما كان الخلفاء من بنى أمية أو بنى العباس يقطعون الأراضي لنفر من خواصهم ، ينفقون من خراجها على الجند وغير ذلك من باقى الكلف . ويحمل ما يبقى إلى بيت المال ، أما الأرض فتبقى في يد مقطعيها (٥) .

نشر السلاجقة ذلك النظام فى الأقاليم التى وضعوا أيديهم عليها (٦) .

---

(١) Siaset Namèh, Traduit Par Charles Schefer P. 135

(٢) Saladin P. 15

(٣) Ibid.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد الثانى العدد السابع

ص ٤٧٨

(٥) المقرئى الخطط ج ١ ص ١٥٦

(٦) قبل ظهور السلاجقة انتشر ذلك النظام فى بعض أرجاء الدولة المناسبة كنتيجة

حتمية لضعف السلطة المركزية إذ كان يمول كبار المقواد وهم من الأرقاء

بحكم بعض الأقاليم وتكوين جيوش خاصة بهم إلى غير ذلك .

أى أن جزءاً كبيراً من الشرق الأدنى ، بل الشرق الأدنى كله ما عدا مصر التي لم يمتد سلطانهم إليها أصبح محكوماً بأولئك الضباط الأرقاء ، بعد أن يمنحهم السلطان تفويضاً بذلك ، محتفظاً لنفسه بالحق في منعهم من مباشرته متى أراد . ثم أصبحت لهم حقوق وأصبحت عليهم واجبات فمن حقهم أن يحكموا اقطاعاتهم وأن يقرضوا على سكانها الضرائب إلى غير ذلك من مظاهر الحكم والسلطة . ومن واجباتهم أن يؤدوا التزاماتهم الحربية للسلطان إذا طلب منهم ذلك . وعلى ذلك المبدأ قامت الدول الأتابكية في دمشق والموصل وأذربيجان وغيرها . وهى الدول التي ورثت دولة السلاجقة عندما تفككت بعد سلاطينها العظام (١) .

ثم سار أولئك الحكام بدورهم على نفس تلك السياسة ، فنحوا بعض الأجزاء لاتباعهم يحكمونها مقابل إمدادهم بالجنود — كما هو الحال بينهم وبين السلطان ، فإذا حدث ما يدعو إلى القتال استطاع السلطان أن يجمع الجنود من أنحاء مملكته الواسعة ، فإذا انتهت المعركة رجعوا إلى بلادهم نيمضوا فصل الشتاء ثم عادوا كرة أخرى إلى القتال في الربيع التالي إذا استدعى الموقف ذلك (٢) .

المنتظر أن يؤتى ذلك النظام ثمرته المرجوة ما دام السلطان قويا حازما يستطيع إذا جدّ الجدّ أن يوقف اتباعه عند حدهم ، أما إذا عجزت السلطة المركزية عن أداء وظيفتها الطبيعية وفشلت في إخضاع المغامرين وذوى الأاطاع فإن النتيجة المحتومة أن يكون النظام الاقطاعى عاملاً من عوامل الهدم والانحلال لامن عوامل القوة والتماسك ، فان أولئك

(١) أنظر Lane Poole, The Mohammadan Dynasties. P. 160

(٢) Lane - Poole, Soladin. P. 16

الحكام عندئذ يهتمون بالتسكين لأنفسهم ولأسرهم كما حدث فعلا في الشرق والغرب على السواء .

ولذلك أدى النظام الإقطاعي ما يرجح منه من خدمات في الوقت الذي ظل السلاطين السلاجقة فيه أقوياء . قابضين بأيدي قوية على نظام الحكم والإدارة المركزية ، فلما ضعفوا وانقسموا على أنفسهم كان ذلك النظام عاملا هاما من العوامل التي هدمت دولتهم وانتهت بها إلى الانحلال (١) .

والنتيجة الهامة التي يمكن الوصول إليها مما تقدم كله والتي يمكن أن تعمل إلى حد كبير أطماع الأسرة الأيوبية وغيرها هي أنه كان طبيعياً ومألوفاً أن يصل إلى أعلى المراتب رجال من عامة الناس بل من الأرقاء ممن فهموا روح العصر الذي يعيشون فيه ومبادئه المساندة وأرادوا أن يفيدوا منها . والبيت الزنكي الآتابكي نفسه دليل على صحة هذا القول فإن آقستقر مؤسس ذلك البيت لم يكن إلا من الرقيق الذين نشأوا في البلاط السلجوقي وأفادوا من الظروف المحيطة بهم إذ كان من أتراب السلطان ملكشاه في صفه (٢) وقد تقلب آقستقر في الوظائف المختلفة حتى عينه ملكشاه حاكماً على مدينة حلب وأعمالها سنة ١٠٨٧ م (٥٤٨٠ هـ) بإشارة من وزيره نظام الملك (٣) فبقى بها إلى أن قتل وهو يدافع عنها سنة ١٠٩٤ م

---

(١) Lane Poole, Saladin P. 22

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤ ، ابن خلكان ، الوفيات ج ١ ص ٧٩ .

(٣) الظاهر أن نظام الملك خشي ازدياد نفوذ آقستقر ، فأراد أن يبعده عن السلطان

ولذلك أشار بتولية مدينة حلب p. p. Dictionnaire des Croisades

p. p. 77 - 1037.

(٤٨٧ هـ) وذلك أثناء حروب السلطان بركيا روق (١) بن ملكشاه ضد عمه تنش بن ألب أرسلان (٢). ومثله ظهور الدين طغتكين أيضاً ، وارتق التركاني وغيرهما من الشخصيات التي سيرد ذكرها بعد قليل فإذا قيل بعد ذلك إن نجم الدين أيوب كانت له ولأسرته أطماع وإنه فهم جيداً روح العصر الذي عاش فيه وأدرك ما ينبغي أن يسلكه من خطوات لتحقيق تلك الغاية التي حققها من قبل بعض الأفراد من العنصر الكردي نفسه ومن قبيلة أيوب ذاتها لم يكن في ذلك القول شيء غريب وإنما هي طبيعة الحياة في ذلك الوقت وطبيعة المعاصرين المعاصرين .

وقد جاءت الفرصة الصالحة المناسبة لتحقيق أغراض أولئك المغامرين إذ توفي السلطان السلجوقي الحازم ملكشاه سنة ١٠٩٢ ومن بعده قام النزاع العنيف بين أبنائه وأخوته على السلطنة وتبع ذلك بالضرورة ضعف السلطة المركزية فتعرضت الدولة لخطر كبيرين أحدهما من الداخل والآخر من الخارج .

أما الخطر الداخلي فهو أن الإقطاعات التي أنشأها السلاجقة بقصد الدفاع عن امبراطوريتهم قد تحولت إلى عامل هام من عوامل القضاء عليها ، وتحول حكمها وأمرؤها إلى أوصياء أو أتا بكة على أبناء السلاطين وتحولت تلك الحقوق المكتسبة التي منحهم إياها السلاطين عن طيب خاطر إلى سلطة فعلية وراثية في أيدي أولئك الحكام والأمراء يورثونها

- 
- (١) كان آفتقر أول الأمر من المؤيدين لتنش ثم انفصل عنه وانضم لبركباروق فقصده تنش وفي المعركة التي دارت بينهما أسر آفتقر وقتل ، ابن القلان ذييل تاريخ دمشق من ١٢٦ .
- (٢) طلب آفتقر النجدة من بركباروق فلم ينجده وطل حاكفا على شرا به وهو لهو الحسيني - أخبار الدولة السلجوقية من ٧٦ .

أبنائهم من بعدهم ، وعلى ذلك الأساس قام كثير من الأسر الحاكمة بالشرق الأدنى وهى دول لا ينتمى مؤسسوها - كما هو واضح - إلى بيت واحد أو نسب واحد . وإنما يجمعهم مبدأ الخدمة فى بلاط السلاطين والسلاجقة وغالبيتهم من الرقيق الذين نشأوا فى ذلك البلاط وظهروا على أيدى أولئك السلاطين . فأتابكة الموصل ينتمون إلى عماد الدين زنكى بن آقستقر وهو مملوك للملكشاه ، وأتابكة دمشق ينتمى نسبه إلى ظهير الدين طغتكين أحد مماليك تنش بن ألب أرسلان (١) والدولة الأرتقية تنسب إلى أرتق التركمانى أحد مماليك السلطان ملكشاه (٢) أيضا وهكذا . وقد جاء قيام تلك الدويلات والأسر الحاكمة مثلاً عملياً واقعياً أمام ذوى الأطماع من المغامرين الذين عملوا على أن يسلكوا سلوكهم ويؤسسوا لأنفسهم بيوتاً حاكمة مثاهم ، ومن أولئك نجم الدين أيوب وأخوة أسد الدين شيركوه والأسرة الأيوبية السكردية بوجه الاجمال .

أما الخطر الخارجى فيتمثل فى الحروب الصليبية وهى تلك الحروب التى يتفق المؤرخون الآن جميعاً (٣) على أن أهم عامل فى نجاحها إنما يرجع إلى عدم وجود قوة موحدة إسلامية تستطيع أن تقف فى طريقهم وعلى

(١) عين تنش ظهير الدين طغتكين اتابكاً لابنه وقاق ، وأسر طغتكين فى موقعة الرى وهى الواقعة التى قتل فيها تنش ولكنه استطاع ان يهرب وأن يعود إلى دمشق سنة ٤٨٨ هـ وبسبب سلطنة هناك كآتابك للأمير دقاق بمساعدة صفوة الملك أم ذلك وزوجة تنش .

انظر ابن القلانئ ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) ذكر لين بول نبذة مختصرة وواضحة عن تلك الدولة فى كتابه

The Mokaminadan Dynasties ص ١٥٩ وما بعدها .

The Orab Hcitage; Lamonté, Crusade & Jihad P. 163 (٣)

زيادة مصر والحروب الصليبية ص ٢ .

ذلك الأساس استطاعوا بسهولة أن يكونوا أماراتهم اللاتينية الأربعة في الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس فيما بين عامي ١٠٩٨-١١٠٩ م . وقد وضع لبعض أمراء الشرق الأدنى أمثال قربوجا أنابك الموصل وطلختكين أنابك دمشق وغيرهما - بعد أن وضحت أغراض الصليبيين الحقيقة - أنه لا سبيل إلى مدافعة تلك الدول الصليبية إلا بتكوين جهة إسلامية متحدة ذات قوة حربية كبيرة . ومن أولئك الشخصيات أيضاً عماد الدين زنكي .

أما عماد الدين زنكي فهو ابن آقستقر أنابك حلب (١) والذي توفي سنة ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) تاركاً ابنته زنكي ظفلا لا يتجاوز العاشرة من عمره . وقد كفل زنكي صديق بن أسدقاء أبيه المخلصين ، وهو قربجا حاكم الموصل وأعظم الشخصيات الحاكمة بالجزيرة في ذلك الوقت فقدم لابن صديقه الراحل كثيراً من الخدمات واستدعاه واستدعى عماليكه إلى بلاطه وإشرف بنفسه على تربيته (٢) ودربه على الحرب والقتال . وفي البلاط الموصلى قضى زنكي بضعة أعوام من حياته ، كان فيها موضع رعاية قربجا حتى وفاته سنة ١١٠١ م (٤٩٤ هـ) وموضع عطف خلفائه (٣) كذلك اشتهر زنكي بالشجاعة والجرأة وبقي حيث هو حتى بلغ الثامنة والثلاثين من عمره وبالرغم من أن الظروف لم تسمح له بأن يقوم بدور هام خلال تلك الفترة من حياته ، إلا أنه لا يمكن القول بأنها مرت عبثاً ، إذ شاطر في تلك الحروب المتصلة بين المسلمين والصليبيين فكان نشأته

---

(١) انظر ص ١١ من الرسالة . راجع ترجمة زنكي في ابن خلكان الوفيات

ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ص ٢٧ .

(٣) ملك بند قربجا موسى التركماني ثم شمس الدولة جكرمش وهو من ممالك

ملكشاه أيضاً ثم جاولي ثم مودود - الروضتين ج ١ ص ٢٧ .



في تلك البيئة اثرت في تكوين شخصيته وتحديد أهدافه وسياسته فيما بعد كزعيم للجهاد ضد الصليبيين .

وفي سنة ١١٢٢ م (٥١٦ هـ) أقطع السلطان مسعود السلجوقي الأمير زنكي إقليم واسط (١) وقد أثبتت الحوادث التي تلت أنه جدير بما نال من ثقة إذ تدخل في النزاع الذي ثار بين الخليفة وبين ديبس بن صدقة أمير الحلة (٢) وكان زنكي على ميمنة جيش الخليفة ، ولولا أنه قام بحركة التقاف حول جيش الأعداء لاستمر جند الخليفة في ارتدادهم ولولوا منهزمين ، ولكنه أدرك الموقف المناسب فارتد ديبس وجيشه ثم فر ، وكان لزنكي فضل غامر في ارتداده وفراره . ثم أخذ زنكي من يعد ذلك يغامر في حواث العراق حتى أصبح مستحفظا لبغداد وحاكما على العراق . وفي سنة ١١٢٧ م (٥٢١ هـ) اختاره المسترشد العباسي حاكما على الموصل والجزيرة (٣) ثم سلم إليه السلطان ولديه محمود وفروخشاه ليربيهما فتح على ذلك لقب أتابك .

وقد أصبح زنكي بحكم موقعه وموقع أملاكه الجغرافي زعيم المسلمين في النزاع القائم بينهم وبين الصليبيين ، فتجرد لمل تلك الرسالة ، واتبع ليحققها سياسة رشيدة فبث العيون والإرصاد (٤) في بلاط أتباعه وأعدائه

---

(١) الروضين ج ١ ص ٢٩ ، Stevenson, The Crusades in the East P. 122.

(٢) ابن خلدون ، العبر ج ٣ ص ٤٠٣ ، أبو شامة الروضين ج ١ ص ٢٩ .  
(٣) ابن خلسكان ، الوفيات ج ١ ص ١٩٣ - الروضين ج ١ ص ٢٩ - ٣٠ .  
(٤) تلك بعض تعاليم ملكشاه ونظام الملك . وكانت عند المعاصرين كالتسمية المتبعة - كما يقول أبو شامة « ج ١ ص ٢٩ » وعلى نفس المبدأ سار صلاح الدين فيما بعد في مصر فأمن شر أعدائه وأحبط كل محاولاتهم التي قلموا بها ضده .

على السواء ، بل بث عيونه في بلاط السلطان السلجوقي نفسه ، وحرص أشد الحرص على أن تصل إليه أخبار الصليبيين وفي نفس الوقت ألا يصل إليهم من أخباره شيء . وكما أن نشأة زنكي في البلاط الموصلية قد ساعدته على أن يسير وفق السياسة التي سار عليها فيما بعد فإن شخصيته من ناحية أخرى كانت ذات أثر فعال في نجاح تلك السياسة إذ كان مهابا - والقصاص التي تدور حول ذلك المعنى كثيرة - عليا بإقدار الرجال فتأتي له بذلك أن يجمع حوله ثلة من الرجال المخلصين الأقوياء كنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه وغيرهما .

ومبدأ اتصال زنكي بالآخرين أيوب وشيركوه أنه أخذ يتدخل في النزاع بين السلاطين السلاجقة بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين الخليفة ، وفي نزاع من ذلك النوع انضم زنكي إلى السلطان محمود ضد الخليفة العباسي المسترشد بالله ولكنه هزم فأصبح عليه أن يعبر نهر دجلة ، وسهل له نجم الدين أيوب - وهو حاكم تكريت - وقتذاك - هو وأخوه شيركوه طريق العبور - وسيأتي ذلك أكثر تفصيلا في موضعه من الفصل الثاني .

وحاول الخليفة - بعد أن هزم زنكي أن يستولى على الموصل ولكنه ردد عنها مخفقا (١) . أما زنكي فقد وجد ألا بدله من الاستيلاء على دمشق كخطوة حازمة لازمة لجهاده ، ويقال أن شمس الملوك اسماعيل انابك تلك المدينة كاتبه ليسلها إليه (٢) . وأدرك الصليبيون ما مهددهم من خطر أن نجح زنكي في الاستيلاء على دمشق فساعدوها ضده (٣) . أما شمس الملوك فقد ثار عليه ماليكة وغضبت عليه والدته فقتل بعلم

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٩ .

(٣) Stevenson P. 134 .

منها (١) وتشلم مقاليد المدينة بعده أخوه شهاب الدين محمود فلما حاصر زنكي المدينة في يوليو سنة ١١٣٩ (جمادى الأولى سنة ٥٣٤) لم يقم منها بطائل ، فاكتمت بالاستيلاء على بعلبك (٢) في نفس العام ثم عاد إلى الموصل ليحرب حظه في ميدان جديد .

لم يكن ذلك الميدان الجديد سوى مدينة الرها وقد اتبع زنكي - اسكى يتم له الاستيلاء عليها - سياسة عميقة فأخذ يرأسل مانويل كمين امبراطور الدولة البيزنطية يحذره من الصليبيين ويرأسل الصليبيين فيحذره بجانب الإمبراطور (٣) .

ويبدو أن تلك السياسة آتت أكلها فنشب النزاع بين الفريقين (٤) بالإضافة إلى أسباب أخرى .

ثم أخذ زنكي يطهر المدينة عما قد يعوق هجومه عليها ، فاستولى على شهنور وعلى حصون الأكراد (٥) المنتشرين في تلك الجهات ، وصاهر شاه أرمينيا وراح يستولى على مدن العراق الأعلى مدينة تلو مدينة حتى انتهى به المطاف إلى حصار آمد . ولكن زنكي لم يكن يقصد آمد لذاتها ، وإنما اتخذها سـلماً لفتح لها ، ونجح في فتحها فعلا

---

(١) يقول ابن الأثير « الكامل » ١١ ص ٩ ، أنه لما انتشر الخبر بمكاتبة شمس الملوك زنكي بقصد تسليم دمشق إليه امتنع مالك أبيه وجده وأظهروا ذلك السخط لوالدته فأمرت غلمانها بقتله ، فقتلوه وأمرت بالقائه في موضع من الدار يشاهده في غلته وأصحابه ، فلما رأوه قتيلا سروا لمصره واستراحوا من شره .

(٢) نفس المصدر ج ١١ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٣٢ .

(٤) Stevenson p. 140

(٥) الروضتين ج ١ ص ٣٦ .

سنة ١١٤٤ م ( ٥٥٣٩ هـ ) فجاه نجاحه هذا تنويحاً لأعماله الحربية كلها (١) وهز سقوط الرها جميع القوى الصليبية بالشرق والغرب فجردت لاستردادها الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثانية وهي الحملة التي انضم إليها ملكان متوجان هما لويس السابع ملك فرنسا وكينراد الثالث ابراطور الدولة الرمانية المقدسة إلا أن الأجل لم يمتد بزمنكى ليقوم بنصبيه في مقاومة تلك الحملة إذ توفي قتيلاً في سبتمبر سنة ١١٤٦ ( ٥٥٤١ هـ ) (٢) .  
تاركا أربعة أولاد منهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود وموضع الحديث عن ذلك كله فى الفصل الثانى (٣) .

١ : هذا ما كان من أمر الهيئة التاريخية التي عاش فيها أيوب وشيركوه مؤسس الدولة الأيوبية وحسب الخلافة العباسية ما تقدم من إشارات عما بلغت من ضعف وإحلال وقلة نفوذ . على أن ما قيل بهدد الخلافة العباسية يمكن أن يقال مضاعفاً بالنسبة للدولة الفاطمية فى القاهرة . فان من الخلفاء العباسيين المتأخرين من شن الحروب ، وقاد الجيوش ، وأحياناً من هيئة الخلافة مثل المسترشد (٤) والمقتنى (٥) بينما لا يجد الباحث مثلاً لتلك الإفاقة عند الفاطميين ، إذ تضافت على إضعافهم عدة عوامل أهمها أن أورهم كلها قد صارت بيد وزراء مستبدين قهري

• Lamonte p. 171 (١)

• ابن القلانئ من ٢٨٤ - ٢٨٥ ، Stevenson p. p. 151 - 152 (٢)

• انظر ما بلى (٣)

(٤) يقول أبو شامة ، « وأما المسترشد فان استبد بالمرق بعد السلطان محمود ، ولم يكن لسلطان معه فى كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه

العساكر وقاد الجيوش وبأمر الحروب » ، الروضين ج ١ ص ٣١ .

(٥) يقول ابن خلدون عن المقتنى ، « هو أول من استبد بالعراق منفرداً عن

سلطان يكون معه » . العبر ج ٣ ص ٥٢٢ .

النظر (١) ، وسيطر أولئك الوزراء على الخليفة الفاطمي مسيطرة تامة وحجبه عن الناس ، وأوجدوا بينه وبين الشئون العامة حجاً بآ كثيفاً ، واقتصروا على أن يختاروه من بين الأطفال حتى لقد فكر مرة أحد الوزراء وهو طلائع بن رزيك أن يولى من الفاطميين رجلاً مجرباً فلامه أصحابه واضطروه إلى أن يعدل عنه إلى طفل صغير (٢) .

ومما زاد الطين بلة أن كثيراً من أولئك الوزراء العظام (٣) كانوا على غير مذهب الدولة فأساءوا إلى المذهب الفاطمي بدلامن أن يخدموه وتسببوا في ضعفه وواجههم أن يعملوا على تقويته .

ويضاف إلى ذلك أن الانشقاق العنيف أخذ يسود بين أنصار المذهب الشيعي ، وأصبح كل فريق لا يني عن محاربة الآخر بالسيف واللسان ، فهناك المستعلوية أنصار الدعوة القديمة وهناك النزارية أنصار نزار بن المستنصر (٤) : الذي فرَّ عقب تولية أخيه المستعلي إلى

---

(١) وصف ابن الأثير « ج ١١ ص ٨٣ » الدولة الفاطمية في ذلك القرن وصفا فيه بلاغ إذ قال « كانت الوزارة في مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزراء كالتمسكين وقل إن وليها أحد بعد الأفضل إلا مجرب وقتل وما شا كل ذلك » .

(٢) ننس المصدر ج ١١ ص ١١٤ .

(٣) تعتبر وزارة بدر الجمالي حداً فاصلاً بين نوعين من الوزراء ، إذ كان الغالب قبل ذلك العمد أن يتولاها رجال مدينون ، اللهم إلا في حالات قليلة أما بعد ذلك فقد انتقلت إلى رجال السيف كنتيجة حتمية إلى حاجة الدولة إلى من يحميها . القلقشندي ج ٣ ص ٤٨٩ .

(٤) يظهر مدى اقتنات الأفضل بن بدر الجمالي على حقوق الخلفاء من موقفه إزاء تنصيب خليفة بعد المستنصر ، فقد أقصى نزار بن المستنصر وأكبر أبنائه عن الخلافة وبايع بدله أخاه المستعلي بالله وقد أقصى نزاراً لسببين أولهما أن نزاراً كان رجلاً كبيراً وله حاشية وكان يمارضه في أيام أبيه ويستخف به فغشى منه على سلطته وثانيهما صلة القرابة التي تربط الأفضل بالمستعلي . انظر المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ٢٧٧ .

الاسكندرية (١) ، حيث ادعى لنفسه الخلافة والامامة معا ، وتسمى باسم المصطفى لدين الله . وإلى جانب أوائلك وهؤلاء يقوم الطيبة ، نسبة إلى الطيب ابن الخليفة الأمر الذي قيل إنه لم ينجب ذكرا ، ولكن أهل دعوته يقولون إنه مات عن الطيب وأنهم أخفوه وأن الدعوة بعده انتقلت إلى اليمن وإلى الهند . هذه المذاهب المختلفة شاطرت بنصيب كبير في إضعاف الدعوة الفاطمية ثم في إضعاف الدولة الفاطمية نفسها . وسهولة سقوطها بعد ذلك بقليل .

ومن بين العوامل التي ساهمت في ضعف الدولة وسقوطها أيضا ما كان يحل بمصر في العصور الوسطى من المجاعات والأوبئة والطواعين ، واضطراب الحالة الاقتصادية فيها (٢) . وإذا كانت مصر قد اتتبتها تلك النوائب في عصور غير مصر الدولة الفاطمية فإنه يبدو بما جاء في وصف عبد اللطيف البغدادي للجماعة التي حدثت في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر لم يكن له نظير في تاريخ مصر في العصور الوسطى كلها (٣) .

---

(١) ابن القلانئ ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٨ ، ابن خلكان ، الوفيات ج ١ ص ٥٨ ، Lane Poole, A Hist of Egypt in the Middle Ages p. 162

(٢) من نتائج اضطراب الحالة الاقتصادية عجز الخليفة عن دفع رواتب الجند وقد حدث في عهد المستنصر الفاطمي « ١٠٣٥-١٠٩٤ م » « ٤٢٧-٤٨٧ هـ » إن ناصر الدولة بن حمدان مقدم الأتراك استغل تلك الحالة وفرض كلمته على الجميع حتى ليذكر المقرئ أن خطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله عقب نزاع بينه وبين المستنصر - في الاسكندرية ودمياط وطامة الوجه البحري - وقطع خطبة المستنصر في هذه الجهات . انظر المقرئ ، الخطط ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) راجع عبد اللطيف البغدادي .

يضاف إلى ذلك أن أولى الأمر في مصر في ذلك الوقت بدءوا يمدون أيديهم إلى الخارج يطلبون من الأجنبي العون والمساعدة ضد منافسيهم ، والدولة المستقلة التي تلجأ إلى غيرها اتسرى لها مشاكلها دولة مقضى عليها وعلى استقلالها . وقد ظلت الدولة الفاطمية تعاني تلك الحالة السيئة طويلا ، لا لأنها كانت قادرة على البقاء ، ولكن لأن جيرانها الراغبين في القضاء عليها كانوا قد اضمحلوا أيضا ، فالسلاجقة وهم أعداؤها الألداء ، الذين انتزعوا معظم أملاكها في الشام ، قد انتهى الأمر بهم إلى الانقسام والحروب الداخلية . أما الصليبيون الذين فكّرت بعضهم في الاستيلاء عليها ، فقد ظلوا يحلمون بتلك الفكرة أحلاماً متقطعة حتى أواسط القرن الثاني عشر .

وليس أدل على أحوال الدولة الفاطمية من تتبع حوادثها الداخلية منذ وفاة الخليفة الأمر سنة ١١٣٠ ( ٥٢٤هـ ) فقد توفي ذلك الخليفة دون أن يكون له ولد ، ولكن زوجته كانت حاملا ، فأصبح الوصي على الخلافة الأمير عبد المجيد الذي عرف فيما بعد باسم الحافظ لدين الله ثم أنجبت زوج الخليفة وما في ذلك خلاف ، وإنما الخلاف على نوع المولود أذ كرا جاء أم أنثى ؟ فأنصار الدعوة القديمة يقولون إنها أنجبت بنتا ولذلك أعصب الحافظ خليفة شرعيا . والبعض الآخر يقول إنها وضعت ذكراً هو الطيب فخشي أنصاره أن يقتل ولذلك أخفوه ولم يعرف عنه بعد ذلك شيئاً وسميت دعوته باسم الدعوة الطيبة (١) . وسواء أرجح الرأي الأول أم الرأي الثاني ، فالمهم هنا هو أنه وجدت دعوة جديدة أخذ

---

(١) يذهب ابن ميسر إلى أن لا أمر أمجب ولداً في ربيع الاول سنة ٥٢٤ هـ هو الطيب وأنه جملة ولي عهده . فلما قتل كتم الحافظ أمر ذلك الولد فبايحه الناس بولاية المهدي . راجع تاريخ مصر ص ٧٢ ، ٧٤ .

أنصارها على عاقبتهم أن يحافظوا على المذهب الاسماعيلي ، بل أن يقاوموا الخلفاء الفاطميين بعد أن سلبوا الطيب حقه في الخلافة - كما أصبحوا يعتمدون - وبعد أن تسلط عليهم الوزراء العظام من الأمامية أو السنين (١) .

ولم يستطع الخافظ أن يقبض على دفة الخلافة إلا سنة ١١٣١ (٥٥٢٦) أى بعد مقتل وزيره الأفاضل (٢) ، إذ ظل حتى ذلك التاريخ قائماً بولاية العهد وكان الأفاضل أمامياً فاستبد بالخليفة وسجنه وعمل على نشر المذهب الاثنى عشرى بل لقد ضرب الدراهم باسمه (٣) وعين القضاة من الشافعية والمالكية والاسماعيلية والأمامية بصد أن كان المذهب الاسماعيلي هو المذهب الرسمي للدولة (٤) .

وبعد أن قتل الأفاضل أستند الخافظ الوزارة لأبي عبد الله بن البطائحي (٥).

---

(١) إدريس عماد الدين بن الحسن ، زهرة المساني (نشر الهمذاني)

Islamic Culture p. 21

(٢) قتل الأفاضل بتدبير من الخليفة . حسن إبراهيم حسن الفاطميون في مصر

ص ٢٧٩ — ٢٨١ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٤) لعل تلك الحاك هي التي دعت أبا المحاسن أن يقول « إن الخفاء مع هذا

البيت (بيت بدر الجمالي) كانوا تحت الحجر والفتيق ... أما هم فكانوا

أصحاب مصر ... وإنما كان يطلق عليهم الوزراء لأنها المادة جرت بأن

الملك للخليفة وليس لهم « النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٥) استوزر الخليفة الخافظ ابنه الحسن سنة ٥٣٦ هـ ومن الطريف أن الابن

استبد بالأمر دون أبيه وارتكب معه من الأخطاء مثلما ارتكب غيره من

الوزراء المستبدين وكانت النتيجة أن مات مسموماً بدم أبيه - كما يقال -

لأنه كان سىء السيرة جريئاً على سفك الدماء وسلب أموال الناس حتى لقد

هجم بعضهم فقال :

==



فلم يكن أقل استبداداً بالدولة وبالخلفاء حتى قبض عليه وعلى إخوته سنة ١١٣٤ (٥٢٢ هـ) وتلاه في الوزارة بهرام الأرمني . وكان بهرام وقت سقوط البطائحي والياً على الغربية . فلما سمع بخاتمته ، قدم إلى القاهرة وحاصرها فولاه الحافظ الوزارة ، ثم أخذ الوزير الجديد يعيث في الأرض فساداً ، فأقصى المسلمين عن الوظائف وأحل الأرمن محلهم حتى ضاق ذرع المسلمين ، فبعثوا يستغيثون برضوان بن الوخشي (١) — والى الغربية بعد بهرام — وحضر إليهم رضوان سنة ١١٣٦ (٥٣١ هـ) .

وسرعان ما شق رضوان طريقه إلى الوزارة وفق الأساليب المعروفة فعزل بهرام وكثيراً من صنائعه الأرمن . وقضى بهرام بقية حياته راهباً (٢) .

ولكن العلاقة بين الخليفة ورضوان لم تلبث أن ساءت : فهرب رضوان من القاهرة في شوال سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، وقصد إلى صرخد (٣) . وهناك حاول أن يتصل بزركي ، لولا أن عاقه عن ذلك

---

== لم تأت يا حسن بين الوى حسنا  
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب  
لقد جمعت بلا علم ولا أدب  
ابن الأثير : ج ١١ ص ١٠ .

(١) انظر حسن إبراهيم حسن . الفاطميون في مصر ص ٢١٥ .  
(٢) هرب بهرام إلى الصعيد وقصد أسوان فخاربه السودان ولم يستطع دخولها فأرسل إلى الحافظ يطالب الأمان فأمنه وعاد إلى القاهرة ، ولكنه سجن بالقصر ثم تهرب وخسرج من السجن . ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٢٢ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ وابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٢٢ . انظر أيضا حسن إبراهيم حسن . الفاطميون في مصر ص ٢١٦ .

الأمير معين الدين أتر وزير دمشق ، وكان رسوله في ذلك أسامة بن منقذ — كما يحكى هو عن نفسه (١) — وأقام رضوان عند معين الدين مدة ثم عاد إلى مصر في المحرم سنة ٥٣٤ هـ على رأس جيش كبير ، إلا أن الأتراك الذين جاءوا معه غدروا به ، فالتجأ إلى حى من أحياء العرب . وقد قبض عليه الحافظ وحبسه هو وولده ، ثم هرب رضوان من الحبس ، وحاول أن يقوم بمحاولة جديدة للوصول إلى منصبه . ولكنه قتل قبل أن يحقق شيئاً مما أراد (٢) .

ثم توفي الحافظ سنة ١١٤٩ (٥٤٤ هـ) وجاء بعده ابنه الظافر وعمره ست عشرة سنة فاستوزر ابن مصال ، وكان شيخاً كبيراً مكروهاً من الناس ، فنازعه ابن السلار ، وبالرغم من تعضيد الخليفة للأول وتحريضه الجند على مساعدته فإنه هزم وقتل ، ولم يبق لابن السلار من ينازعه أو يعانده ويشاققه — كما يقول أسامة (٣) — والتقطه الهامة في النزاع بين الوزيرين أنه كان في حقيقة الأمر نزاعاً بين المذهب السني والشيعي ، فإن مصال شيعي المذهب ، وابن السلار سني شافعي (٤) ، وقد شارك في رجوع المذهب السني إلى مصر ، فأنفأ مدرسة للشافعية أسند إدارتها

---

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٣٠ .

(٢) يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن (الفاطميون ص ٢٩٣) . ثم جمع (ابن الوحشى) له أنصاراً كثيرين واستقر في الجامع الأقر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وشتتوا شملهم ثم ظفروا به فقطعت رأسه كما قطع جسمه إرباً ، ولتتهمه الجند باعتقاداً منهم أنهم بذلك يماثلونه في بأسه وشجاعته . انظر أيضاً أسامة ، الاعتبار ص ٣١ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٣ .

(٣) الاعتبار ص ٧ — ٨ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم الفاطميون ص ٢٩٦ .

إلى الفقيه الشافعي الحافظ الساني (١) . ولعل ذلك يفسر موقف الخليفة العدائي من ابن السلار ، حتى نجح في تديير أمر اغتياله على يد الأمير نصر بن عباس (٢) سنة ١١٥٣ (٥٤٨ هـ) الذي تولى أبوه عباس الوزارة من بعد ابن السلار . ثم أخذ الخليفة يجرئه على قتل أبيه أيضاً ، غير أن عباساً علم بالخبر فاحتس ، ثم اتفق مع ابنه على اغتيال الخليفة . ونفذ نصر ما أراد أبوه سنة ١١٥٤ (٥٤٩ هـ) ، فقتل الخليفة الظفر وكثير من أفراد أسرته ، وشهد أسامة تلك الحوادث جميعاً ، وأودعها كتابه « الاعتبار » (٣) .

وأعقب الظافر ابنه الفائز سنة ١١٥٤ (٥٤٩ هـ) وكان في الرابعة من عمره طفلاً حمله أستاذ من أساتذة القصر يوم استخلافه ، غير أن مقتل الخليفة أحدث كثيراً من السخط بين أهل القاهرة ، فثاروا على الوزير عباس ، ولم يستطع عباس أن يقاومهم ، ففر إلى الشام يصحبه ابنه نصر . وفي طريقهما قابلهما الفرنج فقتلوا عباساً ، وأسروا ابنه الذي بيع بعد ذلك ، ثم أرسل إلى القاهرة حيث مات مصلوباً على باب زويلة بعد أن مثل به (٤) . وبما تجب ملاحظته هنا أن عباساً خرج من

(١) ابن خلكان الوفيات ج ١ ص ٣١ .

(٢) قدم عباس — والد نصر — من المغرب إلى مصر . وقد تزوج ابن السلار من والدته فأحب عباساً ورباه . ويقول ابن الأثير أن نصر ادخل عليه وهو عند جدته وقتله هناك . الكامل ج ١١ ص ١٨٣ .

(٣) الاعتبار ص ١٩ .

(٤) « لما قتل الفرنج عباساً أسروا ابنه ، فأرسل الملك الصالح (طلائع بن رزيق) إلى الفرنج وبذل لهم مالا وأخذ منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح فلم يكلم أحداً منهم كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد .

بلى نحن كنا أهوا فآبادنا صروف اليبالي والجدود العواثر .

ابن الأثير : ج ١١ ص ٨٧ .

مصر قاصداً نور الدين (١) يستنجد به ، وتلك هي المحاولة الثانية التي يفكر فيها بعض وزراء مصر في الاستنجد بالبيت الزنكي الأتابكي .

ثم وزر الصالح بن رزك للخليفة الطفل - ابن الفائز - وقد جاء من ولايته في الصعيد تلبية لنداء نساء القصر (٢) . ولكن الوزير الجديد كان إمامي المذهب مغالياً فيه . عدواً للذهب الاسماعيلي ، معناً في كراهيته له ، ومن ثم نال الدعوة الاسماعيلية على يديه أذى كثير ، كما نال الدولة الفاطمية - بالتالي - نفس ذلك الأذى ، لاسيما وهو رجل يقرض الشعر ويؤلف الكتب تأييداً لرأيه (٣) ، فكانت نهايته أن قتل بتدبير من العاضد وعمته (٤) ، وهاهو ذا عمارة البني بالرغم من صلواته الطيبة به ، فإنه يشهد بنقائصه التي يحصيها في تعصبه لمذهبه وحبه المال ، وكراهيته للجنود (٥) ، وللملاحظة عمارة الأخيرة أهميتها وتأثيرها في ضعف مصر من الناحية الحربية ، إذ لم تستطع أن تقاوم هجوم المغيرين عليها بعد أن فقدت صفوة رجالها وأبطالها ، وما يدل على تعصب الصالح لمذهبه ما ذكره عمارة من إنغراء الصالح له حتى يعتنق مذهبته في آيات من الشعر كتبها وأرسلها إليه (٦) .

(١) أسامة الاعتبار ص ٢١ .

(٢) ابن خلكان ، الوفيات ج ١ ص ٢٣٨ ، ٣٩٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٣٢ .

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٥ ، ابن خلكان ، الوفيات

ج ١ ص ٢٣٩ ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣ .

(٥) عمارة البني النكت المصرية ج ١ ص ٤٨ .

(٦) كتب الصالح إلى عماده يقول :

قل لفتيه عمارة ياخير من أضحي يؤلف خطبة وكتاباً

وهناك نقطة أخرى هامة تتعلق بالصالح ، وهي موقفه إزاء الحوادث الحاربية بالشام بين نور الدين والصليبيين ، ولفهم ذلك الموقف لابد من الرجوع قليلا إلى الوراء ، ذلك لأن الفاطميين قد رحبوا بالصليبيين (١) عند نزولهم بالشام ، وظنوا أنهم يستطيعون أن يستعينوا بهم ضد السلاجقة على أن يكتفى الصليبيون بسوريا ، ويتركوا فلسطين لتستولى عليها مصر . وكان الوزير المتصرف في شئون الدولة الفاطمية في ذلك الوقت الأفضل بن بدر الجمالي . ودارت من أجل ذلك الغرض مفاوضات (٢) بين الفريقين بالقرب من مدينة أنطاكية في يونية سنة ١٠٩٨ ، ولكنها لم تنته إلى نتيجة واضحة . واتهم الفاطميون فرصة الاضطراب الذي أثاره الصليبيون ، واستولوا على بيت المقدس (٣) في أغسطس من تلك السنة (٤٩١ هـ) ، وكانت من أملاك السلاجقة ، إلا أن حكمهم لها لم يدم طويلا إذ لم يلبث أن حاصرها الصليبيون بعد ذلك بعام واحد واستولوا عليها ، وذبجوا من أهلها سبعين ألفاً كما تقول المراجع (٤) .

---

= اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى      قل حطة وادخل إلينا البابا  
تلق الأئمة شافين ولا تجرد      إلا لدينا سنة وكتابا .

النكت المصرية ج ١ ص ٤٥ .

(١) زيادة مصر والحروب الصليبية ص ٢ .

(٢) Lamonte, Crusade and Fihad. P. 165

زيادة ، مصر والحروب الصليبية ص ٢ — ٣ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ ، Lane Poole, A Hist. of Egypt in the Middle Ages P. 146

(٤) Lane Poole (Jbid) P. 146

ثم ألقى الصليبيون درسهم الثاني على الأفضل ، إذ فاجأوه بحصار عسقلان ، فتركها ، وأبجر إلى مصر . وأصبح ذلك السلوك من جانب الصليبيين كافياً لأن ينبه الفاطميين إلى حقيقة موقفهم ، ففطنوا إلى الغرض الذي جاء أولئك الغزاة من أجله ، ومنذ ذلك الوقت أخذت أساطيلهم وجيوشهم تهاجم القوات الصليبية في فلسطين ، كما حاول الأفضل أيضاً أن يكون حلفاء بين مصر ودمشق ، لمهاجمة الصليبيين من الشمال والجنوب وهي الفكرة التي نجح في تنفيذها نور الدين محمود فيما بعد ، عندما وحد تحت حكمه مصر والشام (١) ونال الفاطميون بعض الانتصارات فهزموا - مثلاً - الصليبيين بالقرب من عسقلان سنة ١١٠٢ ، كما استردوا الرملة ثم دب النزاع فترة على تلك المدينة بين المسلمين والصليبيين ، وتحالف طفتكين أتابك دمشق مع مصر للدفاع عنها ، ولكن الطرفين هزما في معركة (٢) دارت رحاها بين يافا وعسقلان سنة ١١٠٤ . وقد دفع ذلك كله جو دفرى دى بويون أن يفكر في الاستيلاء على مصر ليقضى على مصدر ذلك الخطر ، ولكن عاجلته المنية قبل المعركة السالفة بأربعة أعوام أي سنة ١١٠٠ (٣) . وحاول أخوه وخليفته على عرش

---

(١) عما يدل على ظهور روح التعاون بين المسلمين أن الصليبيين هاجروا صور فسكت ظهير الدين طفتكين إلى الأفضل يقول : « إن ( بويون ) قد جمع وحشد لقزوق على صور ، وإن أهلها استنجدوا بن عليه ، والتسوا مني دفنة عنهم فبادرت بإرسال من أتقن بصمته لجماعتها والمرامة دوتها ، ومتى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها وينب عنها ويحميها بادر بتسليمها إليه وخروج نوابي منها وأنا أرجو ألا يهمل أمرها وإنفاذ الأمطوك بالنسة إليها والتقوية لها . ابن القلانسي ص ١٨٢ .

(٢) ابن القلانسي ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٣) زيادة مصر والحروب الصليبية ص ٣ .

بيت المقدس بلدوين الأول نفس المحاولة فعمل على أن يستكشف جنوبى فلسطين ووصل إلى أيلة ، وسار حتى بلغ شبه جزيرة سيناء (١) ، ولكنه رجع إلى فلسطين ، ثم عاد مرة ثانية إلى الحدود المصرية وتوغل فيها سنة ١١١٧ ، فدخل الفرما ونهبها ، وتقدم إلى تنيس ولكنه مرض هناك ، واضطر إلى الرجوع قتوفى فى طريق عودته عند العريش سنة ١١١٨ . ومنذ تلك الرحلة الاستكشافية عدل المصريون سياستهم فأصبحت دفاعية (٢) .

وقد كان من المنتظر أن يواصل الصليبيون سياستهم الجديدة إزاء مصر ليضفوا على مشبع الخطر فيها ، ويفيدوا من موقعها فى حروبهم ، ولكن يبدو أن ظهور زنكى وإفاقة المسلمين لأغراضهم ونواياهم الحقيقية ، قد حال بينهم وبين المضى فى تنفيذ تلك السياسة . على أن الحوادث التى تلت ذلك لم تلبث أن جعلت من مصر موضع التنافس بين نور الدين الذى خلف أباه عماد الدين زنكى وبين الصليبيين . وضح ذلك التنافس والاندفاع نحو الجنوب فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر . فى سنة ١١٥٣ اندفع الصليبيون جنوباً فاستولوا على عسقلان بعد أن هزموا حاميتها المصرية ، وقد ضاعت تلك المدينة وهى آخر المعاقل الفاطمية فى فلسطين فى غمار التنافس الذى دب بين المستورين فى مصر عقب مقتل ابن السلار ، فكان رد نور الدين على الصليبيين أن استولى على دهشق فى السنة التالية . وهنا ظهر على مسرح الحوادث فى مصر الوزير طلائع بن رزىك .

---

• Stevenson P. 66 (١)

Lane - Poolo, A. Hist, of Egypt in the Middle Ageo (٢)

P. 165 .

رأى ابن رزبك أن لابد من التحالف مع نور الدين (١) لإيقاظ مصر وبقية بلاد الشرق الأدنى من خطر الصليبيين ووسط في ذلك أسامة ابن منقذ عند نور الدين (٢) . وكتب أشعاراً كثيرة في هذا المعنى ذكرها أبو شامة في كتابه «الروضين» (٣) . كما أمّل أن يجمع كلمة المسلمين ويزيل ما بينهم من تنافس ونزاع (٤) ، ثم أرسل رسلاً آخرين إلى نور الدين يحملين بالهدايا . ويبدو أن نور الدين لم يشأ أن يخطو

• Stevenson p. 180 (١)

(٢) يظفر القارىء لابن شامة بمحصول واقف من الشعر الذى كتبه ابن رزبك وأرسله إلى أسامة وهو بالشام وفيه يستحثه على السعى لاتمام المحالفة بينه وبين نور الدين ومن ذلك على سبيل المثال :

قد كتبنا إليك ما وضح الآن بماذا عن الكتاب محجب  
قصداً أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب  
وعلىنا أن يستهل على الشام مكان القيوث ماك صبيب  
وقوله :

بلغوا قولنا إلى الملك السادس فهو المرجو والمأمول  
قل له كم تعاطل الدين في الكفار فاحذر أن ينضب المملوك  
سر إلى القدس واحتسب ذاك في الله فالسير منك يشقى الغليل

(٣) الروضين ج ١ ص ١١٥ - ١٢٠ .

(٤) مما يدك على ذلك أن نزاعاً قام بين نور الدين محمود وقلبيج أرسلان سلطان الروم السلاجقة سنة ٥٦٠ هـ كان أن يؤدي إلى الحرب بينهما ، فكتب ابن رزبك إلى قليم أرسلان قصيدة طويلة منها :

رجعتم إلى حكم التنافس بينكم وفيكم من الشجفاء نار تفرم  
أما عندكم من يتقى الله وحده أما في رعاياكم من الناس مسلم  
تسالوا لسل الله ينصر دينه إذا ما نصرنا الدين نحن وأتم  
ونهمس نحو الكافرين بمزمة بأمثالها تنجو البلاد وتقسم

ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٤٢ .



تلك الخطوة وهو مشغول بحروبه في الشام ، ققتل ابن رزيك في سنة ١١٦١ ( ٥٦٦ هـ ) قبل أن تحقق له الأيام تلك الرغبة . وخلفه في الوزارة ابنه رزيك .

إلى ذلك العهد لم تكن مصر قد فكرت أن تدفع أموالاً سنوية للصليبيين بفصد إسكاتهم عنها . وفكرة دفع تلك الأموال لا بد أن تكون قد نبتت في عهد رزيك ، أو في عهد وزارة شاور الذي جاء بعده ، وقد مر ستيفنسن ولين بول على تلك المسألة دون أن يحققاها (١) إلا أن ابن القلانسي ذكر في حوادث سنة ٥٥٠ هـ ما يفيد أنها حدثت في عهد رزيك ، وأن أجناده ثاروا عليه عندما فاتحهم في أمر تلك الأموال (٢) بما يدل دلالة واضحة على أن مصر بدأت تدفعها منذ ذلك العهد على الأقل ، ولعل في ذلك ما يوضح إلى أي حد بلغ ضعف مصر ، وارتباك أحوالها الداخلية ، مما جعلها مستعدة لشراء العافية والسلام بالمال .

\* \* \*

هذا استعراض عام لأحوال الشرق الأدنى قبيل قيام الدولة الأيوبية وهذه هي البيئة التي قامت فيها تلك الدولة ونمت . فهل كانت تلك البيئة

(١) انظر p. 186 Stevenson

Lane Poole, A Hist, of Egypt in the Middle ageo p' 177

(٢) ماك ابن القلانسي « وفي أيام من شعبان من السنة ( ٥٥٠ هـ ) ورد الخبر من

ناحية مصر بأن المنتصب في الوزارة فارس الاسلام بن رزيك لما استقام له

الأمر عزم على مصالحة الفرنج وهوادعتهم واستكشاف شرهم ومصادقتهم

بماك يحمل إليهم من الخزانة وما يفرض على إقطاع المقدسين من الأجناد »

ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .

صالحة حقاً لقيام دولة جديدة ، وخاصة في بلد كصر تقوم فيها دولة يذيع خلفاؤها على الملأ أنهم من سلالته النبي عليه السلام ؟ وهل كان شيئاً غريباً أن ينحدر الأيوبيون من الشام — مع جيش نور الدين — فيؤسسوا في مصر دولة قوية على أنقاض تلك الدولة الفاطمية ؟

لو أن الأيوبيين أرادوا ذلك في عهد الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين الأولين ، لو فرض أنهم وجدوا في تلك العهود لما أصابهم إلا الإخفاق ، ذلك لأن الدولة الإسلامية كانت وقتئذ وحدة متماسكة ، ولأن السلطة المركزية كانت قوية ، فلم تكن الظروف — والحال كذلك — تسمح بالانفصال أو الاستقلال .

أما في القرن الثاني عشر الميلادي فقد تغيرت الحال بل أصبح الوضع منذ قرون على خلاف ما كان عليه أولاً ، وهذا هو ما دعا إلى الكلام عن العباسيين ، وهم الخلفاء الذين يعتمدون في حكمهم على حق شرعي — حقا أو باطلاً — والذين كان في مكنتهم أن يوقفوا أولئك المغامرين عند حدهم ، وأن يحاولوا بينهم وبين الاستقلال والانفراد بالحكم . فلما أصبحوا ولا حول لهم في الأمر ولا قوة لم يعودوا حاجزاً أو عائقا — أمام من يريدون التأسيس لأنفسهم — بعد أن استبد بهم وزراؤهم وقوادهم من الأتراك ثم من البويهيين . ثم من السلاطين السلاجقة .

وبمجيء السلاجقة تبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة الإسلامية فإن النظام الاقطاعي الذي نشره أدى إلى أن يرث دولتهم بعدهم قوادهم

وضباطهم ومربو أولادهم وهم الأتابكة (١) . وعلى ذلك الأساس قامت الدول الأتابكة في الموصل ودمشق وسنجار وأربل وأذربيجان وغيرها أى أن الشرق الأدنى شهد خلال النصف الثاني من القرن الحادى عشر قيام كثير من الدول التى لا ينتمى مؤسسوها إلى بيت من بيوت الملك . ولا يتمد على حق من حقوق الحكم ، وتلك فى الواقع ثورة على نظام الحكم الذى ساد الشرق الاسلامى قبل ذلك الوقت . وكلمة ثورة هنا يقصد منها تغيير كلى فى نظام من الأنظمة السائدة . ومعنى ذلك أن أصحاب النفوذ الفعلى فى الدولة العباسية لم يستطيعوا إلا أن يتركوا تلك الامارات والدويلات تنمو دون أن يقفوا فى طريقها . ومن هنا أزيلت عقبة السلطة المركزية من طريق كل قادر أو طموح .

وإذن فقد وجد المبدأ الذى تستطيع أن تركز إليه أية دولة تريد أن تشق طريقها إلى الحكم . ولكن بقيت نقطة أخرى وهى : هل كانت ظروف المجتمع الاسلامى فى الشرق الأدنى تساعد أمثال تلك الأسر على شق ذلك الطريق ؟ الجواب على ذلك بالإيجاب وها هو ذا الدليل : فقد جاء الصليبيون من وراء البحار يعلنون عداؤهم للمسلمين ، ويقتطعون من أملاكهم ليؤسسوا لأنفسهم ، ونجحوا فى تكوين

---

(١) منشأ ذلك النظام أن السلاطين السلاجقة كانوا يعينون لأبنائهم قوادا يكوون مسئولين عن تربيتهم الحرية والادارية . وهؤلاء يمنحون لقب أتابكة ومفردها أتابك — ولكنهم لم يقفوا — بسد انحلال الدولة الساجوقية — عند حد التربية والاشراف ، بل اتسعت ساحتهم ، واستأثروا بالامر دون الأمراء ، وسلكوا لذلك طرقا كثيرة ، فأصبح من المعتاد أن يتزوج الأتابك من والدة الأمير ، وأن يزوج الأمير من ابنته — إن كانت له ابنة ثم استأثروا بسد ذلك بامارات سادتهم وكونوا لأنفسهم أسرته مالكة انظر P. 23 Yibb .

إماراتهم اللاتينية الأربعة المعروفة ، لأن الوحدة الإسلامية قد تفككت ولأن الزعامه القوية المستنيرة لم تكن قد وجدت . ولأن الغرض من تلك الحملات الصليبية لم يفهم على حقيقته ، بل ظنه المسلمون مجرد محاولة لتأسيس دولة إلى جانب الدول التي امتلأ بها الشام والشرق الأدنى كله في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (١) .

ثم ظهر عماد الدين زنكى ، والتف المسلمون حوله ، وقد ثارت حماسهم الدينية (٢) فوقف الصليبيون عند حدم ، ثم لم يلبثوا إلا قليلا حتى ارتدوا على أعقابهم . وقد نجح زنكى في ذلك ، لأن الظروف جميعها كانت تؤيد زعامته ، وتنتظر ظهوره ، فروح الحماسة التي بناها السلاجقة في نفوس المسلمين كانت لاتزال تضطرم بها جوانحهم ، فتدفعهم إلى أن يلتقوا حول أى زعيم بقودم إلى الجهاد والحرب أو الغم والكسب . ثم أعقب ذلك الفوج الأول من الصليبيين أفواج جديدة متحمسة متعصبة (٣) راغبة في تحقيق مختلف الأغراض المادية ، وهذه العوامل مجتمعة هي التي ساعدت زنكى على الظهور والزعامة ، فلما قضى في ميدان الجهاد قام بدله ابنه نور الدين محمود فلعب نفس الدور واتجه إلى ذات الهدف ، وقد نجح لأنه ابن زنكى ، ولكن لأنه مجاهد ،

---

(١) تحدث Lamonte عن تلك الأغراض التي لم تكن دينية بحتة والتي كانت

تشوبها منذ اللحظة الأولى الأغراض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في

الفصل الذى كتبه في «The Arab Heritage» تحت عنوان «Jihad &

the Crusades» من ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) يقول ابن بول أن الحماسة التي أثارها السلاجقة قد خلقت جيلا من المسلمين

يرجع إليه الفضل الأول في إخفاق الحملات الصليبية أكثر مما يرجع إلى

أى عامل آخر The Mohammadan Dynasties P. 150 .

(٣) أسامة بن منقذ — الاعتبار من ١٣٤ — ١٣٥ .

له مبدأ واضع هو حرب الصليبيين وإجلاؤهم عن بلاد المسلمين . فإذا انتهت حياته لاح أن مكانه قد أصبح شاغرا ، وأن أحداً من أبنائه أو سلالته لن يستطيع أن يملأ كرسيه لأن المسألة باتت تتطلب موهبة واستعداداً لا أسما ولا لقباً . وأغلب الظن أن صلاح الدين لو بقى في دمشق ولم يغامر في مصر لسكان من المرجح أن يلعب نفس الدور الذى لعبه نور الدين لأنه أصبح الشخصية الوحيدة القادرة على سد ذلك الفراغ .

وعلى ذلك فمن الممكن أن يقال إن الظروف كانت ملائمة لظهور ذوى الكفاية والمواهب وتشجيعهم ومساعدتهم ، أى أن المبدأ قد وجد ووجد معه الجو الصالح لتحقيقه ، وهذه هى الحالة خارج الحدود المصرية فماذا كانت داخلها ؟

أما الدولة الفاطمية فقد ظلت قائمة في مصر ، لا لأن فيها ما يساعدها على الحياة ، ولكن لأن أعداءها الذين طمعوا فيها يوماً ما لم يعودوا قادرين على تحقيق ما كانوا يطمعون فيه ، إذ بلغت من الضعف حداً ليس بعده حد لضمان نجاح أى مهاجم قوى . فالحالة الاقتصادية بلغت حداً عنيفاً فى الارتباك وشاطرت الأحداث الداخلية والتنافس الطاحن على منصب الوزارة بنصيب كبير فى ضعف الدولة . وإذا كان المقرئى (١) قد قرر أن المامل الاقتصادى كان له يد فى نجاح الفاطميين فى فتح مصر ، فما أحق أن يذكر ذلك العامل بين عوامل سقوطها ، إذ رغب المصريون فى حكرمة جديدة حازمة ، يستقر معها حالهم ويزول على يديها ما تعاناه من فوضى واضطراب . ثم أصبحت أمور الدولة بأيدي

---

(١) المقرئى — كشف النعمة ص ١٣ .

وزراء أكثرهم من أعداء مذهبها ، ولم تعد تحركهم إلا المطامع الشخصية  
وابتزاز المال والوصول إلى كرسى الوزارة مهما تكن الطريقة إلى ذلك  
الكرسى حتى ولو أدى ذلك إلى الاستماعة بدولة أجنبية ، كما فعل رضوان  
ابن الوحشى ، وكما فعل من بعده عباس .

وزاد الطين بلة أن أنصار المذهب الاسماعيلي أنفسهم على أنفسهم ،  
وراحوا يحارب كل فريق منهم الفريق الآخر بالسيف وباللسان ، وهذه  
العوامل جميعاً أخذت تنخر في جسم الدولة الفاطمية ، حتى أحالها إلى  
هيكل ليس فيه روح ينتظر من بهزه ليسقط على الأرض هشياً .

وخلاصة هذا كله أن حالة الشرق الأدنى سواء في مصر أو من  
خارج حدودها أصبحت ملائمة كل الملائمة لقيام أية دولة جديدة ، إذا  
قدر لمؤسسيها أن يحسوا برغبات المعاصرين وأن يفهموا روح العصر ،  
والطرق المثلى المؤدية إلى النجاح .

# الفصل الثاني

## الأسرة الأيوبية

الغرض من هذا الفصل - نسب الأسرة الأيوبية - مفارقتها  
موطنها الأصلي - اختلاف المؤرخين في ذلك - ولاية أيوب لقلعة  
تكريت - بداية اتصال أيوب بزنكي - رحيل الأسرة عن تكريت -  
سبب رحيلها - التجاؤها إلى زنكي - ولاية أيوب بعلبك - وفاة  
زنكي - الأحوال العامة لمملكته بعد وفاته - خدمات شيركوه  
لنور الدين - استرداد أنز أنابك دمشق لمدينة بعلبك - انضواء أيوب  
في خدمة أنز - استقرار أيوب بدمشق - الحملة الصليبية المعروفة  
بالثانية - مجهودات شيركوه في حروب نور الدين - رغبة نور الدين  
في فتح دمشق - دور أيوب في فتحها - دخول نور الدين دمشق .

نشأة صلاح الدين - مساهمته في الحياة الاجتماعية - ولايته  
شحنة دمشق - تأثر الأسرة الأيوبية بروح العصر - أطماع الأيوبيين -  
إعداد صلاح الدين - الأسرة الأيوبية في خدمة نور الدين .

\*\*\*

النصوص التاريخية الدالة على أصل الأيوبيين وحركاتهم الأولى قليلة،  
وفهم هذه النصوص يختلف باختلاف وجهات النظر، ولعل ذلك راجع

إلى أن الأسرة الأيوبية نشأت نشأة عادية ، فلم تجذب إليها أنظار المؤرخين ، ولم تحظ من عنايتهم في تاريخها الأول بمثل ما تحظى به الأسر الحاكمة ؛ ذوات الملك الموروث والنفوذ الواسع .

ومحور البحث في هذا الفصل هو متابعة الأدوار المختلفة التي مرت فيها الأسرة الأيوبية قبل مجيئها إلى مصر ، فربما يستطيع الباحث في ذلك الدور من تاريخها أن يصل إلى ثبوت من الحقيقة بصدد قيامها في مصر ، وهل جاء تفكير شخصياتها البارزة في الملك عفرا ومصادفة . أو كان نتيجة لتدبير سابق وخطة موضوعة ، أو كان الأمر وسطا بين الرأيين ؟ بمعنى أن الأيوبيين كانوا يريدون حقا أن يؤسسوا لأنفسهم ، ولكنهم لم يستقروا على مكان معين أو إقليم بالذات ، فلما رأى شيركوه مصر لأول مرة ، ودرس حالتها وعرف مميزاتها ، وجد أنها المكان الملائم لتحقيق أهداف الأسرة .

فهذا الفصل إذن لا يقصد منه أن يكون مجرد ترجمة لحياة أيوب أو شيركوه أو صلاح الدين ، وإنما هو بحث أريد به أن يكون وسيلة لفهم العوامل المختلفة التي حركت أولئك الأشخاص ، والأهداف التي سعوا إلى تحقيقها .

والأسرة الأيوبية تنتسب — على كل حال — وكما هو ظاهر من تسميتها إلى أيوب وهو ابن مروان بن شادي ، وإلى هنا ينتهي نسبها المعروف . فإذا حاول البعض أن يرتفع بذلك النسب إلى عدنان أو آدم عليه السلام ، أو إذا حاول آخرون أن يدخلوا مروان في زمرة الأمويين ، فإن أمثال تلك المحاولة لا ترضى إلا العقول التي تأب إلا أن تربط بين المجد الباذخ والأصول الملكية السامقة . وقد أورد المقرئ في ذلك



الصدد قولاً قاطعاً حين قال - بعد أن ذكر الآراء المختلفة المتضاربة في أسباب الأكراد، وشرح المحاولات التي قام بها بعض المؤرخين لإيجاد نسب معروف للأيوبيين أن تلك الأقوال إنما هي: «أقوال الفقهاء لهم، من أرادوا الخطوة لديهم، لمتأ صار الملك إليهم، (١)». وهذا القول لا يدع مجالاً للشك في صحة ما تواتر في كتب المؤرخين الثقات، من أن الأسرة الأيوبية إنما هي أسرة كردية الأصل، وإنها من الأكراد الروادية إحدى بطون الهذبانية، وإن موطنها الأصلي بلدة دوين (٢) الواقعة في آران في آخر حدود آذربيجان بالقرب من تغليس (٣).

وبما يؤيد انتهاء نسب الأسرة المعروف عند ذلك الحد ما ذكره ابن خلكان وابن أبي طي من أنهما وقفوا على بعض الكتب الخاصة ببعض أوقاف أيوب وشيركوه فلم يجدوا فيها من حيث النسب ما يزيد عن نجم الدين بن شادى أو شيركوه ابن شادى (٤). وقد قال ابن أبي طي في حديثه عن نجم الدين: «هو الأمير نجم الدين أيوب بن شادى». وحدثنى أبي رحمه الله قال: «كان تقي الدين عمر يزيد فيقول شادى بن مروان، وسمعت أنا من يقول شادى بن مروان بن يعقوب. وقد أدعى (اسماعيل) بن سيف الإسلام (طفتكين بن أيوب) لما ملك

(١) الخطط ج ٣ ص ٣٧٨.

(٢) «بلدة من نواحي إران في آخر حدود آذربيجان بقرب من تغليس»

ياقوت، معجم البلدان ج ٤ ص ١١٢.

(٣) المقرئى، الخطط ج ٣ ص ٣٧٨، ابن خلكان ج ٢ ص ٢٧٦، ابن الأثير

الدولة الأتابكية ص ٢١٣، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣

Ency. Isl. Art. Dovin، العيني عقد الجمان ج ٢١ ص ٥١٢.

(٤) الروضتين ج ١ ص ٢٦، ابن خلكان، الوفيات ج ٢ ص ٣٧٦.

الين ، لانهم من بنى مروان بن محمد الجعدي المعروف بالحمار يعنى آ خلفاء بنى أمية ، وقد نقيت عن ذلك ، فأجمع الجماعة من آل أيوب هذا كذب ، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شادى وك أخبرنى السلطان الملك الناصر (صلاح الدين) رحمه الله ، (١) . وقد أبو شامة ذلك ، فقال تعليقا على هذا النص . « ودليل صحة ذلك وقفى على كتاب وقف الرباط النجمى بدمشق ولم يزد فيه على نجم ا أبو سعيد أيوب بن شادى العادلى ، (٢) .

ولإجماع الجماعة من آل أيوب على أنهم لا يعرفون جدا فوق شا — كما يقول ابن أبي طى — دليل قاطع على صحة الرأى السابق الذى الخاص بنسبتهم وأصلهم الأول . وأما من خرج على ذلك الإجماع و أبو الفداء اسماعيل الذى قال إن الأيوبيين إنما هم من نسل الأمويين فادعاء واضح المرى ، وهو أنه أراد أن يحقق أطباعه ويوسع ما بحجة إعادة الخلافة من بنى هاشم إلى بنى أمية . وقد سار أبو الف خطوات فى سبيل تحقيق ذلك الغرض البعيد ، فتقلب فعلا بالإ الهادى بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين وقال فى ذلك شعر ومدحه كثير من الشعراء ، وزينوا له فعله — على حدة ، (٣) .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) يقول أبو شامة (الروضتين ج ١ ص ٢١٠) ادعى أبو الفداء (اسماعيل) إنه من بنى أمية ، وعزم على إعادة الخلافة من بنى هاشم إلى بنى أمية ، فى ذلك أشمار كثيرة ، وتلقب بالامام الهادى بنور الله المعز لدين أمير المؤمنين ، ومدحه كثير من الشعراء بذلك ، وزينوا له فعله .

هذا هو إجماع المؤرخين (١) على نسب الأسرة الأيوبية ، لا يخرج عن أنها كردية الأصل ، ومعنى كل ما قالوه عنها زيادة على ذلك ، أن ما ينطبق على غيرها من الأسر الأتابكية من حيث الرق لا ينطبق عليها (٢) ، وأن قبيلة الروادية التي ينحدر عنها الأيوبيون من إشراف القبائل الكردية (٣) . وقد مرّ في الفصل الأول ذكر تلك القبيلة ومدى نشاطها ونشاط غيرها من القبائل الكردية في جوف الدولة الإسلامية (٤) .

ونقطة البداية في مساهمة الأسرة الأيوبية في حوادث العالم الإسلامي بعد مفارقتهم موطنهم الأصلي بقريّة دوين موضع خلاف بين المؤرخين . فالبعض يقول إن شادى - جدد الأسرة - كان له صاحب في تلك البلدة اسمه بهروز نشأ وشبا معا ، إلى أن اضطر بهروز ذات يوم تحت ظرف من الظروف القاسية أن يغادر دوين ويلتحق بخدمة أحد السلاطين

== وما هو فيه من شمه :

وإني أنا لهادى الخليفة والذي	أدوس رقاب الثلب بالضمير الجرد
ولا بد من بندا د أطوى ربوعها	وأنصرها نشر السامر للبرد
وأنصب أعلامى على شرفاتها	وأحبي بها ما كان أسسه جسدى
ويخطب لى فيها على كل منبر	وأظور دين الله فى النور والتجد

راجع أيضا : العيني . عقد الجمان ج ٢١ ص ٢٥١ ، شفاء القلوب ص ٤ .

(١) اعترف ابن خلكان نفسه على إجماع المؤرخين على صحة هذا النسب . واعتراه بذلك شيء له قيمته القصوى ، إذ ربما يكون قد اطلع على مصادر

لم يعثر عليها المؤرخون الحديثون بعد . راجع الوقفيات ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣ ، شفاء القلوب ص ٣ .

(٣) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٢١٣ .

(٤) انظر الفصل الأول من الرسالة ص ٦ - ٨ .

السلاجقة ، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن محمد بن ملكشاه ، ولا بد أن يكون ذلك بعد عام ١١٠١ م (٤٩٤ هـ) لأن السلطان محمد بن ملكشاه قتل في ذلك العام ، وخلفه على المطالبة بالسلطنة ابنه مسعود (١) ، ووفق بهروز في حياته الجديدة حتى أصبح مرياً لأبناء مسعود ، فأحب أن يشرك صديقه القديم شادى فيما استقام له من النعم ، ولذلك أرسل إليه يستدعيه ، ولقي شادى من صديقه ما توهله صداقته له من إعزاز وإكرام . ثم زادت مكانة بهروز عند السلطان فجعله والياً من قبله على بغداد سنة ١١٠٨ (٥٠٢ هـ) (٢) ، ومنحه قلعة تسكرت أقطاعاً له . ثم جعل بهروز صديقه شادى حاكماً على تلك القلعة ، واستمر شادى في وظيفته حتى توفي ، فولى بهروز مكانه ابنه أيوب . هذا هو كلام ابن خلصكان (٣) ، ومنه استمد بيكر فيما كتب في دائرة المعارف الاسلامية حيث يقول : إن شادى رحل بابنيه أيوب وشيركوه إلى بغداد وبمساعدة صديق له - وهو يعنى بهروز - أصبح شادى حاكماً على تسكرت ، فلما توفي خلفه ابنه نجم الدين أيوب (٤) .

ويذكر ابن أبي طى برأى آخر خلاصته أن أيوباً خدم السلطان محمد ابن ملكشاه ١١٠٤ - ١١١٧ م (٤١٨ - ٥١١ هـ) ، فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وحكمة ، فولاه قلعة تسكرت . فلما آلت السلطنة إلى مسعود أقطع قلعة تسكرت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق فأثر بهروز الأمير نجم الدين في ولاية تسكرت ، وقرر

(١) ابن الفلانى . ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ ، ٥٠ ، Yilb .

(٢) Ency. Isl. Ort Bihruz

(٣) ابن خلصكان . الوفيات ج ١ ص ٨٥ .

(٤) راجع دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) مادة «أيوبيون» .

أمره عند السلطان مسعود (١) ، أى أن نجم الدين أيوب — وليس والده شادى — هو الذى فارق موطنه الأصيل إلى تكريت .

وهناك رأى ثالث يقول إن أيوباً وأخاه شيركوه غادرا موطنهما الأصيل في دوين إلى بغداد ، حيث خدما مجاهد الدين بهروز شحنة تلك المدينة — أى أنهما لم يخدما السلطان السلاجوق مباشرة — فعين بهروز أيوباً مستحفظاً لقلعة تكريت ، وبعث معه أخاه أسد الدين شيركوه (٢) .

ولعل الرأى الأول — الذى يقول بأن شادياً هو الذى رحل من دوين بابنيه أيوب وشيركوه — هو أقرب هذه الآراء إلى الصحة . يرجح ذلك أن الآراء اجتمعت على أن أيوباً عين على تكريت من قبل بهروز ولا بد أن يكون ذلك لمعرفة سابقة بين بهروز وبين الأسرة الأيووية . والراجح أن تكون تلك المعرفة قد وقعت بين بهروز وشادى . ويرجح هذا الرأى أيضاً ذلك الكتاب الذى أرسله بهروز إلى أيوب ، بعد أن قتل شيركوه أحد رجال بهروز بقلعة تكريت — مما سيحى ذكره بعد قليل — وفيه يقول بهروز للأخوين : « لأبيكما على حق ، وبينى وبينه مودة متأكدة ، ما يمكننى أن أكفكما بحالة سيئة تصدر منى في حقكما ، ولكننى أشتهى منكما أن تترككما خدمتى ، وتخرجا من بلدى ، وتطلبا الرزق حيث شئتما » (٣) .

---

(١) الروضين ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) المقرئى ، المخطوط ج ٣ ص ٣٧٨ ، السلوك ج ١ ص ٤٢ . وراجع أيضاً ابن الأثير . الدولة الأتابكية ص ٢١٣ وابن الفرات تاريخ الدولة والملوك ج ٧ ص ٢٦ .

(٣) ابن خلصكان . الوفيات ج ١ ص ٨٥ .

على أن هناك نقطة أخرى غامضة تتعلق بالزمن الذي غادرت الأسرة فيه دوين ، إذ لم يذكر المؤرخون عن ذلك شيئا ، بل إنهم لم يذكروا عمر أيوب أو شيركوه عند وفاتهما — كما هي عادة المؤرخين العرب عند ذكر الوفيات — ولو أنهم فعلوا ، لسهل استنتاج المطلوب . ومن هنا لم يعد أمام الباحث إلا تاريخ تولى بهروز الشحنة ببغداد ، لاقتراحه بتاريخ الأيوبيين الأول . فإذا عرف أن بهروز تولى الشحنة ببغداد لأول مرة سنة ١١٠٨ م (٥٥٠٢) (١) ، فإن ما يمكن استنتاجه من ذلك أن شاديا غادر دوين بأبيه أيوب وشيركوه قبيل ذلك التاريخ بقليل أى في بداية القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) .

وخلاصة هذا كله أن نجم الدين أيوبا أصبح حاكما على قلعة تسكريت بعد أبيه شادي (٢) قبيل سنة ١١٣٠ (٥٥٢٥) (٣) ، وهذه هي النتيجة التي تنتهي إليها الآراء الثلاثة . وهي أيضا الخطوة الأولى من خطوات الأسرة الأيوبية في حوادث الشرق الأدنى .

استمر أيوب ومعه أخوه شيركوه في حكم تسكريت فترة من الزمن لا تتعرض لها المراجع بشيء من الذكر أو الإيضاح ، إلى أن جر القدر وبحريات الحوادث أيوبا إلى أن يغامر بمسئله وه مستقبل أسرته ويترك حكم تسكريت . وبيان ما حدث هو أن زنكي أتايك الموصل هاجم بغداد سنة ١١٣٩ (٥٥٢٦) ، مظاهراً للسلطان مسعود الساجوقى ضد

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة بهروز ( الترجمة العربية ) .

(٢) Lane, Poole, Saladin P. 5

(٣) السلوك ج ١ ص ٤٠ حاشية • نعر وتعليق الدكتور زيادة .

الخليفة العباسي المسترشد بالله (١) ، ولكنه هزم على يد القائد قراجه الساقى ، وجرح زنكى فى المعركة ، واضطر إلى التمهقر من الميدان ، وكان لابد لسلامة ارتداده أن يسل له حاكم قلعة تكريت عبور نهر دجلة ، وقد تقدم حاكم تلك القلعة وهو نجم الدين أيوب ، بأداء تلك المروءة لزنكى (٢) ، بل لقد خدمه هو وأخوه أسد الدين شيركوه وضمداه جراحه (٣) ، وتقربا إليه طوال المدة التى قضاهما بينهما ، ومقدارها خمسة عشر يوما ، وعندما عزم زنكى على السير إلى الموصل زوداه بكل ما قد يحتاج إليه فى سفره من دواب لحمل متاعه حتى أنهما أعطياه جملة صالحة من البقر - كما يقول ابن أبى طى (٤) - وكان من حسن الطالع أن زنكى لم ينس للأخوين تلك اليد البيضاء ، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع الصلة بين زنكى وأيوب ، إذ استمرت بينهما المراسلات وتبادل الهدايا (٥) .

---

(١) بيد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ١١٣٠ (٥٢٥) خلفه على السلطنة ابنه داود ، فنازعه عليها عمه مسعود . وطلب مسعود من الخليفة المسترشد أن يحطبه له ببنداد ، فلما طارض الخليفة فى ذلك عزم مسعود على أخذ السلطنة بالقوة ، وهاجم ببنداد وظاهره فى ذلك عماد الدين زنكى . حيث هزم على الضفة الشرقية لنهر دجلة قبالة تكريت . راجع السلوك ج ١ ص ٣٥ ، الروضتين ج ١ ص ٢١٠ ابن الفرات . تاريخ الدول والمملوك ج ٧ ص ٢٦ .

(٢) أبو المحاسن . النجوم ج ٦ ص ٢٤ ، ابن خلكان . الوفيات ج ٢ ص ٢٧٧ الدولة الأتابكية لابن الأثير ص ٢١٤ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٢١٠ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ص ٢١١ ، ابن الأثير الدولة الأتابكية ص ٢١٤ .

وفي الوقت الذي توطدت فيه الصلة بين أيوب وزنكي ، ساءت العلاقات من ناحية أخرى بين أيوب و بهروز ، حتى انتهى الأمر بأن أخرج بهروز أيوبا من تكريت سنة ١١٣٨ (٥٥٣٢) ، ولا يقتصر السبب في ذلك على أنه قدم مساعدته لثائر على الخليفة وعلى السلطان السلجوقي القائم ببغداد لحسب ، فإن الفرق الزمني بين تلك الحادثة وبين رجيل أيوب عن تكريت يقدر بست سنوات ، وإنما المعقول أن تلك الحادثة قد غيرت نفسية بهروز على أيوب وأخيه (١) ، وأوجدت عنده الاستعداد الكافي للاستغناء عن خدماتهما ، وقد بلغ الأمر حده الحاسم عندما ترامت إلى مسامع بهروز الأقوال عن قوة الأخوين ، وتمكنهما من أهل تكريت ، وعن شجاعة شيركوه وجرأته ، وتعقل أيوب وحكمته مما أصبح بهروز يخشى منه ويتوجس خيفة على أقطاعه . وفي هذا الصدد يقول ابن أبي طي : « وحضر عنده ( أي عند بهروز ) من خوفه جرامة أسد الدين ( شيركوه ) ، وأنه ذو عهيرة كبيرة ، وأن أعياه نجم الدين ( أيوبا ) قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ، ويصعب استدراكه ، (٢) .

وانتظر بهروز حتى حانت الفرصة الملائمة للاستغناء عن خدماتهما وهذه الفرصة يختلف المؤرخون على تفاصيلها ، ولكنها تلخص على كل

---

(١) يقول ابن خلصان . وبلغ ذلك ( أي بلغ بهروز ما فعله أيوب مع زنكي ) فسير إليه وأنكر عليه وقال له : كيف ظفرت بسدوننا فأحسنات إليه وأطلقته . ولكن ابن خلصان لم يذكر أنه طرده بسبب تلك الحادثة .  
راجع الوفيات ج ٢ ص ٢٧٧ وقد أورد تلك الرسالة أيضاً ابن الفرات في تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٧ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢١١ .



حال في أن شيركوه قتل رجلا من ينتمون إلى بهروز لملاحاة جرت بينهما (١) .

وبالرغم من أن أيوباً تصرف التصرف الحكيم بقبضه على أخيه ، وانتظار أمر مخدومه فيه . فإن بهروز أرسل إلى أيوب كتاباً (٢) يأمره فيه بتسليم القلعة إلى نائبه الذي سيره صحبة الكتاب . وقابل أيوب الأمر بالسمع والطاعة ، فأنزل أهله ومناعه من القلعة واستعد للرحيل ، وما أن علم أهل تكريت بالخبر حتى استعظموا خروج أيوب حاكهم المحبوب من بين ظهرانيهم ، حتى لأنهم خرجوا جميعاً لوداعه يوم رحيله عنهم . فلم يبق في المدينة رجل لم يخرج لأداء ذلك الواجب — على حد قول ابن أبي طي (٣) .

وإذن فالقول بأن السبب في إخراج بهروز الأخوين من تكريت هو أن شيركوه قتل رجلا من أتباعه ، لا يخرج عن أن يكون سبباً ظاهرياً ، إذ ليس من المعقول أن يخرجهما لمثل هذا السبب بعد أن خدماه تلك المدة الطويلة لاسمياً وهما ابنا لصديق عزيز عليه ، كما يعترف هو نفسه (٤) ، بل المعقول أن بهروز لاحظ ازدياد نفوذ أيوب

---

(١) ابن الأثير الدولة الأتابكية ص ٢١٤ ، ابن خلصان . الوفيات ج ١ ص ٨٥

و ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٢) ابن خلصان الوفيات ج ١ ص ٨٥ .

(٣) يقول ابن أبي علي (الروضتين ج ١ ص ٢١١) « وأعظم أهل تكريت

خروج نجم الدين (أيوب) من بين أظهرهم ، ولم يبق أحد إلا لخرج

لتوديعه ، وأظهر البكاء والأسف على مفارقتة ، ولعل في هذا النص ما يدل

على أن نجم الدين أيوباً نجح نجاحاً باهراً كماكم وإدارى .

(٤) انظر ما سبق ص ٣٢ .

وشيركوه في تكريت ، والتفاف الناس حولها فحشى أن يستقلا بالقلعة  
دونه . ولعل هذه هي النقطة الأولى التي توضح أن الآخرين كانوا يسعيان  
منذ ذلك العهد الباكر من تاريخهما إلى التكوين لنفسيهما .

ويلاحظ هنا قبل الانتقال مع أيوب في حياته الجديدة بعد تكريت  
أنه لم يحاول أن يرتبط بشخص معين ، بل ارتبط في كل أعماله بما تمليه  
عليه الظروف والمصاحبة ، بدليل أنه سهل العبور لثائر على ولي نعمته ،  
وكان واجبه أن يقف مع زنكي عكس ذلك الموقف تماما — كما قال له  
بهروز — ولما كان نجم زنكي في تلك الفترة قد بدأ يعلو ويرتفع حتى  
صار نداءً للسلطان السلجوقي ، فالغالب أن أيوباً أراد أن يرتبط مستقبلاً  
بتلك الشخصية ، وربما أنه أراد أن يخرج من عزلته في تكريت ، ليغامر  
مغامرة فعلية في حوادث الشرق الأدنى بخدمة زنكي حيث الحياة  
والنشاط والمستقبل المأمول . ومما يؤكد ذلك أن أيوباً لم يقيم بأي عمل  
إيجابي يستدل منه على أنه يريد البقاء في تكريت حتى لينحى إلى الباحث  
أنه كان ينتظر تلك النتيجة وأنه كان يستعد لها .

ويلاحظ أيضاً أن أيوباً لم يكن رجلاً عادياً ، بل دل على أنه حاكم  
مستنير يعرف كيف يكسب قلوب أهل ولايته بحسن الإدارة وتوزيع  
العدل بين الناس . كما يصور ذلك ابن أبي طلي (١) .

أما شيركوه فهو الرجل العسكري بعقليته ومزاجه أيضاً (٢) ، يقوم  
على العمل ولا يبالى بعهد ذلك بما يتلوه من نتائج ، بدليل أنه هو الذي

(١) الروضتين ج ١ ص ٢١١ .

(٢) في هذا المعنى يقول أبو شامة (الروضين ج ١ ص ١٣٠) « وكان عنده

( يقصد شيركوه ) من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى معه بحافة » .

قتل أحد بمالك بهروز ، وهو صاحب القلعة ، وفي يده إقراره عليها هو وأخوه أو إخراجهما عنها . ولقد تصرف أيوب في تلك الحادثة بالذات بما يؤكده أنه كان رجلا إداريا عميق الغور إذ قبض على أخيه ، وانتظر حكم سيده فيه ، كما سبق القول .

وكيفما كان الأمر فإن أيوبا اتخذ وأهله طريقهم إلى زنكي - كما هو المنتظر - سنة ١١٣٨ (٥٣٢هـ) وفي نفس ليلة الرحيل ولد لنجم الدين (١) أيوب طفل سماه يوسف ، وهو الذي عرف فيما بعد باسم صلاح الدين . وقد رحب بهم عماد الدين زنكي وأكرمهم ، وأمر الموكب بلقائهم خارج مدينة الموصل ، وأقطع الأخوين أقطاعات وافرة في شهر زور وفي غيرها (٢) . وذلك كله رد لجميلهم القديم ، ولأن زنكي لم يكن ليرد عن ساحته أشخاصا من طرازهم (٣) ، واستخدم زنكي الأخوين في حروبه وفي شئون أتايكيتته (٤) ، وإن كانت المراجع لا تنبيء بشيء كثير من هذا الصدد ، ولا بد أن يكون أيوب قد أظهر في عمله الجديد ما حمل زنكي على الاعتقاد في مقدرته وحسن تدبيره ، بدليل أنه لم يكده بفتح بعلبك بمساعدته ومساعدة أخيه شيركوه (٥) سنة ١١٣٩ (٥٣٤هـ) حتى

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٧ ، المقرئى بالسلوك ج ١ ص ٤٢ ، الروضين

ج ١ ص ٢١١ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٦ بالروضين ج ١ ص ٢١١ .

(٣) Lane Poole - Saladin P. 65 .

(٤) نفس المصدر .

(٥) يقول بيكر (دائرة المعارف الاسلامية مادة أيوب) إن زنكي استطاع أن يفتح بعلبك بمساعدة أيوب وشيركوه ، ويضرب بذلك مثلا على مساعدتهما لها في جهاده وحروبه .

ولاه عليها ، ولو كان الأمر لا يعدو عند زنكي مجرد المكافأة لأيوب على ما أداه من جميل قديم لا كتنق بتعيينه في وظيفة عادية يستمد منها العافية والعيش الرغد ، أو لا كتنق بما منحه من أقطاع عند أول مجيئه إلى الموصل ، ولكنه أسند إليه ولاية هي أقصى ما وصل إليه في الجنوب أى في الجهة التي رغب في التوسع فيها ، وهذا فضلا عما كان بينه وبين معين الدين أنز أمير دمشق من نزاع دائم على تلك المدينة ، بما يدل على الثقة الكبيرة التي وضعها زنكي في نجم الدين واعتقد أنه أهل لها .

وهكذا اتسع المجال أمام الأخوين ونجحت مغامرتهما الأولى ، وعوضا عن تكريها بما هو خير منها . ولعله قد وضحت الآن بعض ملامح شخصيتي أيوب وشركوه فأيوب رجل عاقل متزن ، قدير على أن يفرض محبته والثقة فيه على من حوله ، سريع الفهم اللجو الذي يعيش فيه . أما شركوه فرجل لا تختلف عقليته عن عقلية الكثيرين من رجال السيف تغلب عليه صفة الشجاعة التي تبلغ في بعض الأحيان حد التهور . فيقبل على العمل بوحى الساعة . أما ما وراء ذلك ، وما يترتب عليه فأمر يبدو أن شركوه لم يكن يهتم به كثيرا . فالأخوان بناء على ذلك يختلفان جد الاختلاف ، ولكن يكمل أحدهما الآخر إلى حد كبير ، وهذا في الواقع عامل هام من عوامل نجاح الأسرة الأيوبية . وستتضح تلك الحقيقة فيما يلي من حوادث .

ومن حسن الطالع أيضا أن أسد الدين شركوه انفرد بخدمة الأمير (١) نورالدين محمود في حياة والده زنكي ، فقر به وقدمه ، ورأى منه شجاعة

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٣ . راجع أيضا ابن الفرات — تاريخ

الدول والملوك ج ٧ ص ٢٧ .

يمعز عنها غيره — على حد تعبير ابن الأثير (١) ، وأن أوامر الصداقة والأخوة توطدت بين شيركوه وبين جمال الدين أنى جعفر محمد بن علي وزير زنكي (٢) واستطاع ذلك الوزير أن يهدد للأخوين الطريق وأن يوطد مركزهما عند زنكي فأخذ يشاطرانه في حروبه وجهاده ضد الصليبيين وغيرهم حتى توفي زنكي سنة ١١٤٦ (٥٤١) قتيلا على أيدي بعض عماليكه (٣) وهو يحاصر قلعة جسر وتاركا أربعة أولاد هم سيف الدين غازي ونور الدين محمود وقطب الدين مودود ونصرة الدين أمير أميران .

والنف أتباع البيت الزنكي الأتابكي حول أولئك الأبناء ليحفظوا لهم حقوقهم في الملك وفقا للتقاليد الاقطاعية السائدة (٤) ولكن يبدو أن السلطان محمود — وهو السلطان السلجوقي المتغلب على بغداد وقتذاك رغب في أن يستحوذ على أملاك زنكي ، بوصفه المُقْتطِعِ الأعلى ، ولعل الظروف كانت ملائمة لذلك ، فإن ألب أرسلان بن السلطان محمود كان مع عماد الدين زنكي وقت أن اغتيل ، ولم تؤكد

---

(١) نفس المصدر « ابن الأثير » .

(٢) من مظاهر تلك الصداقة أن الاثنين تماهدا على الوفاء في الحياة وفي المات وأن من يموت منهما أولا يدفعه صاحبه في المدينة بالحجاز ، فماتوا في جماد الدين سنة ٥٥٩ هـ وبلغ شيركوه نبأ وفاته بث مالا يمت به إلى هناك تنفيذ لما بينهما من عهد وينفق منه على جماعة يجوعون عنه وجماعة يقرعون عليه . راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٧ — ١٣٨ ، ابن الفرات تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٧ .

(٣) الفصل الأول ص ١٥ .

(٤) كان التقليد الاقطاعي السائد في ذلك الوقت أن يلتف عليك الأمير المترقي واجناده حول ورثته راجع Lane-Poole, Saladin p. 18 .

أخبار مقتل زنكي تنتشر حتى اجتمعت العساكر على (١) الب أرسلان وبات الموقف خطيرا أيهدد بضياح حقوق أبناء الأمير المتوفى .

إلا أن زنكي لم يترك لأولاده ملكا واسعا وإقطاعات وافرة ففسب وإنما ترك لهم فوق ذلك رجال عملوا منذ اللحظة الأولى على الدفاع عن أبناء سيدهم المتوفى وهم وزيره جمال الدين محمد بن علي وحاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني ثم الأخوان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه . وقد اختص الأولان بنغازي وعملا على إقرار الأمر له بالموصل إذ أحاطه (٢) بالب أرسلان بن السلطان محمود فحسنا له الاشتغال باللهو والخمر والجوارى ، فأنصرف عن التعرض لغازي حتى دخل غازی الموصل واستقر له الأمر فيها ، أما شيركوه — يؤيده ويساعده أخوه أيوب كما يرجع — فقد أخذ بعمل لصالح نور الدين — وإن كانت المراجع لا تشير . بشيء واضح عن الدور الذي لعبه أيوب — إذ أسرع شيركوه (٣) إلى خيمة نور الدين ، فنصحته بالإسراع إلى حلب ، ثم أخذ على عاتقه تيسير الأمور له فيها حتى دخلها فعلا بعد مقتل أبيه بأيام في ١٦ سبتمبر سنة ١١٤٦ (٧ ربيع الثاني سنة ٥٤١ هـ) (٤) . وحفظ نور الدين لشيركوه ذلك الجميل ، كما حفظ أبوه زنكي من قبل له ولأخيه حسن صنيعهما في تكريته — وهنا يقول ابن أبي طي . «فكان نور الدين يرى له (أي لشيركوه) ذلك ، وأسد الدين (شيركوه) يمن عليه بأنه كان السبب في توليته» (٥) .

(١) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٥١ .

(٢) نفس المصدر ج ١١ ص ٥١ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٢٣٧ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٤٦—٤٧ ، ابن الأثير . الدولة الأتابكية ص ١٥٣ .

(٤) Stevènsou P. 156 note 7٠ .

(٥) الروضتين ج ١ ص ٤٧ :

وهكذا آل القسم الشرقي من دولة زنكي وعاصمته الموصل إلى ابنه سيف الدين غاري ، كما آل القسم الغربي منها إلى ابنه الثاني نور الدين محمود وعاصمته حلب . وعلى أساس ذلك التقسيم أصبحت مدينة بعلبك - وهي إقطاع أيوب - داخلة ضمن أملاك غازي ، ولعل هذا هو السبب الذي دعا نجم الدين إلى التريث انتظاراً لما ينجلي عنه الموقف .

وقد أصبح على نور الدين - حسب ذلك التقسيم الجديد - إذا أراد أن يتوسع وأن يحترم في نفس الوقت حدود أخيه ، أن يتجه إلى الغرب وإلى الجنوب ، أي صوب الأملاك الصليبية . وبدا موقفه الجديد مساعداً له على ذلك ، إذ أن كثيراً من المشا كل التي تعرض لها والده زنكي وعاقته إلى حد كبير من التفرغ للصليبيين كالنزاع مع السلطان أو مع الخليفة أو الأكراد الضارين في شمال العراق حول الموصل وديار بكر ، هذه المشا كل جميعها زالت الآن تماماً من طريق نور الدين ، لبعده عن مصدرها ، ولارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالقسم الشرقي من دولة زنكي . وهو الذي آل إلى سيف الدين غازي ، ومن هنا كان في استطاعة نور الدين أن يركز أعماله الحربية ضد الصليبيين (١) .

إلا أن أعداء البيت الزنكي الأتاليكي ، ظنوا أن وفاة زنكي فرصة طيبة لاسترجاع أملاكهم ، التي أنزعها منهم قبل وفاته ، فحاول جوسلين استرداد الرها التي ذهبت عنه ولايتها على يد زنكي ولكنه فشل ، وكان الدرس الذي لقيه أهلها على يد نور الدين كافياً لعدم التفكير في أية محاولة أخرى (٢) .

(١) Stevenson. P. 166

(٢) راجع ابن الأثير - الكامل ج ١١ ص ٥١ ، ابن خلدون السيرة ج ٥

وكذلك حاول رايمند أمير انطاكية أن ينال من أملاك المسلمين  
فارسل جيوشه لتغير على حماة وحلب ، وقتل الجيش الصليبي وسلب  
وتمادى في العدوان ، فلما وصل الخبر بذلك إلى مسامع شيركوه ، خرج  
فيمن كان بحلب من الجنود ، وجد في أثر الصليبيين حتى أدركهم ،  
واستخلص أسرى المسلمين من أيديهم ، ولم يكتف بذلك بل شن الغارة  
على أملاكهم ، وعاد إلى حلب مظفرا (١) .

ومن أولئك الانتهازيين أيضا معين الدين أنر أمير دمشق إذ قام  
لاسترجاع بعلبك وحاصرها ، وهي المدينة التي منحها زنكي لنجم الدين  
أيوب إقطاعا له منذ أن استولى عليها سنة ١١٣٩ ، وقد صارت تلك  
المدينة داخلة في مملكة سيف الدين غازي ، كما صار أيوب تابعا له بحكم  
تقسيم المملكة التريكية إلى قسمين ، وقد قام أيوب بدور غريب حتى سلم  
بعلبك إلى الأمير أنر سنة ١١٤٦ ( ٥٤١ هـ ) دون قتال ، وذلك بعد وفاة  
زنكي بمدة قصيرة ، بل إنه دخل في خدمة (٢) أنر بعد أن تعهد له بما  
طلبه من مال وإقطاع (٣) ، وقد قيل في تعليق ذلك أن أيوبا خشى أن  
يشب النزاع بين سيف الدين ونور الدين ، فلا يجد سيف الدين الوقت  
الكافي لمساعدة بعلبك ، وقيل أيضا إنه رأى أن الموصل — عاصمة  
أملاك سيف الدين ومقره — بعيدة عنه . وأن دمشق قريبة ، وربما

(١) Stevenson P. 156 ، الروضتين ج ١ ص ٤٨ .

(٢) يذكر أبو المحاسن « النجوم ج ٦ ص ٨٥ » أن نجم الدين انتقل هو  
وأخوه شيركوه إلى دمشق وأن شيركوه اتصل بنور الدين بعد ذلك وهذا  
يخالف ما تقول به جميع المراجع التاريخية .

(٣) نال نجم الدين نظير تسليم بعلبك إلى أنر مالا وإقطاعا وعشر قرى بالقرب  
من دمشق . ابن خلدون ، المبرج ٥ ص ٢٣٨ .



أخذت منه المدينة عنوة وقسراً (١) ، ولذلك سلبها إلى أنز . على أن ما يخيل إلى الباحث هنا هو أن أيوباً ربما يكون قد توقع أن سيف الدين غازى رجل لا يرجى منه - وقد دلت الحوادث التاريخية المستقبلية على ذلك - ولذا لم يعول أيوب كثيراً على الوقوف إلى جانبه ، والواقع أن الشخصيتين القويتين بين المسلمين فى ذلك الوقت كانا نور الدين صاحب حلب وأنز أمير دمشق ، ويحتمل أن أيوباً أراد أن يحتاط للمستقبل ، فانضم هو إلى ناحية أنز ، وترك أخاه حيث كان عند نور الدين ليضم مصالح أسرته فى الناحيتين معاً ، ولهذا السبب افترق أيوب عن أخيه ، وهذا كله مجرد احتمال ، لأن النصوص التاريخية تقف صامته عن تفسير تلك الحوادث على أن ما يرجح ذلك الاحتمال أنه كان فى استطاعة أيوب أن يسلك مسلكاً مختلفاً عما فعل ، فقد كان فى استطاعته مثلاً أن يقاوم حتى يصل إليه المدد من غازى أو من نور الدين ، وكان فى استطاعته أيضاً أن يترك بعلبك إن هو فقد كل أمل فى حمايتها ، ويتجه إلى حلب حيث يعيش جنباً إلى جنب مع أخيه شيركوه ، أما تسليمه بعلبك وأخذه نظير ذلك مالا وأقطاعاً بالقرب من دمشق وانضوائه فى خدمة أنز ، فهو سلوك غير مرضى وغير طبيعى ، والدليل على ذلك أن نور الدين نفسه لم يعجبه ذلك المسلك ، إذ كان ينتظر أن يضم أيوب إليه ، ولذا تغير فترة من الزمن على شيركوه - كما يذكر ابن أبى طى (٢) ، وهكذا افترق الأخوان - إلى حين - ليعملا فى خدمة سيدين متنافسين .

على أنه إذا رجع الباحث إلى الوراء قليلاً فإنه يجد أيوباً قد تصرف

(١) انظر Lane - Poole, Saladin p. 67

(٢) الروضتين ج ١ ص ٤٨ .

هذا التصرف في موقف مشابه ، عندما خدم زنكي عند تكريت وهو عائد من معركة حرية ضد الخليفة والسلطان ، ومغزى الموقعين لايختلف وهو أن أيوباً كان يعمل لمصلحته الشخصية دون أن يرتبط بأمر معين أو إقليم بالذات ، وسيسلك نفس ذلك المسلك في موقف قريب ، بما يؤدي تلك الحقيقة ويؤكدها ، وما يبين بوضوح أنه كان يعمل للتكوين لنفسه ولأسرته تشبهاً بمن اكتظ بهم عصره من الطامعين والمغامرين .

وإذن فقد انتقل أيوب إلى دمشق ، ومعنى ذلك أنه شهد وهو في تلك المدينة حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، وهي الحملة التي جاء على رأسها ملكان متوجان هما لويس الرابع ملك فرنسا ، وكنراد الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولا حاجة للباحث هنا إلى تتبع تلك الحملة منذ أن قامت من أوروبا إلى أن حطت رحالها بأرض الشام ، ويكتفى القول بأنها كانت رد فعل مباشر لسقوط الرها الذي حدث سنة ١١٤٤ على يد زنكي ، وأنها جاءت لاسترداد تلك المدينة من أيدي المسلمين ، فتحولت عن غرضها الأصلي وهاجمت دمشق ، وهي الإمارة الإسلامية التي كانت حليفة للمملكة بيت المقدس اللاتينية منذ سنة ١١٣٣ (١) ، وكان ذلك التحول نتيجة حتمية للنزاع والتنافس بين إمارتي أنطاكية وبيت المقدس الصليبيين (٢) . إذ رغب رايمند أمير أنطاكية أن تهاجم الحملة نور الدين ، وأن تحقق الغرض الأساسي من مجيئها ، وهو استرداد الرها . إلا أن الحملة جنحت عن ذلك الغرض وهاجمت دمشق تلبية لرغبة مملكة بيت المقدس وتحقيقاً لمصالحها الخاصة

---

(١) زيادة ، مصر والحروب الصليبية ص ٦ ( محاضرة ألقىت بنادى الاتحاد الانجليزي المصري ) .

(٢) Stevenson p. p. 159 - 160

وكان كزاد قد رسا في عكا في أبريل سنة ١١٤٨ (٥٤٣ هـ) ، فأحاط به منذ قدمه جماعة يتادون بمهاجمة دمشق ، أما لويس السابع فقد بقي في أنطاكية - حيث نزل منذ مجيئه - حتى شهر يونيه ، حيث غادرها لينضم إلى بقية رجال الحملة ، وفي ٢٤ يوليه بدأ الصليبيون حصار دمشق ، وقد بذل أزم ما يستطيع من حيلة للخروج من ذلك المأزق ، فعمل على إيقاع الفرقة بين الصليبيين ، فأرسل إلى كزاد يهدده بتسليم دمشق إلى سيف الدين غازي ، وأرسل إلى لويس في نفس الوقت يهدده بتسليم دمشق إلى الألمان ، كما أرسل يطلب المدد من نور الدين وسيف الدين وتحرك المدد المطلوب فعلا (١) ؛ إلا أن حصار المدينة لم يطل أكثر من خمسة أيام تراجع الصليبيون بعدها مخفقين .

والمفروض أن أيوباً قام بنصيب موفور في جهاد تلك الحملة ، والدفاع عن دمشق ، وإن كانت المراجع لا تذكر شيئاً كثيراً عنه وأقرب مثل على ذلك أن ابن القلانسي صاحب كتاب « ذيل تاريخ دمشق » وهو المرجع الذي استقى منه الأوريون أنفسهم أخبار ذلك الحصار ، لم يذكر شيئاً عن أيوب (٢) إلا أن المعروف أن أيوباً أصبح القائد الأعلى لجيوش دمشق بعد ذلك الحصار بقليل . فلا بد أن تكون ترقيته لتلك الوظيفة نتيجة لمجهود بارز أبداه من قبل ؛ فإذا عرف أن دمشق لم تتعرض في تلك الفترة لمحنة أقسى من حصار الصليبيين لها ، كأن معنى هذا أن ذلك المجهود البارز الذي كوفي عليه إنما بذله في للدفاع عنها ضد الصليبيين .

(١) ابن خلدون ، العبرج ٥ ص ١٦٠ ، ٢٤١ — ٢٤٢ ، وابن القلاسي

ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

(٢) راجع ابن القلاسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ — ٣٠٠ .

وهكذا انتهى المطاف بنجم الدين أيوب حاكم تكريت السابق إلى أن يصبح القائد الأعلى لجيوش أكبر مدن الشام أهمية في ذلك الوقت وهي دمشق .

أما أسد الدين شيركوه فقد نال في ميدانه نجاحاً لا يقل عن نجاح أخيه أيوب ، إذ بقي حيث هو في بلاط نور الدين ، ولا غرابة في ذلك إذ ترجع الصلة بينهما إلى أيام زنكي نفسه ، وقد أخذ شيركوه يساهم منذ اللحظة الأولى في جميع أعمال نور الدين الحربية بل هو صاحب الفضل في إنقاذ دولة نور الدين الجديدة مما حاق بها من أخطار من ناحية الصليبيين منذ أواخر سنة ١١٤٦ إذ رد رايمند أمير أنطاكية عن حماة وحلب - كما سبق القول (١) - ثم إن نور الدين كان قد وجه هنيئته منذ سنة ١١٤٨ (٥١٣ هـ) إلى أنطاكية يريد أن يهدم تلك الإمارة اللاتينية الثانية ، كما هدم والده زنكي من قبل إمارة الرها ، ولكن رايمند فاجأ الجيش الثوري عند قاميا وهزمه (٢) .

ثم التقى نور الدين ورايمند في عناب (٣) في يونيه من تلك السنة ، وانتصر نور الدين وأسر كثيراً من الصليبيين ، وقتل رايمند في ميدان

(١) انظر ما سبق .

(٢) Stevenson P. 165 .

(٣) المقصود من ذكر تلك المواقع الحربية بين نور الدين والصليبيين إنما هو إبراز مجهودات شيركوه وخدماته لنور الدين ، تلك الخدمات التي أوصلته إلى أن يكون القائد الأعلى لجيوشه . فهي إذن ليست استعراضاً لتلك الحروب . وليست هدفاً لذاته من أهداف البحث . ولو كان الأمر كذلك لوجب ذكر موقعة ينرا وهي التي انتصر فيها نور الدين على رايمند قبل ذلك بوقت قصير . وكان الفضل الأول فيها لشيركوه أيضاً ، الروضين

القتال ، والفضل في انتصاره يرجع إلى أسد الدين شيركوه حتى يقال إنه هو الذى قتل رايمند بيديه (١) .

وفي ٢٩ أغسطس سنة ١١٤٩ ( ٢٣ ربيع الثانى سنة ٥٤٤ هـ ) (٢) توفي أنز أتايك دمشق ورجع الحكم إلى حفيد طفستكين وهو آتق ، وهنا يبدو أن نجم الدين أيوب أخذ يحل محل أنز في تصريف أمور دمشق (٣) ، كما يبدو أيضا أن نور الدين أخذ يعمل من ثم على تحقيق حلم والده القديم وهو الاستيلاء على دمشق ، فهاجمها من أجل ذلك الغرض مرتين الأولى في ربيع سنة ١١٥٠ ولم يفز منها بطائل ، اللهم إلا ذكر اسمه بالخطبة بعد اسم الخليفة والسلطان ، والثانية بعد ذلك بعام واحد أى في سنة ١١٥١ فوصل إلى ضواحيها في أبريل من تلك السنة وبقي هناك حتى يوايه ، ولكنه لم يصل إلى شيء تلك المرة أيضا (٤).

إلا أن الحوادث لم تلبث بعهد ذلك أن حفزت نور الدين إلى التعجيل بالاستيلاء على دمشق لأهميتها في قتال الصليبيين من جهة ولأن نور الدين كان يسعى إلى توحيد القوى الإسلامية من جهة أخرى . ذلك لأن الصليبيين تطلعوا إلى بسط سلطانهم في الجنوب فاستولوا على عسقلان سنة ١١٥٣ وهى آخر المعاقل المصرية الفاطمية في الشام فرأى نور الدين أن مهاجمتهم لا تتم على وجه مرضى ، إلا بعد أن يتأكد من

---

(١) الروضين ج ١ ص ٥٨ .

(٢) Stevenson p. 166 .

(٣) Lane. Poole; Saladin p. 71 .

(٤) Stevenson p. 167 .

سلامة مؤخرته ، وهذا بدوره لا يتأني إلا إذا هاجم دمشق (١) .

وفي أبريل سنة ١١٥٤ ( المحرم سنة ٥٤٩ هـ ) أعد نور الدين العدة للاستيلاء على دمشق فجهز لذلك حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ، أي أن الأخوين أيوباً وشيركوه أصبح عليهما أن يقفأ وجهاً لوجه ، ولكن يظهر أن أيوباً كان قد قبل أن يسهل لنور الدين الاستيلاء عليهما (٢) ، ويظهر أيضاً أن أهل المدينة تابعوه واستمعوا لنصحه بتسهيل الأمر لنور الدين ، ففتحو أبواب المدينة للجيش النوري المهاجم (٣) . وانهى ذلك بالحسنى بعد مفاوضات واقتراحات (٤) تردد فيها برهان الدين على البلخي رئيس الحنفية (٥) في ذلك الوقت ، وبذلك سلمت دمشق إلى شيركوه دون قتال واندمجت في أملاك نور الدين (٦)

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٨٠ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١٦٠ -

- ١٦١

(٢) يقول أبو الحسن ( النجوم ج ٦ ص ٥ ) أن أسد الدين شيركوه كتب إلى أخيه وقال له « هذا يجب عليك فان مجير الدين قد أعطى الفرنج باناس وربما سلم إليهم دمشق بسد ذلك » ، فأجابته نجم الدين ، وطلباً من نور الدين اقتطاعات وإملاكاً فأعطاهما وحلف لها روى بيبيته .  
راجع أيضاً ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) Lane - Poole, Saladin p. 72

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٦ ، ٣٢٧ والروضون ج ١ ص ٨١

(٥) ذكره ابن القلانسي فقال إنه كان من النقة على مذهب الامام أبي حنيفة وأنه مشهور بالورع والدين والعفاف والتصون وحفظ قاموس الدين والعلم والتواضع .  
انظر ص ٣٢٢ .

(٦) راجع ابن خلدون المبرج ص ٢٧٨ .

وهنا يلاحظ أن أيوباً عين حاكماً على دمشق ، أما شيركوه فقد تولى  
وظيفة نائب السلاطنة في الدولة النورية ، وهكذا اجتمع الأخوان مرة  
أخرى في بلاط نور الدين وفي خدمته بعد أن بلغا ذروة القوة  
والنفوذ .

وموقف أيوب في فتح دمشق وتسهيله تلك المهمة أمام نور الدين ،  
يلقى ضوءاً جديداً على مبادئه وسياسته ، ويؤكده مرة أخرى أنه إنما  
كان يعمل لمصلحته الخاصة ، دون نظر إلى أي اعتبار آخر ، وحسب  
الباحث دليلاً على توفيق أيوب في تلك المغامرة أنه عين حاكماً على  
دمشق من قبل نور الدين بالرغم من أن ماضيه بالنسبة له لم يكن يشجع  
على شيء من الثقة فيه ، على أن توفيقه لم يقف عند ذلك الحد ، بل تجمع  
المراجع على أن أيوباً بلغ ما لم يبلغه أحد في بلاط نور الدين ؛ حتى  
إنه لم يكن ليجلس في حضرته أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا  
نجم الدين أيوب ، إذ كان يجلس دون أن ينتظر إذنه (١) ، فإذا أضيف  
إلى ذلك أن نور الدين كان رحلاً مهاجراً إلى أبعد حد ، وأن أيوباً سبق  
له أن تخلى عن نصرته البيت الزنكي الأتابكي بتسليمه بعلبك إلى أعداء  
ذلك البيت ، وضح تماماً إلى أي حد كان أيوب رجلاً قوى الشخصية  
قدراً على أن يفرض محبته واحترامه والثقة فيه على المحيطين به جميعاً ،  
وليس عجباً أن يرث عنه ابنه صلاح الدين يوسف كل هذه الصفات .

وقد حظى شيركوه عند نور الدين بالمركز التالي لأخيه أيوب ،

---

(١) أبو المحاسن النجوم ج ٦ ص ٦٠ ، ابن الأثير الدولة الأتابكية ص ٢١٥ ،  
الروضتين ج ١ ص ١٠ ، إبراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب ص ١٠ .

حتى قيل إن نور الدين لم يكن يميل عملاً إلا بمشورته (١) ، ويؤيد هذا ما ذكره ابن الأثير من أن شيركوه كان أكبر أمير مع نور الدين ، وأن شأن شيركوه عظيم ومكانته علت حتى صار كأنه شريك له في الملك (٢) ، والحقيقة أن شيركوه قدم لنور الدين خدمات جليلة كوفي\* عليه بأن أصبح مقدم عسكره ، وهذا فضلاً عن الأقطاعات الوافرة التي منحه نور الدين إياها (٣) .

أما صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب - وهو الشخصية الثالثة البارزة في الأسرة الأيوبية ، فقد ولد بتكريت سنة ١١٣٨ (٥٣٢ هـ) ، وفي نفس الليلة التي غادرت فيها الأسرة الأيوبية تلك القلعة ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك (٤) ، وقضى صلاح الدين عام طفولته الأول في الموصل ، وبعد ذلك بعام أصبح والده أيوب حاكماً على بعلبك التي أقطعها إياه عماد الدين زنكي عندما فتحها سنة ١١٣٩ ، وفي بعلبك قضى صلاح الدين سنوات طفولته الباكرة ، وليس من شك في أنه تلقى هنا مختلف العلوم الإسلامية التي يتلقاها الطفل المسلم ، ولا بد أيضاً أن يكون قد لقي عناية لا يتمتع بها أبناء الأوساط من الناس

---

(١) صاحب هذا القول هو صلاح الدين الأيوبي نفسه . انظر الروضتين ج ١

ص ١٥ .

(٢) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٣٠٥ و٢١٥ .

(٣) عبارة ابن الأثير في هذا الصدد هي : ورأى (نور الدين) منه (شيركوه)

في حروبه ومشاهدته أثاراً يمجز عنها غيره لشجاعته وجراته ، فزاده

إقطاعاً وقربه حتى صار له خمس والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره .

الدولة الأتابكية ص ٢١٤ .

(٤) انظر الفصل الثاني .



بوصفه ابن حاكم المدينة ، فدرس - بالضرورة - علوم القرآن والحديث والفقهاء والنحو والأنساب والتاريخ ، وغير ذلك من ضروب المعرفة الإسلامية ، فلما قتل زنكى سنة ١١٤٦ م وارتحل أيوب عن بعلبك ، وانضوى في خدمة أتر كان صلاح الدين قد بلغ الثامنة من عمره ، وإذن فقد قضى الفترة التالية من حياته في دمشق حيث شهد حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، ومحاولاتها المختلفة للاستيلاء على تلك المدينة . وليس من المعقول أن يكون صلاح الدين قد قام بشيء من أعمال الدفاع عنها ، لأن سنه لم تكن تزيد وقتذاك عن الحادية عشرة إذ المعروف أن حصار دمشق حدث سنة ١١٤٩ ، وبعد ذلك بخمس سنوات أى في سنة ١١٥٤ التقى الأخوان أيوب وشيركوه مرة أخرى في بلاط سيد واحد هو نور الدين ، بعد أن سهل له أيوب الاستيلاء على دمشق ، وتقلب صلاح الدين فترة السنوات العشر التالية في بلاط نور الدين .

والمتواتر أن تلك الفترة من تاريخ صلاح الدين ليست من الواضوح في شيء ، ويستشهد المؤرخون دائماً على ذلك بكتاب الاعتبار الذى كتبه أسامة بن منقذ . والواقع أن أسامة كان على صلة وثيقة في تلك الفترة بالذات بكل جبهة في الشرق الأدنى ، وقد أودع كتابه الاعتبار ، بوجه خاص كثيراً من ذكرياته الحربية والاجتماعية والرياضية ، ومع ذلك فإن القارئ لذلك الكتاب لا يظفر بشيء عن صلاح الدين ، إلا أن ذلك ليس معناه أن صلاح الدين نشأ شاباً خاملاً ، وليس معناه أيضاً أن نشأته كانت مجهولة إلى تلك الدرجة التى يصورها بعض المؤرخين ، ذلك لأن تنقلات صلاح الدين مع والده من تكريت إلى بعلبك إلى دمشق معروفة جيداً وبصفة قاطعة ، ومدة إقامته في كل مدينة من تلك المدن لا يجهلها باحث في تاريخه كما أن المناهج التعليمية

التي تلقاها معروفة كذلك بالقياس إلى التقاليد الإسلامية المتوارثة في التعليم ، تلك التقاليد التي ظلت سائدة في الشرق الأدنى إلى عهد ليس ببعيد .

أما مشاركة صلاح الدين في الحياة الاجتماعية فإن الباحث لا بد واجدا ما يلقي بعض الضوء على نصيب صلاح الدين في تلك الناحية ، فقد ذكر ابن أبي طي أن نور الدين شمل صلاح الدين بعنايته ، وأنه ألحقه بنحواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر (١) ، ذلك لأن صلاح الدين كان يفوق الناس جميعا في اللعب بضرب الكرة ، وكان نور الدين يجب ذلك النوع من الرياضة (٢) ؛ وقد كان صلاح الدين يلعب الكرة ذات مرة مع نور الدين فعثرت فرسه - أي فرس صلاح الدين - في الميدان ، فكان ذلك موضوعا لقصيدة نظمها العماد الأصفهانى ، وأثبتها أبو شامة في كتابه الروضتين (٣) ، وقد ذكر العماد أيضا ولع نور الدين بتلك اللعبة ، وإتقان صلاح الدين لها فقال :

(١) الروضتين ج ١ ص ١٠٠ ، راجع أيضا ابن شداد ، سيرة صلاح الدين

ص ٥٥ .

(٢) الروضتين - نفس الجزء والصفحة .

(٣) في تلك القصيدة يقول العماد :

لا تتكرن لما سبق عثرت به      قدم وقد حمل الخضم الزاخرا  
ومنها :

ضمنت قواه إذ تذكر أنه      في السرج منك يقل ليثا خادرا  
وفي آخرها يقول :

واسلم لنور الدين سلطان الورى      في الحادثات ما ضداً ومؤازرا  
فاذا صلاح الدين دام لأهله      لم يحذروا للدهر صرفاً جأرا  
انظر الروضتين ج ١ ص ١٤٩ .

« وكان ( نور الدين ) مولما بضرب الكرة ، وربما دخل الظلام فلعب بالشموع في الليلة المسفرة ، ويركب صلاح الدين مبكراً كل بكرة ، وهو عارف بأدابها في الخدمة وشروطها المعتبرة ، (١) ، والمرجح أن صلاح الدين كان من غواة تلك اللعبة ، وعن يهتمون بتسيير أدواتها ولو أزمها ، فقد احتاج العباد مرة إلى كنبوش لبغلته ، فولى وجهه شطر صلاح الدين وحصل على ما أراد ، وقال العباد في لك قصيدة ذكرها أبو شامة أيضا (٢) .

ولعل في تلك الإشارات ما يكتفي للدلالة على أن صلاح الدين لم يكن بعيداً عن الحياة الاجتماعية بالقدر الذي يتواتر في بعض الكتب . وكل ما يمكن قوله في ذلك الصدد ، أن صلاح الدين كان بالرغم من ولوعه بالرياضة ، يميل إلى العزلة والاعتكاف عن الناس . ومع ذلك فإن الباحث في تاريخ صلاح الدين في تلك الفترة يستطيع أن يصل إلى أنه كان يصطفي جماعة من أصدقائه وخلصائه ، اعتاد أن يؤثرهم بالاجتماع بهم والتحدث إليهم . ومن أولئك الأصدقاء الخالص شاعر يبدو أنه كان على اتصال

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٥١ .

(٢) مطلع تلك القصيدة هو :

أصبحت بقلبي تشكو من العرى وأسراجها بلا كنبوش

ومنها :

وتقى واسكني بجود صلاح الدين غرس الملوك ملك الجيوش  
فهو يجسوك للميون بكنبوش جديد مستحن منقوش  
كم عدو من بأسه في عشار وولى بجوده متموش  
والموالى على الأسرة والأعداء تحت الهوان فوق الثموش

راجع أيضا الروضتين ص ١٥١ .

وثيق به وهو حسان بن نمير الكندي المعروف بعرقلة (١) . والشعر الذي قاله ذلك الشاعر مدحا في صلاح الدين مرجع هام للتعريف به ، مادامت المراجع التي تعالج تاريخ شبابه قليلة . وأن الباحث ليجد نفسه مضطرا إلى الاستشهاد بشعر عرقلة للتدليل على بعض اتجاهات الأسرة الأيوبية وأغراضها ، مما لم يكتب واضحا في المراجع الأصلية ، على اعتبار ما قد يصدر من صلاح الدين من تصريح أو تلميح حول تلك الاتجاهات وهذه الأغراض لأصدقاء شبابه ، ومنهم عرقلة الذي يعبر عن ذلك في شعره .

على أن صلاح الدين لم يشارك في الحياة الاجتماعية والرياضية فحسب بل بدأ يساهم في الناحية الإدارية أيضا وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره ، فقد ذكر أبو شامة في حوادث سنة ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) أن نور الدين ولي صلاح الدين شحنة دمشق (٢) ، أي أن صلاح الدين تولى هذه الوظيفة الهامة في تلك السن المبكرة بعد فتح دمشق بعام واحد . ومن المحتمل أن يكون نور الدين رأى من صلاح الدين في مدة ذلك العام ما يؤهله للقيام بأعباء ذلك المنصب الهام . ويدل على تلك الثقة في صلاح الدين أن هذه الوظيفة كان يشغلها قبل ذلك تورانشاه عم صلاح الدين ، فلو لم يجد نور الدين في صلاح الدين ما يؤهله لها ، لما عزل عمه وولاه بدله . وقد مدح الشاعر عرقلة صلاح الدين في تلك المناسبة

(١) انظر الصلاح السكتي . فوات الوفيات ص ١٤٤ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٠٠ . ( يذكر الخنيلي أن صلاح الدين تولى شحنة

دمشق سنة ٥٦١ هـ ) راجع شفاء القلوب ص ١٦ .

بمقطوعات شعرية (١) ، تكفي وحدها للدلالة على أن صلاح الدين كان شاباً بارزاً ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لما انقطع لمدحه شاعر وهو في تلك الحقبة المبكرة من عمره .

وما يستلفت النظر هنا أيضا أن صلاح الدين أمسى شابا واسع الأمال (٢) فقد وهـد وهو لا يزال بدمشق — كأمر من أمراء نور الدين — الشاعر عرقلة إنه إن ملك مصر أعطاه ألف دينار ، فلما تم له ذلك — كما سيحيى في الفصول المقبلة — أخذ عرقلة يطالب صلاح الدين بتنفيذ وعده وقال في ذلك شعراً يصور تلك القصة . ولا ينبغي أن يعتبر الباحث ذلك الشعر شيئاً خيالياً لأنه إنما يصور قصة وقعت حوادثها ،

---

(١) قال عرقلة :

قات لحسادك زيدوا في الحسد      قد سكن الدار وقد حاز البلد  
لا تعجبوا أن حل دار عمه      أما نحل الشمس في برج الأسد  
وقال أيضا :

اصوم الشام توبوا من ذنوب      تكفرها العسوية والصفاذ  
لئن كان الفساد لكم صلاحا      فولاى الصلاح لكم فساد

ومن تلك المقطوعات :

رويدكم يا الصومس الشام إنى لكم ناصح في مقالى  
وإياكم وسعى النبي يوسف رب الحمى والجمال  
فذاك مقطوع أيدي النساء وهذا مقطوع أيدي الرجال

راجع الروضتين ج ١ ص ١٠٠ ، وشفاء القلوب ص ١٦ .

(٢) انظر ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٢٢٥ .

وورد ذكرها في غالبية المراجع الهامة في موضوع البحث (١) . وقد ورد أيضا أن صلاح الدين بر بوعده فأرسل إليه - وقتئذ - الألف دينار . وفي ذلك يقول صلاح الكنتي « فسير اصلاح الدين له (لعرقة) ألفا وأخذ من أخوته مثلها ، (٢) .

الواضح من هذا كله أن صلاح الدين أخذ يشارك في مجريات الأمور وبدأ يظهر في الأوساط الإسلامية كتاب بارز واسع الآمال . ولاشك أنه أفاد كثيرا من ملازمته لأبيه أيوب وعمه شيركوه ، فأخذ عن الأول الهدوء والتعقل ورصانة التفكير ، وأخذ عن الثاني الشجاعة والبسالة وفنون الحرب والقتال . وهذا فضلا عن ملازمته لنور الدين نفسه ، والإفادة من أساليبه في الحرب والسياسة . وبذلك أضيف إلى شخصيات الأسرة الأيوبية البارزة شخصية أخرى هي شخصية صلاح الدين وهو الذي قدر له أن يقوم بالدور التنفيذي في تحقيق آمال تلك الأسرة .

(١) قال عرقة :

قل لصلاح مني عند إقتارى	يا ألف مولاي أين الألف دينار
اخفى من الأسران حاولت أرضكم	وما تقي جنبة الفردوس بالنار
بجد بها حاضديات موقرة	من يمش ماخلف العالغي أبو الطارى
حمرا كاسيا فكم غرا كخيلكم	عتقا تقالا كأعدائي وأطاري

راجع لصلاح الكنتي ، فوات الوفيات ص ١٤٤ ، الروضتين ص ١٧٧ ، وشفاء القلوب (مخطوط) ص ١٨ . وقد ذكر أبو شامة يتيين آخرين هما :

إليك صلاح الدين مولاي اشتكى	زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبحر الألف التي كنت واعدى	بها في يدي قبل المات تصير

ص ١٧٧ .

(٢) صلاح الكنتي فوات الوفيات ص ١٤٤ .

والخلاصة أن أيوبا وشيركوه تأثراً إلى حد كبير جداً بروح العصر الذى عاشا فيه ، ففي غمار الحوادث التى سادت الشرق الأدنى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، كان المغامرون من المعاصرين كثيرين ، وراحوا يعملون جاهدين لأنفسهم ولأسرهم . ونجح من ساعدته مواهبه ووسائله واستعداده للنجاح ، وأخفق من عجزت وسائله وساء تديره . فإذا كان الأمر كذلك وإذا كان أيوب قد طمع حقاً فى أن يؤسس لنفسه ولأسرته ، فلماذا لم تبذل منه بادره للدلالة على ما هو بصدده ، كما بدت من غيره كعبد الدين بن الداية مثلاً أحد رجال نور الدين ، وكنصرة الدين (١) أخى نور الدين نفسه ؟ ولماذا لم تتضح نوايا الأيوبيين - إن كانت لهم نوايا فى الملك حقا - إلا بعد استقرار صلاح الدين فى مصر ؟ والجواب على ذلك واضح ، وهو أن نجم الدين لم يكن بالرجل القصير النظر ، فقد عاصر زنكى وابنه نور الدين ، وهما بطلا الجهاد ضد الصليبيين ، فلو أنه حاول أن يحقق أطاعه ، أو أن يكشف عنها قبل الأوان ، وفى الوقت غير الملائم ، لكان معنى ذلك اصطدامه معهما أو مع أحدهما ، وهما رجلان قويان لا يشخصهما فحسب ، ولكن بسياستهما التى سارا عليها . وقد بينت الحوادث أن كل من وقف لزنكى أو ابنته نور الدين من المسلمين ، كان نصيبه الأخفاق ، والسياسى الماهر هو الذى يسير مع التيار ويجرى مجراه حتى يستطيع

---

(١) مما يدل على أن الطمع فى الملك فى ذلك الوقت كان قائماً بصورة واضحة حتى بين الأخوة أن نصرة الدين اميراميران - أخا نور الدين اتمهز فرصة مرض أخيه نور الدين بحلب سنة ٥٤٤ هـ وحاصر قلعة تلك المدينة ، يريد أن يحتل مركز أخيه وهو لا يزال على قيد الحياة لولا أن تدخل شيركوه فى الأمر فأوقف نصرة الدين عند حده راجع ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٩٥ ، ابن خلدون المبرج ٥ ص ٢٤٣ .

تحويله لصالحه ، وقد سار أيوب على تلك السياسة أيام زسكى ونور الدين ، وبكفى أنه صاحب فكرة الانتظار حتى تندرج الأيام وهي الفكرة التي تصح بها ابنه صلاح الدين في مناسبة مشهورة (١) .

على أن نوايا الأيوبيين لا تتحقى على الباحثين في تاريخهم الأول ، وقد يدل على ذلك كثرة انتقال أيوب من مدينة إلى مدينة ومن خدمة أمير إلى أمير وفقاً لمصالحه الشخصية ، وعلى قدر ما يتوقع لنفسه في ذلك الانتقال من ربح لنفسه ولأسرته - وما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن نور الدين مرض بجلب سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٨ م) ، واشتد عليه المرض حتى أرجف الناس بموته ، فسلك شيركوه مسلكاً يدل تمام الدلالة على أنه أراد أن يتخذ من تلك الظروف فرصة لتحقيق أطماع الأسرة ، إذ سارع - وكان في أقطاعه بجمص - بالمسير إلى دمشق يريد أن يستولى عليها ، ولكن أيوبا - وكان لا يزال حاكماً لتلك المدينة منذ ولاء نور الدين عليها عقب فتحها - أنكرك على أخيه محاولته وقال له : « أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات فإننا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها ، (٢) . وقد عمل شيركوه فعلاً بنصيحة أيوب فعاد إلى حلب وخدم نور الدين حتى شفى ، ووضع حداً لأطماع أخيه نصره الدين الذي أراد أن يرث أملاك نور الدين وهو لا يزال على قيد الحياة .

---

(١) انظر مايلي .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٩٥ ، ابن خلدون ، البرج ٥ ص



ومن تلك الحادثة العابرة يتضح الفرق الكبير بين شخصيتي أيوب وشيركوه . كما يتضح منها أيضا أن أيوبا وأخاه كانت لهما أطماع في الملك ، ولا خلاف بينهما في ذلك ما عدا أن شيركوه أراد أن يستجمل الأمور ، فردده حذر أيوب وتفكيره إلى الصواب ، وكان أيوب محقما لأن نور الدين شفي بعد ذلك ، فلو أن شفاه جاء بعد إعلان نيات شيركوه لتحطمت الأسرة وأخفقت سياستها .

وعلى ذلك المبدأ - مبدأ الحرص والتأني والتفكير الطويل - سار أيوب ، وعلى أساسه ظل يعمل في خدمة نور الدين ، فكانت النتيجة أن مر الوقت ومر معه عمر أيوب وشيركوه ، فكان ذلك من حسن حظ صلاح الدين بأن يكون طليعة تلك الأسرة ، ومن المحتمل أن يكون أبوه أيوب قد أدرك أن يجد الأسرة الأيوبية كلها ينحصر فيه ، لأنه شاب لا يزال في مقتبل العمر ، ولما كان يبدو عليه - كما انفق المؤرخون - وكما هو واضح فيما أحرزه من نجاح فيما بعد - من سمات النبوغ والذكاء وقوة الشخصية ، وربما كانت بعض العوامل السالبة المحيطة بأيوب وشيركوه في تلك السنوات مما ساعدهما على التمكين لتلك الفكرة ، فقد بدأ نور الدين الشخصية الوحيدة التي يمكن أن يعمل لها حساب ، فأخوه سيف الدين غازي (١) توفي سنة ١١٤٩ (٥٤٤ هـ) ، وأخوه الثاني نصرة الدين بدأ منه عند مرضه من سوء النية ما جعله يقصيه عنه (٢)

(١) لم يترك سيف الدين غازي سوى طفل صغير أراد عمه نور الدين أن يريه ، ولكنه توفي فانقرض عقب غازي .

ابن خلدون ، المغرب ٥ ص ٢٣٩ .

(٢) لما شفي نور الدين سير نصرة الدين إلى سراي وجل قطب الدين مودود ولي عهده . الروضتين ص ١١٠ .

أما أخوه الآخر قطب الدين مودود فقد اكتفى بولايته في سنجار وعاش بعيداً عن حوادث الشام ومشاكلها ، ولم يكن بجانب نور الدين في تلك السنوات سوى ابن له طفل وابنة صغيرة ، ولهذا العوامل المختلفة أخذ أيوب - فيما يبدو - يعد ابنه يوسف ويمهد له الطريق ، ورائده في ذلك مصلحة الأسرة نفسها ، لأنه لم ينظر لصالح الدين تلك النظرة إلا وهو مقتنع تماماً بأنه أصلح شباب الأسرة للقيام بذلك الدور وما يدل على ذلك أن أيوباً كان له أبناء آخرون أكبر من صلاح الدين وأصغر سناً ، فلم يقع اختياره على أحد منهم سوى صلاح الدين ، فالمبدأ إذن كان مبدأ البقاء للأصلح ، وهذا هو المبدأ الذي ساد فعلاً بعد وفاة صلاح الدين بصورة واضحة ، إذ لم يبق ملك مصر في عقبه ، وإنما انتقل إلى غيرهم من شباب الأسرة الأقوياء (١) ، ولم يكن صلاح الدين محل تقدير أسرته فقط ، بل كان محل تقدير نور الدين أيضاً ، وهذا ظاهر من توليه شحنة دمشق وهو في الثامنة عشرة من عمره - وسيجيء في الفصل المقبل ما يوضح مدى إعداد الأسرة الأيوبية لصالح الدين .

وهكذا استطاعت الأسرة الأيوبية أن تصل إلى المركز الأسمى في بلاط نور الدين فمنها القائد الأعلى لجيوشه ، ونائب سلطته وهو أسد الدين شيركوه ، ومنها حاكم دمشق وهو نجم الدين أيوب ، ومنها صلاح الدين يوسف شحنتها ، وهذا عدا الكثيرين من شبابها

---

(١) لم يكن باقياً من عقب شيركوه في ذلك الوقت سوى ابن واحد هو ناصر الدولة محمد الملقب بالملك الناصر وهو الذي أعطاه صلاح الدين حرم عند مملكته الشام ، راجع ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٧ .

الذين أبلوا البلاء الحسن في حروبه وجهاده ، ومهما يكن فليس هناك من شك بأن شيركوه كان الساعد الأيمن لنور الدين ، ومن تلك الأمثلة ذلك الدور الذي لعبه في الاستيلاء على بانياس سنة ١١٥٧ من الصليبيين ، والسبب في تلك الحركة الجديدة ضد الصليبيين أن نور الدين عقد معاهدة في بلدوين الثالث سنة ١١٥٦ ، فنقضها الملك الصليبي في السنة التالية ، حين اعتدى على ماشية نور الدين كانت ترعى بالقرب من تلك المدينة . وكان نور الدين في ذلك الوقت مقبياً في بعلبك ، فوافاه شيركوه عليها بعد انتصار عظيم على الصليبيين في الشمال (١) . وهناك اتفاق الاثنان على خطة الهجوم وقام شيركوه بنصيب باهر في ذلك ، فاستولى أولاً على ما حول بانياس من البلاد ، وقت ذلك في عضد الصليبيين وسرعان ما سقطت بانياس سنة ١١٥٧ ( ٥٥٩ هـ ) (٢) ، ولو أن القلعة ظلت على المقاومة مدة من الزمن .

والواقع أن الباحث لا يستطيع أن يتوسع في ذكر أعمال شيركوه الحربية دون أن يخرج عن موضوع البحث إلى موضوع آخر هو حروب نور الدين والصليبيين ، كما لا يستطيع إلا أن يعترف بأن شيركوه قد أضحي قوة كبيرة في صفوف الصليبيين وفي جيش نور الدين .

---

(١) ابن القلانسي — ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٩ .

(٢) انظر الفصل الأول .

على أن الحوادث لم تلبث بعد ذلك أن غيرت وجهة الأيوبيين ، فأوحدت لهم مجالاً أكثر صلاحية وأوفر ملائمة لتحقيق أغراضهم ، إذ بلغ الاضطراب في مصر في ذلك الوقت قمته ، حتى لقد اضطر أحد وزرائها المبعدين أن يحاول ما حاوله غيره من الوزراء المصريين (١) . وهو أن يلتجئ إلى تور الدين ليعيده إلى وظيفته ، وكان ذلك إيذاناً بفصل جديد في تاريخ الأسرة الأيوبية ، وفي تاريخ مصر .

---

(١) راجع 353 - 346 P. P. Yibb .

# الفصل الثالث

استيلاء الأيوبيين على مصر باسم نور الدين

مقتل طلائع بن رزيك - وزارة ابنه العادل - عزل شاور والى  
قوص - وزارة شاور - النزاع بين شاور وضرغام - فرار شاور  
إلى الشام واستنجاهه بنور الدين .  
وزارة ضرغام - اختلافه مع عمورى الأول ملك بيت المقدس -  
حملة عمورى على مصر .

حملة نور الدين الأول - أسبابها - معركة بلبس - حصار  
القاهرة - هزيمة ضرغام - مقتله - وزارة شاور الثانية - النزاع بين  
شيركوه وشاور - احتلال شيركوه لبليس - استنجاه شاور  
بالصليبيين - حصار الصليبيين لشيركوه في بلبس - رفع الحصار -  
عودة الفريقين إلى الشام .

الحملة النورية الثانية - وصول شيركوه والصليبيين إلى مصر -  
تأييد الاسكندرية لشيركوه - معركة البابين - انتصار شيركوه -  
صلاح الدين في الاسكندرية - رحيل شيركوه إلى الصعيد - حصار  
الاسكندرية - عودة شيركوه إليها - الاتفاق على الجلاء - رجوع  
الفريقين إلى الشام .

وفد الصليبيين إلى الدولة البيزنطية - عودة عمورى الأول إلى مصر  
فتح بلبس - شاور والصليبيين - حريق القسطنطينية - الاستنجاه  
بنور الدين - موقف نور الدين من شاور - الحملة النورية الثالثة -  
عودة الصليبيين - مقتل شاور - وزارة شيركوه .

تبعييب - الأسباب التي ساعدت شيركوه على فتح مصر .

## استيلاء الايوبيين على مصر

باسم نور الدين

هذا الحدث التاريخي الفاصل في تاريخ مصر في العصور الوسطى موضوع يمكن أن ينظر إليه من زوايا مختلفة . فقد يدرس على أنه تكملة للنزاع بين نور الدين والصلبيين ، وقد يدرس على أنه دور جديد من أدوار الحروب الصليبية ، وقد يدرس أيضا على أنه الخطوة العملية التنفيذية في قيام الدولة الأيوبية في مصر . ومن هذه الوجهة الثالثة ستكون دراسته هنا . أى أن الغرض من هذا الفصل إنما هو بيان الجهود التي بذلتها الأسرة الأيوبية في الاستيلاء على مصر ، ومدى استغلال رجالها لتلك الفرصة لصالحها الخاص وهو تأسيس دولة أيوية مستقلة عن دولة نور الدين .

أما أحوال مصر العامة في أواخر أيام الدولة الفاطمية ، فقد صورت في الفصل الأول التصوير الموجز الذي يقتضيه المقام (١) ، وأما الحوادث التي تلت ذلك وأدت إلى تدخل كل من نور الدين والصلبيين في شئون مصر ، فقد بدأت بوفاة طلائع بين رزبك وزير العاضد الفاطمي (١١٦٠ - ١١٧١ م ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) ومن هنا وجب التعرض لوفاة ذلك الوزير بشيء من التفصيل .

يقول ابن الفرات في حوادث سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) أنه لما بويع للعاضد بالخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وركب الوزير طلائع بن رزيك بين

---

(١) انظر الفصل الأول .

يديه سمع العاضد وزيره ابن رزيك وهو يقول متمتا أثناء الموكب الخليبي  
للأمير (علي) بن الداية . ديا علي ا كأتى بهؤلاء الكلاب دعاة  
الاسماعيلية وشيختهم يقولون مامات الأول حتى نصبها في الثاني، وماعلبوا  
أننى كنت قاعداً أستعرض لهم خليفة كما أستعرض الغنم، (١) .

والراجع أن هذه الرواية صحيحة ، لأن ابن رزيك تردد حقيقة في  
اختيار الخليفة ، فقد ذكر ابن الأثير أنه لما مات الفاتن ، استدعى الصالح  
أحد رجال القصر ، وسأله عن من يصلح للخلافة ، فذكر له بعض الأسماء ،  
ومال ابن رزيك إلى واحد منهم كبير السن ، إلا أن أصحابه لاموه  
وجعلوه يعدل عنه إلى من هو أصغر منه سناً ، ليكون أسلس قيادا .  
فاختار ابن رزيك العاضد (٢) وهو عبد الله بن يوسف بن الحافظ أى  
أن أباه لم يكن خليفة . وهذا يدل على أن الخلفاء في مصر قد أصبحوا  
اسماً لا معنى له بعد أن صار أصلحهم عند الوزراء أضعفهم وأقلهم قدرة  
على القيام بأعباء الأمور .

على تلك الصورة بدأ العاضد — آخر الخلفاء الفاطميين — حكمه .  
ولكن سرعان ما نشطت دسائس القصر تدير دقتها عمه الخليفة ، وغايتها  
القضاء على الوزير طلائع بن رزيك ، ثم كان أن قتل ابن رزيك في أحد  
دهاليز القصر ذات ليلة من رمضان سنة ٥٦٦ هـ (١١٦١ م) (٣) وقد قال

(١) تاريخ الدول والملوك (مخطوط) ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٢٣ ، راجع أيضا ابن خلدون المبر

ج ٤ ص ٧٦ .

(٣) صورة ابن خلدون (المبرج ج ٤ ص ٧٦) مقتل ابن رزيك فقال «اجتمع

قوم من القواد والسودان منهم ابن الداعي والأمير ابن قدام

الدولة وكان صاحب الباب — وتواطؤوا على قتله — ووقفوا في دهايز =

ابن أبي طى بصدد ذلك الحادث أن عمه الخليفة العاضد كرهت ابن رزبك، وتآمرت عليه لاستيلائه على أمور الدولة، وحفظه للأموال، وقتله من أجل ذلك كثيراً من الأمراء ونسكهم، وتمكنه من بثون الدولة تمكنا حسنا (١). ويضيف ابن الفرات إلى ذلك أن الصالح كان يبيع الولايات للأمرء ويجعل لها أسعاراً محدودة وزمناً معيناً هو ستة أشهر. فتضرب الناس من ترداد الولاية عليهم (٢) أي أن أسباب اغتيال ابن رزبك يرجع معظمها إلى استنثاره بالسلطة وما تدره من المال بغير حساب.

ولا تقتصر أسباب قتل ابن رزبك على ذلك، وإنما يضاف إليها أنه أخرج كثيراً من الأعيان عن القاهرة وفرقهم في البلاد ليأمن وتوهم عليه، ثم أنه كان مكروهاً من نساء القصر لأنه زوج العاضد من ابنته (٣). وهذا فضلاً عن أنه كان أمياً المذهب (٤). أي على غير مذهب الخليفة. وهذه الأسباب مجتمعة هي التي أدت إلى اغتيال ذلك الوزير الذي فتح القدر بموته باب النزاع بين ثلة من الوزراء المتنافسين الذين أدى تنافسهم إلى تدخل كل من نور الدين والصلبيين في شئون الدولة الفاطمية.

---

القصر، وأخرج ابن قوام الدولة الناس أمامه وهو خارج من القصر واستوقفه عنبر الريفي يحادثه. وتقدم ابنة رزبك فوثب عليه جماعة منهم جرحوه وخرت ابن الداعي الصالح فأثبته، وحمل إلى داره فبقي يمجد بنفسه يومه ذلك... ومات من النداء. راجع أيضاً ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣.

(١) الروضتين ج ١ ص ١٢٤.

(٢) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٣٠ ب.

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣.

(٤) نفس المرجع السابق.



ولكى يبعد القصر عن نفسه كل شبهة في مقتل ابن رزيك (١) ، وافق على تعيين ابنه خلفاً له (٢) ، ولقب الوزير الجديد بلقب الملك العادل ، وكان أبوه قد نهضه وهو على فراش الموت أن يحذر جانب شاور أمير قوص ، وألا يعزله من منصبه (٣) ، لأنه من القوة بحيث لا يؤمن جانبه (٤) إلا أن العادل سار على منوال وزراء ذلك العهد جميعاً بل على منوال أبيه أيضاً ، من حيث الاستبداد بشئون الخلافة ، فاستولى على تدبير أموره عمه فارس المسلمون بدر بن رزيك وصهره سيف الدين حسين (٥) ، مما يدل على أنه لم يكن الشخصية القوية التي تستطيع أن تقف وحدها في ذلك الموقف الحرج ، وكان من الطبيعي ألا يرضى رجال القصر عن ذلك ، فنشطت - من ثم - دسائسهم بحكمة التدبير ، إذ أشاروا على العادل أن يعزل شاور أمير قوص ، وهو ذلك الرجل الذي عسر أمره على أبيه ، ولكى يسهل المتآمرون على العادل أن يخطو تلك الخطوة الجريئة أشاعوا أن شاور إنما هو الذي

---

(١) طلب الصالح من الماضد وهو على فراش الموت أن يسلمه عمته فسلمها له وقتلها الصالح كما قتل بعض المتآمرين الآخرين . انظر ابن الأثير الكامل (ج ١١ ص ٢٣) ، ابن خلدون المبرج ج ٤ ص ٧٦ .

(٢) يقول ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣ . ان الصالح أوصى بالوزارة لابنه رزيك .

(٣) كان ابتداء أمر شاور ووزارته انه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد ، وهو أكبر الأعمام بعد الوزارة ، فلما ولي الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد ، واستمال الرعية والمقدهين من السرب وغيرهم ففسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله . فاستدام استعماله لثلاثين مخرج عن طاعته . ابن الأثير ج ١١ ص ١٢٩ .

(٤) ابن خلدون ج ٥ ص ٧٧ .

(٥) عمارة اليمن ، التنكت المصرية ج ١ ص ٥٤ .

حرض على قتل والده ، واندفع العادل فاصدر أمره بعزل شاور ،  
وتحرك شاور في الصعيد يبغي الوصول إلى الوزارة عن طريق الانتقام  
من العادل أولاً ، وقد جمع شاور سن العربان وأبناء الصعيد جموعاً  
غفيرة استطاع بها أن يدخل القاهرة ويهزم العادل ويضطره إلى الهرب  
حتى يعثر عليه فيودعه السجن ، وهكذا وصل شاور إلى الوزارة في يناير  
سنة ١١٦٣ ( المحرم سنة ٥٥٨ هـ ) ، وأخرجت إليه خلعها ، وأصبح له  
— هو الآخر — الأمر والنهي في البلاد ، شأن كل وزير قادر في  
تلك الأيام .

ولكن يظهر أن وزراء ذلك العهد جميعاً كانوا لا يتعظون  
بخيرهم ، فإن شاور سار في حكمه سيرة كلها ظلم وجور ، فعامل العاضد  
معاملة سيئة ، وأساء السيرة في الناس ، فاستولى على أموال بني رزيك  
جميعاً وأودعها عند بعض العربان الذين آزره في حركته التي أوصلمته  
إلى منصب الوزارة كما أنقص أرزاق الجنند . ويقال أن ابنه الكامل  
بلغ من عدم اكتراثه بالخليفة أن عمل لنفسه مظلة لتحمل على رأسه  
تقليداً للطقوس الخليفة (١) .

ثم حدث أن حاول ملهم وأخوه ضرغام مقدم الجنود البرقية من  
العربان (٢) — وهم جنود آل رزيك — أن يتصلا بالعادل رزيك في  
سجنه ، تمهيداً لإثارة ثورة يتمكنان بها من إرجاعه للوزارة ، وسمع طي  
ابن شاور بخبر تلك المفاوضات ، فنصح أباه بأن يعاجل الحوادث بقتل

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٥٥ .

(٢) يلاحظ هنا أن عربان البرقية نسبة إلى بركة بأقصى النمام النربي من

أطراف مصر ، وأن شاور اعتمد على عربان الصعيد الجنوبي .

رزيك ، فلما لم يذهن شاور لرأى ابنه ذهب طى بنفسه إلى السجن وقتل رزيك (١) ، فأثار بذلك ناثر البرقية وعلى رأسهم ضرغام .

وأشعل ضرغام على (٢) شاور نار الثورة ، فكانت النتيجة أن هزم شاور ، وفر من القاهرة واتجه إلى الشام في شهر أغسطس سنة ١١٦٣ ( رمضان سنة ٥٥٨ هـ ) لاجئاً ، ومستعيناً بنور الدين ضد أعداء شخصه وسياسته من المصريين فوصل إلى دمشق في ٢٣ أكتوبر ( ٢٣ ذى القعدة ) (٣) ؛ أما ضرغام فقد وصلت إليه في نفس ذلك التاريخ خلع الوزاة ومعها لقب المنصور .

وقد نقل ابن الفرات رواية أخرى عن فرار شاور نقلها عن كتاب « أخبار الدولة المصرية وما جرى بين الملوك والخلفاء من الفتن والحروب من أيام الأمر إلى أيام شيركوه » ، وهو مرجع لم يذكر ابن الفرات نفسه اسم مؤلفه ، وخلاصتها أن شاور استولى على أموال العادل بن رزيك ووزعها على أبنائه بعد أن أخذ نصيبه منها ، وأودعه عند أحد العربان ، ثم إته سار السيرة السيئة التي مر ذكرها ، ولما كان شاور يخشى جانب ضرغام فقد استحافه ألا يخونه أو يضربه ، وفي نفس الوقت أراد أن يقبض عليه ، فأرسل إلى كبار الأمراء يدهوم للحضور ومن بينهم ضرغام ، إلا أن ضرغاماً لم يحضر بمفرده ، وإنما حضر معه جنوده من البرقية يخاف شاور منهم على نفسه ، وخشى أن يقبضوا عليه ، ففر إلى الشام (٤) .

(١) راجع حسن إبراهيم حسن ، الفاطميون في مصر ص ٣٠٠ .

(٢) انظر عمارة الدين ، التكت ص ٦٨ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٧٢ ، ١٥١ .

(٤) انظر الفصل الأول .

وهكذا سهل شاوور بفراره السبيل أمام نور الدين للتدخل في شئون مصر ، فإذا عرف أن الصليبيين كانوا قد تدخلوا من قبل في شئونها (١) ، وأن مصر كانت قد بدأت تدفع لهم مالا سنوياً ثمناً لسكوتهم عنها ، وضح تماماً أن التسابق بين شاوور وضرغام على كرسى الوزارة قد انتهى إلى تسابق بين نور الدين والصليبيين على الاستيلاء على مصر .

واستطاع شاوور أن يتصل بنور الدين ، وأن يعرض عليه قضيته ، وطلب منه أن يساعده في استرداد منصبه في مصر على أن ينزل له في نظير ذلك عن ثلث خراجها جزية سنوية عدا قيامه بنفقات الحملة . وعلم ضرغام بتلك الصلة ، فأراد أن يتدارك الأمر قبل وقوعه ، فأرسل من قبله رسولا خاصاً إلى نور الدين هو علم الملك ابن النحاس ، بكتاب منه يظهر له فيه الطاعة والولاء ، ويعرض بخذلان شاوور (٢) ، واسكن يظهر أن نور الدين كان قد وطد العزم على الإفادة من تلك الفرصة ، بدليل أنه أرسل جيشه مع شاوور ، وصرف النظر عن ابن النحاس رسول ضرغام .

أما عن نور الدين فليس هناك شك في أنه كان يعلم تمام العلم أهمية مصر بالنسبة له في جهاده ضد الصليبيين (٣) ، فلو أنه استطاع أن يثبت أقدامه فيها ، لتأتى له بذلك أن يضيق الخناق عليهم ، وأن يهاجمهم من

---

(١) راجع Stevenson . P. 186 .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٥٧ ، ١٥٠ بالروضين ج ١

ص ١٦٦ .

(٣) راجع Stevenson P. 187 .

ثلاث جهات : الشمال والشرق والجنوب ، وعلاوة على ذلك فإنه سيفيد من موارد تلك البلاد الطائلة ، وفي نفس الوقت متاح له فرصة القضاء على الدولة الفاطمية التي دام حكمها في مصر حوالي قرنين من الزمان ، والتي بلغ من كرهه لها ، أنه أخذ يصرف الناس عن عقائدها وهو لا يزال في حلب (١) . بل إن الرغبة في القضاء على تلك الدولة ، إنما ترجع إلى أيام السلطان السلجوقي ملكشاه نفسه ، الذي فكر في ذلك تفكيراً جدياً ، لولا أن حاجته المنية سنة ١٠٩٢ عن القيام بشيء مما أراد (٢) .

وإذا فاستجابة نور الدين لنداء شارر سنة ١١٦٣ م لم يكن أساسها نصرة اللاجيء المستنجد ، أو إعادة الوزير المخلوع ، وإنما أساسها حقيقة الأمر رغبة نور الدين في كشف أحوال مصر تمهيداً لضمها إلى أملاكه ، وإسقاط الدولة الفاطمية فيها (٣) ، وقد ذكر أولئك المؤرخون ذلك العرض الثاني في صورة لا تقبل الشك ، فقال أبو شامة أن نور الدين سير جيشه مع شاور ، قضاء لحق الوافد المستصرخ وحياً للبلاد وتطلعاً على أحوالها (٤) ، وقال ابن خلكان في هذا المعنى أيضاً أن نور الدين كان له غرضان ، أولهما : قضاء حق شاور لكونه قصده

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) انظر الفصل الأول ص ٥ حاشية رقم ٣ .

(٣) يقول السيوطي (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧) أن الخليفة العباسي المكتفي كتب عهداً لنور الدين على البلاد الشامية والمصرية وذلك منذ مقتل الظافر وولاية الفأثر ولو صح ذلك لكان معناه أن نور الدين في تقدمه نحو الجنوب إنما كان يتخذ سياسة موضوعة للاستيلاء على ما عهد به الخليفة إليه .

(٤) الروضتين ج ١ ص ١٣٠ .

ودخل عليه مستصرخاً . والثاني : أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند ، وأحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك ، (١) .

والواقع أن في كتيبي « حيا للبلاد » الواردتين في نص أبي شامة ما بلغت نظر الباحث إلى حقيقة هامة ، وهي أن نور الدين خشي أن يزداد نفوذ الصليبيين في مصر بعد أن استدفعوها جزية سنوية ، وأن ينتج عن ذلك ما يهدد كيانه في الشام ، ولذلك أراد أن يسبقهم في الاستيلاء عليها . ويفسر تلك الحقيقة أن شاور لم يكن الوزير الفاطمي الأول الذي لجأ إلى البيت الزنكي الأتابكي يعني الاستعانة به على أعدائه في مصر ، فقد سبقه إلى ذلك رضوان بن الوحشي سنة ١١٣٨ (٥٢٣ هـ) وعباس بن أبي الفتوح (٢) سنة ١١٥٤ (٥٤٩ هـ) كما أن طلائع بن رزبك حاول — في بداية وزارته — أن يعقد حلفاً مع نور الدين نفسه ولكن نور الدين تردد في ذلك لأن موقفه وقتئذ لم يكن يشجع على أن يخطو تلك الخطوة . وهذا بدوره ينقض القول بأن نور الدين أرسل جيشه مع شاور « قضاء لحق الوافد المستصرخ » ، إذ لو كان الأمر كذلك لما تردد في مساعدة الوزراء الفاطميين الذين لجأوا (٣) إليه قبل شاور .

أما ما حدا بتور الدين إلى إرسال جيشه تلك المرة فهو تطور وجهة النظر الصليبية نحو مصر ، لأن ضرغاماً — الوزير الفاطمي الجديد — اختلف مع عموري ملك بيت المقدس في أمر الجزية السنوية التي كان

---

(١) ابن خلكان ، الوفيات ج ٣ ص ٣٧٨ .

(٢) الفصل الأول .

على مصر أن تدفعها للصليبيين (١) ، فسار عموري فعلا إلى مصر في شهر  
سبتمبر سنة ١١٦٣ ( ٥٥٩ هـ ) لينال تلك الجزية بالقوة ، أمى بعد فرار  
شاور إلى الشام بشهر واحد . وقد هزم عموري ضراغاما بالقرب من  
بليس ، فأراد ضراغام أن يتجنب الهزيمة الهائلة ، ولذلك فتح سدود  
النيل واضطر عموري إلى العودة إلى الشام . ولا بد أن تكون أخبار  
تلك الحملة قد وصلت إلى مسامع نور الدين (٢) ، ففكر - من ثم -  
تفكيراً جديداً في إرسال حملته إلى مصر ، لا ليرد شاور إلى منصبه ،  
ولكن ، حبا للبلاد ، من الصليبيين كما يقول أبو شامة .

ولكن إذا كان كشف أحوال مصر - تمهيداً للاستيلاء عليها -  
قد أصبح أمراً هاماً بالنسبة إلى نور الدين إلى ذلك الحد ، فأى قائد من  
قواده يجب أن يرسله على رأس حملته إليها ؟ لم يكن أمامه في الواقع  
أكثر صلاحية من شيركوه ، لأنه القائد الذي خبر أساليب الصليبيين  
في الحرب والسياسة ، ولأنه - كما يقول ابن الأثير - « مقدم عسكريه  
وأكبر أمراء دولته وأشجعهم » (٣) ، ولأنه أصبح على الحملة أن تنتقل  
إلى إقليم جديد واضح الحدود والمعالم بعيد عن مقر نور الدين في حلب  
أو في دمشق ، وهى في تلك الحالة تحتاج إلى قائد مجرب شديد البأس ،  
وهنا يقول أبو شامة أن سبب اختيار شيركوه يرجع إلى أن نور الدين  
« لم يرسله في أمر إلا نصح ، ولم ير لجه في مضيق إلا انفتح » (٤) ،

(١) زيادة ، مصر والحروب الصليبية ص ٦ .

(٢) - Lano - Poole - Saladin P. 81

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٢٣ .

(٤) الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

وبرهانه واضح فيما تقدم وفيما سيلي من حوادث .

على أنه من الممكن أن يقال أن شيركوه قد قام به فيما يبدو — بدور كبير في حمل نور الدين على إرسال تلك الحملة إلى مصر ، وغرض شيركوه الخفي من ذلك أن تتاح للأسرة الأيوبية فرصة أخرى للمغامرة والتسكين لنفسها ، لاسيما في إقليم كمصر يصلح لذلك كل الصلاحية . من حيث الموقع الممتاز والحدود الجغرافية الواضحة والموارد الطائلة والظروف القائمة فيها ، والدليل الوحيد الذي يستند إليه الباحث في الأدلاء بهذا الرأي دليل استنتاجي بحت ، بسبب صمت المراجع عن الأدلاء بشيء ما في ذلك الصدد ، فنور الدين دخل حلب بمساعدة شيركوه وبإشارته ، واستولى على دمشق بمساعدة شيركوه وأخيه أيوب (١) ، فمن المحتمل إذن أن يكون قد وافق على إرسال حملته إلى مصر بناء على رأي شيركوه أيضاً ، ويؤيد هذا الاحتمال موقف شيركوه فيما بعد بالنسبة لفتح مصر وإلحاحه على نور الدين إلحاحاً متواصلاً لإتمامه كما سيبيح ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون تفكير الأسرة الأيوبية في ملك مصر قد بدأ من ذلك الوقت . وإلى ذلك يشير ابن الأثير صراحة فيقول : « وكان هوى أسد الدين (شيركوه) في ذلك ( أى في إرسال الحملة ) وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي ( معه ) بمخافة ، (٢) ولعل بما يؤيد ذلك الرأي قصة عرقله والألف ديتار التي وعده بها صلاح الدين (٣) ، وفي هذا الصدد يقول ستيفنسن أن شيركوه كان يتذكر بأنه سيكون

(١) انظر ص ٧٠ من الرسالة .

(٢) ابن الأثير ، السكامل ج ١١ ص ١٣٤ .

(٣) انظر ما سبق ص ٨٦ .



— كحاكم لمصر — أكثر استقلالاً ، وأنه ربما استطاع أن يؤسس أسرة حاكمة لو أن الظروف جاءت في مصلحته (١) .

وعلى كل حال فقد أرسل نور الدين — عقب مقابلته لشاور — إلى شيركوه يطلب حضوره من أقطاعه في الرحبة ، وحضر شيركوه ، وانفرد بمقابلة نور الدين ، وبما لا شك فيه أنهما استعرضا مطالب شاور وعروضه في نفس الوقت ؛ تلك العروض التي تلخص في أن يكون لنور الدين ثلث خراج مصر جزية سنوية عدا دفع نفقات الحملة على أن يترك الثلث الثاني لشاور وعسكره ، والثلث الأخير للعاضد (٢) ، وانتهت المقابلة بموافقة نور الدين على إرسال الحملة على أن يكون شيركوه قائداً لها .

وقد صحب صلاح الدين عمه شيركوه في تلك الحملة الأولى كقائد للمقدمة (٣) ، وليس في هذا ما يلفت النظر بعد أن بلغت سن صلاح الدين سنة ١١٦٣ حوالي الخامسة والعشرين ، وإنما الذي يستدعي الملاحظة والتفكير حقاً أن يكون في خروجه مع عمه ما يشير الشاعر عرقة فيمدحه في تلك المناسبة بمقطوعة شعرية يحاول فيها أن يقارن بينه وبين سميه النبي يوسف بن يعقوب ، وبرجوله أن يملك مصر كما ملكها عليه السلام من قبله (٤) .

---

(١) The Crusaders In the East. P. 187

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٣ .

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٢٩ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٤) قال عرقة :

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الأتارب =

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعقد فيها عرقله تلك المقاربة ، إذ مدحه بذلك من قبل عند ما تولى شحنة دمشق (١) . والشئ الذي يستطيع أن يستنتجه الباحث من ذلك هو أن الأسرة الأيوبية كانت تنظر إلى صلاح الدين نظرة خاصة ، وأنها كانت تعده لغاية بعيدة ، فوضعت أمامه « مثلاً أعلى » في شخصية النبي يوسف عليه السلام ، ذلك المثل الذي ظهر على السنة الشعراء كعرقله والعماد والأصفهاني ، محاولة بذلك أن تفتح أمامه آفاق واسعة من الآمال والأغراض البعيدة وقد مهد السيوطي لذكر أبيات عرقله الشعرية السابقة الذكر بجملة لها مغزاهما فقال : « وقد وقع في النفس أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية (٢) ، ومن الغريب أن « يقع في النفوس » أن صلاح الدين وهو الشاب الذي لا تزيد عمره عن الخامسة والعشرين هو الذي سيملك مصر لا عمه شيركوه ، وأن يكون المدح لصلاح الدين والرجاء له وفيه لا لقاتد الحملة شيركوه ، ولعل في هذا كله ما يليق ببعض الضوء على أن الأسرة الأيوبية كانت تعد صلاح الدين إعداداً خاصاً ، وأنها كانت تحيطه بهالة ظاهرة لغرض واضح في سياستها .

أما عن شاور فقد كره أن يكون شيركوه قائداً للحملة ، ولكنه

رب كما ملكتها يوسف الصديق	من	أولاد	يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الصادق	من	أولاد	أيوب
من لم يزل ضراب هام العدا	حقاً	ضراب	المسراقب

انظر ابن الفرات ج ٦ ص ٨٨ ، الحنبلي شفاء القلوب ص ٥ (مخطوط) الروضتين

ص ٤٢ ، السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ .

(١) راجع الفصل الثاني ص ٨٥ .

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ .

لم يجد بدأ من المسير وربما استشعر شاور الخوف من شيركوه ، فقد ذكر ابن أبي طى أن شاور سأل عن المقدم على الجيوش النورية ، فلما قيل له شيركوه لم يطب له ذلك لأنه ظن أن التقدمة تكون له ، فلما زوحم بهذا القود سقط في يده وفت في عضده (١) .

سارت الحملة صوب مصر في أبريل سنة ١١٦٤ م ( جمادى الثانية سنة ٥٥٩ هـ ) مجانبة للصاليين حتى دخلتها ، وحطت رحالها في تل بسطة ، ولما علم ضرغام بذلك جمع الأمراء واستشارهم ، فأشار عليه بعضهم بوجوب الهجوم قبل أن يستريح الجيش النورى من رحلته الشاقة عبر الصحراء (٢) ، فلم يجد ذلك رأى الصائب تأييداً يخرج به إلى حين التنفيذ وانتهت المداولة على أن يكون اللقاء في بليس ، وخرج الجيش المصرى وعلى رأسه ناصر الدين ملهم ومحمد الدين همام ، أخوا ضرغام (٣) ، وأخذ شيركوه أول الأمر لدى رؤية ذلك الجيش الكامل العدة والذى فأدخل شاور الطمانينة إلى نفسه ، عند ما أدلى إليه بأنهم قوم « يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا » ، وبأن له على أمرائهم كتباً وعهوداً (٤) ، وكان حكم شاور على جيش ضرغام حكماً صائباً ، ولا غرو فهو به جد خبير .

أما ضرغام فقد لازمه الفشل مدة وزارته ، إذ أغضب أولاً عمورى ملك بيت المقدس - كما سبق القول - غير أنه لم يكده يعلم باتفاق شاور مع نور الدين ، حتى سارع إلى الاتفاق مع عمورى من جديد (٥) .

(١) الروستين ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن خلكان ، العبر ج ٤ ص ٧٧ .

(٤) الروستين ج ١ ص ١٦٦ .

Schlumberger : Campagnes du Roi Amoury Ier P. 42 (٥)

ووصلت أخبار تلك الحركة بدورها إلى نور الدين ، فكانت من العوامل التي حفزته إلى الإسراع بإرسال حملته إلى مصر .

وكما فشل ضرغام في سياسته الخارجية ، فشل أيضاً في سياسته الداخلية ، فأغضب عليه الأمراء البرقية الذين ساعدوه ضد شاور ، وأخذ أولئك من ناحيتهم يفكرون أنهم أحق بالوزارة منه ، وعمل ضرغام على التخلص منهم ومن بينهم ظهير الدين مرتفع والى الإسكندرية ، ثم كشف هؤلاء الأمراء مؤامرة ضرغام للتخلص منهم ، فمقدوا لواء زعامتهم لظهير الدين ، ووجد ضرغام في تلك الحركة ما يهدد مركزه فقبض على عدد كبير منهم - وفيهم ظهير الدين - ثم قتلهم (١) ، وبذلك فقدت مصر عدداً من قوادها الذين يعتد بهم ، ومما أغضب الأمراء على ضرغام أيضاً أنه - كما يقول عمارة - أساء السيرة في الناس ، فإذا ظن يانسان شراً جعل الظن يقيناً (٢) . وعمارة حجة في ذلك لأنه عاشر أولئك الوزراء المتأخرين وخبرهم جميعاً . ثم يقول عمارة أيضاً أن ضرغام ابتلى من أخيه همام ، بقدى الناظر وشجاء الحناجر ، ، وأن أمراء البرقية في أيامه ذهبت قتلاً واغتياً (٣) . وعلى تلك الصورة قضى ضرغام وأخوه همام على صفوة الأمراء وكبار القواد مما ترك أثره الكبير في إضعاف مصر من الناحية الحربية (٤) .

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٧٣ - ٧٥ .

(٢) عمارة اليمن ، النكت ج ١ ص ٧٤ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) راجع ابن الفرات ج ٦ ص ٧٥ ، النكت ج ١ ص ٧٤ ، الروضتين

ج ١ ص ١٦٥ ، ٤٧ - ٤٨ ، Schlumberger. P. P.

لهذا كله من جهة ، ولدراية شاور التامة بنفسية المحاربين المصريين في ذلك الوقت من جهة أخرى نجح الجيش النورى في المعركة الأولى عند بليس ، واتخذ المهاجمون طريقهم إلى الغرب فاستولوا على القسطنطينية ، وبقى ضرغام في القاهرة ، واستمرت الحرب بينهما سجالاً عدة أيام ، نال ضرغام خلالها نصراً مبدئياً ، ففرح به فرحاً عظيماً ، وأمر قاضى القضاة بجمع ما فى الخزانة من أموال — وكانت أموال اليتامى — فلما علم الناس بذلك أيقنوا بضعفه ، وعلبوا أنه هالك من عدة وجوه : « أولها - أخذ أموال اليتامى ، والثانى - قتل من لم يذنب ، والثالث - الأيمان الخائفة » (١) . ولذلك انفض الناس من حوله وزاد الموقف تعقيداً أن الخليفة لم يعد يؤيده (٢) . فلم يبق معه إلا حرسه الخاص - وعددهم خمسمائة فارس - أما ذلك الحرس فقد ظل يتناقص حتى وصل إلى الثلاثين (٣) ، وكانت النتيجة أن قتل ضرغام عند مشهد السيدة نفيسة ، وهو يستغيث ولا مغيث ، فدخل شاور القاهرة منتصراً في مايو سنة ١١٦٤ ، وعاد إلى الوزارة للمرة الثانية .

ووقف شيركوه خارج القاهرة منتظراً أن يبر شاور بوعده ، ولكن شاور لم يرسل إليه أكثر من ثلاثين ألف دينار ، وهنا يعلن شيركوه ما أوصاه به نور الدين عند رحيله ، وهو أن يقيم بمصر نائباً له فيها ، وأن يرسل إليه ثلث خراجها (٤) ، غير أن شاور أنكر ذلك ، وطال الأخذ والرد بين الفريقين دون أن يصل إلى حل نهائى ، وبدا

(١) نفس كلام ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٧٥ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) Lane - Poole - A Hist of Egypt P. 178 .

(٤) راجع الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

أنه لم يعد أمام شيركوه إلا استعمال القوة لفض ذلك النزاع ، وأذرك المصريين أنها سابقة خطيرة أن يدعو شاور نور الدين والسليبيين إلى التدخل في شئون مصر ، ذلك التدخل الخطير ، فعمنغوه على ذلك — كما يقول إبراهيم الخنيلي (١) — ولذلك عزم شاور على قتل شيركوه ، إلا أن الفرصة لم تسمح له لتنفيذ ذلك العزم .

استعد شاور للحصار ، وعزم شيركوه على أن ينال ماوهد به سيده نور الدين بحد السيف ، وتقهقر من أجل ذلك إلى بليس ليسجتمع قواه قبل الوثوب ، وكان ذلك التقهقر نزولاً على نصيحة ابن أخيه صلاح الدين (٢) .

ثم أخذ صلاح الدين يجمع الغلال والأحطاب وما يلزم للجيش من مؤونة وذخيرة ، ووضع شيركوه يده على إقليم الشرقية (٣) ، ثم راح يغير على القاهرة من وقت إلى آخر (٤) . ولما رأى شاور استعداد الجيش النورى وعزمه على البقاء ، اندفع كعادته وأرسل إلى عمورى ملك بيت المقدس يطلعه على حقيقة الحال في مصر ، ويحذر عواقب امتلاك نور الدين لها — تلك العواقب التي لم تكن لتخفى عليه — ولي

(١) شفاء القلوب ص ٥ (مخطوط) .

(٢) أبو الحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٧ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٣٤ .

(٤) في إحدى تلك الأجازات أسر شيركوه الأرحد صبيح أخصا شور وكانت سندفا إقطاعه ( سندفا النار الحالية ) ولما رأه تصائد كثيرة في مدح هذا الأخ منها قبيدته التي يقول في مطلعها :

ليك تلبية الحجيج إلى الصفا يا داعي الكرم القيم بسندفا

راجع التكت ص ١٣٤ .

الصلبيين النداء ، وحضروا إلى مصر ، وحاصروا شيركوه في بليس  
يوليه سنة ١١٦٤ (شعبان سنة ٥٥٩) .

وقد دام حصار الصليبيين لتلك المدينة ثلاثة أشهر . ويظهر أن  
شاوور لم يكن راغباً في القضاء على شيركوه والجيش النورى خوفاً من  
الصلبيين أنفسهم (١) ، وأنه سعى إلى أن يخرج الفريقان معاً ، وساعده  
الظروف على نجاح مسعاه ، إذ أن نور الدين اتهم فرصة رحيل عمورى  
بجيشه عن الشام ، وأخذ يهاجم أملاك مملكة بيت المقدس ، فاستولى  
مثلا على قلعة بانباس وحارم وغيرهما (٢) ، ثم استولى نور الدين على  
أعلام الصليبيين وأرسلها إلى شيركوه في بليس (٣) ، ونشرها شيركوه  
أمام أنظار الصليبيين المحاصرين ، فعرفوا ما حل بأملاكهم ، وأخذ  
عمورى يفكر في العودة لنجدتها (٤) ، ولهذا اتهاون بشيركوه وعمورى  
بعد أن دفع شاوور لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى ، وخرج الفريقان

---

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ١٦٧ ، ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٣٤ .

(٢) لعل المجال هنا لا يتسع لذكر حروب نور الدين مع الصليبيين بالشام أثناء

حصار شيركوه في بليس إذ أن ذلك يعتبر خارجاً عن نطاق البحث ، وهي

على كل حال مكتوبة بصورة واضحة في Stevenson, p.p. 188-190 .

Eichlumlerger. p. p. 83 - 94 ابن الفرات ج ٦ ص ٨٢ ، ابن خلدون

والعبر ج ٥ ص ٢٤٧ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٤ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٨٣ ، الروضتين ج ١١ ص ١٦٧

ابن خرداد ص ٤٣ .

(٤) لتلك الحادثة نظير في تاريخ مصر الحديث إذ سلك الإنجليز ما يشبه ذلك

مع نابليون وهو في مصر عندما أرسلوا إليه عدداً من الجلات والجراند

التي تصور سوء الحالة في فرنسا فاضطروه بذلك إلى العودة سراً ، ونجح

الإنجليز بعد رحيله في حصر الفرنسيين في مصر وإخراجهم منها .

من مصر في نوفمبر سنة ١١٦٤ ( ذو الحجة سنة ٥٥٩ هـ ) ، وانتهت الحملة النورية الأولى على تلك الصورة (١) .

حقيقة أن تيجتها لم تكن حاسمة بالنسبة لنور الدين أو عموري ، ولكن عواقبها في نفس الوقت كانت هامة جداً ، إذ عرف شيركوه تماماً مدى ما بلغته مصر من ضعف ، ولذا خرج منها عازماً على أن يعود إليها ليشوي حسابيه مع شاور وزيرها المتقلب ، ولأنه وجد فيها ضالته وضالة أسرته الناشئة التي تريد أن تكون لنفسها .

وبالرغم من ذلك الموقف الضار الذي وقفه شاور ، فإن رجال القصر في ذلك الوقت وهم الفئة التي تودع كل راحل وتستقبل كل قادم وتأكل على كل مائدة ، لم يجد أحدهم في موقف شاور ما يعيب ، بل على العكس مدحه عمارة اليميني ، فشكر تلاعبه بنور الدين وشيركوه والصليبيين والمصريين (٢) . بل تمادى إلى أكثر من ذلك فشبّه رحيله

---

(١) مدح عمارة اليميني شاور بعد رحيل شيركوه وعموري بقصيدة يظن من

يقروها أن شاور هو الذي انتصر على الفريقين وفيها يقول :

فتح تولد يسه من عسرة      طالك وأى ولادة لم تهر  
حملت به الأيام إلا أنها      وضمت تماماً عن ثلاثة أشهر

راجع النكت ص ٨٢ .

(٢) قال عمارة بمدح شاورا من قصيدة طويلة .

إن بات من عدد الملوك فانه      لا يستوى نار الفضا ودخانها  
جمت لك الأمم الثلاث فستها      حتى كأن لم تختلف أديانها  
خلصت كل قبيلة من ضدها      لما التوت وتمعدت أشطانها

راجع النكت ج ١ ص ٨٣ .



الأول إلى الشام بهجرة الأنبياء (١) .

وعلى ذلك الأساس تدهورت الحالة في مصر ، فأصبح خلفاؤها ضعفاء ووزراؤها خبيثاء ، يضحون بمصالح الدولة العليا في سبيل مصالحهم الشخصية ، فلا عجب إذاً أن يطمع فيها شيركوه ، ويميل إلى امتلاكها الصليبيون ، وأن تسقط الدولة الفاطمية - أخيراً في الصراع بين الفريقين .

عاد شيركوه والصليبيون إذن إلى الشام ، أما شاور فقد ظن أن البلاد قد خلت بعد رحيلهم ، وأنه لم يعد له فيها من منازع ، فسار على سياسة ذلك العهد التقليدية من ظلم واضطهاد واستبداد بشئون الخلافة ، وكذلك أخذ يضطهد كل من أظهر ميلاً لشيركوه أثناء الحملة الأولى ، ويفدق نعمه على من استطاع أن يستميله من الجيش النورى ، فأقطع مثلاً خشتين الكردي بلدة شيطانوف (٢) ( في المنوفية الآن ) ، وأما من عاون شيركوه فكان نصيبه القتل والنشريد كالشاعر المصرى الرشيد ابن الزبير ، الذى قتل لاتصاله بشيركوه ومراسلته له (٣) .

أما شيركوه فقد أصبحت مصر شغله الشاغل (٤) ، فأخذ يلح على

---

(١) قال عمارة في ذلك من القصيدة نفسها :

هجر الوزارة إذ تشكر عرفوا وكذا النبوة إذ نبت أوطانها

نفس المرجع ص ٨٤ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٦٧ .

(٣) ياقوت معجم الأدباء ج ٤ ص ٦٠ - ٦٢ ، ابن الهاد الحنبلى شذرات

الذهب ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٤) راجع ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٣٧٩ .

نور الدين بضرورة فتحها حتى ليخيل إلى الباحث أن شيركوه أصبح أكثر اهتماماً بمصر من نور الدين نفسه (١) ، والواقع أنه إذا كان هناك احتمال بتفكير الأيوبيين في ملك مصر قبيل الحملة الأولى ، فما لا شك فيه أن تفكيرهم في ملكها قد أصبح واضحاً بعد تلك الحملة . بل إن الدكتور حسن إبراهيم ليذهب إلى أكثر من ذلك ، فيقول أن شيركوه بقي في الشام مدة بعد الحملة الأولى يعد العدة في تجهيز حملة ثانية أملاً في تأسيس إمبراطورية لنفسه (٢) ، وقد جاءت تلك الحملة الثانية إلى مصر فعلاً في ديسمبر سنة ١١٦٦ كما سيلي .

وقد صحب صلاح الدين عمه شيركوه في حملته الثانية على مصر ، وحوالي ذلك الوقت مدح الكاتب الأصفهاني نجم الدين أيوب بقضية هامة ، وصلة ذلك الشاعر بالأسرة الأيوبية صلة وثيقة منذ أسر عمه عبد العزيز في تكريت مدة حكم أيوب لها (٣) . وأهمية هذه القصيدة أن الكاتب الأصفهاني في مدحه لنجم الدين أيوب في هذه المناسبة أحد رجلين ، إما متنبئاً كشف له الغيب ، وإما صديق تثق فيه الأسرة الأيوبية إلى درجة جعلته يعرف الكثير عن أغراضها ، فعبر عن ذلك كله في شعره ، والواقع أن مدح العماد الأصفهاني لنجم الدين جاء مطابقاً لما حدث بعد ذلك ، فقد تمني للأسرة فتح مصر والاستقرار فيها

---

(١) انظر Stevenson p. 178 .

(٢) الفاطميون في مصر ص ٣٠٣ .

(٣) لما أسر عبد العزيز عم العماد الكاتب وسجن في تكريت عامله أيوب بمعاملة

طيبة ومنذ ذلك الوقت توطلدت الصلة بين ذلك الشاعر وبين الأسرة الأيوبية

راجع ابن خلكان الوفيات ج ٢ ص ٧٤ .

وأن يلتقى فيها صلاح الدين بأخوته وأهله (١) . والنقطة الهامة في هذه القصيدة أن العباد خص صلاح الدين بأن يستقر هو في مصر - لا شيركوه - على خلاف ما كان ينتظر ، وذلك دليل يساق لتأييد القول بأن صلاح الدين كان يعد إعداداً خاصاً . ولا أقل من إضافة ذلك الدليل الاستنتاجي الآخر إلى مختلف الأدلة السابقة (٢) .

والواقع أن شيركوه أدرك - كقائد حربي ممتاز - سهولة فتح مصر ، وسهولة الاستقلال بها أيضا ، وفي ذلك يقول إبراهيم الحنبلي :  
ولما رجع ( شيركوه ) من بلبس بقى في خاطره أمر عظيم من البلاد  
لحسنها ، ولعلمه أن الأمور تجرى فيها بالوهم ، ولما في نفسه من غدر  
شاور ، فكان كلما خلا بنور الدين يرغبه فيها ، فأذعن نورالدين لذلك  
ولما في قلبه من شاور (٣) ، وهذا هو رأى أبى شامة أيضا الذى يضيف  
أن شيركوه كان يتحدث عن رغبته في مصر مع كل من كان يثق به (٤) ،

(١) قال النماذ يمدح نجم الدين أيوب :

يوم النوى ليس في همري بحسوب	ولا الفسراق إلى عيشي بحسوب
أخوك وابنك حقا منهما اعتصما	بالله ، والنصر وعد غير مكذوب
ما ممان في يومى وغى وقرى	تودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان في الكفار نار لظى	بلفحها يهبسح الشبان كالشيب
ويستقر بمصر يوسف وبه	تقر بمد التأتى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها بأخوته	والله يجمعهم من غير تريب

راجع إبراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب ص ١٠ .

(٢) . راجع ما سبق ص ٨٨ .

(٣) . شفاء القلوب ص ٥ .

(٤) يقول ابن شداد (سيرة صلاح الدين ٢٩ — ٣٠) إن حديث شيركوه =

وأن خفده على شاور كان يزيد رغبة في العودة إليها (١) .

ومهما يكن من شيء فقد استجاب نور الدين لرغبة قائده ، فجهز له جيشاً توجه به إلى مصر في ديسمبر سنة ١١٦٦ ( ربيع الأول ٥٦٣ هـ ) وكان السبب المباشر هو ما بلغ نور الدين عن رغبة شاور في الاتفاق مع الصليبيين (٢) . وخرج الجيش النورى من الشام وأمره سر مكتوم حتى أن شاور لم يعلم بخبر تلك الحملة إلا من عمورى الذى وصل إلى مصر قبل وصول شيركوه ، لأنه اتخذ الطريق الساحلى ، ومعنى هذا أن الاتفاق بين شاور والصليبيين إنما تم قبل رحيل الحملة النورية الثانية إلى مصر ، وقد تلقى شاور حلفاءه عند بلبس ، حيث استوقف عمورى لمباغثة الجيش النورى المهاجم ، ولكن خبر ذلك الاجتماع وصل إلى شيركوه ، فغيّر طريقه وخرج على أطفیح (٣) ، وهى قرية على الشاطئ الشرقى للنيل بمديرية الجيزة الحالية على مسافة أربعين ميلا جنوبى القسطنطية وعلم شاور وحلفاؤه بذلك فاقتفوا أثر شيركوه ، بعد أن خاب تديرهم فى مباغثته ، وعند أطفیح اجتاز شيركوه النيل ، وعسكر مكان الجيزة الحالى ، وظل شاور والصليبيين قبالتة على الضفة الشرقية فى القسطنطية ،

---

عن مصر وطعمه وصل إلى مسامع شاور فاستمد له وكاتب الصليبيين وقرر معهم أن يعودوا إلى مصر وأن يمكنهم منها تمكيناً كلياً على أن يمينوه على شيركوه .

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٢ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٨ ، ابن خلصان ج ٢ ص ٣٧٦ ، ابن شداد ص

٢٩ — ٣٠ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٤٧ ، الروضتين ص ١٦٨ .

وقد حاول الصليبيون أن يعبروا النيل ولكنهم خشوا العاقبة (١) ، فساروا شمالاً وعبروا النيل تحت جناح الظلام عند تفرعه شمال القاهرة (٢) ، ومن هناك صوبوا نحو الجنوب ، وأدرك شيركوه حركتهم ، فاندفع أمامهم .

وفي اجتياز شيركوه للنيل غرباً ما يدل على أنه قد وطّد العزم على فتح مصر ، والاشتباك مع شاور وحلفائه في معركة حاسمة ، كما يدل أيضاً على أنه إنما كان يعتمد على فريق من المصريين وثق من تأييدهم له - كما سيلي - ولو كان الأمر لا يتعدى عند شيركوه مجرد الغزو والاكتفاء بشيء من المال ثم العودة إلى الشام ، لما أقدم على تلك المغامرة ، وهو يعلم تماماً أن كل خطوة يخطوها إلى الغرب تزيد في حرج موقفه وتزيد - في نفس الوقت - أعداءه تمكناً منه .

وقد أراد عموري - قبل الاشتباك مع شيركوه - أن يستوثق لنفسه ، وبخاصة أنه لم يعد يعتمد على كلمة شاور ، فعقد معه اتفاقاً جديداً صدق عليه الخليفة العاضد ، وخلاصته أن يدفع المصريون للصليبيين مائتي ألف دينار محجلة على أن يدفعوا مثل ذلك المبلغ فيما بعد (٣) .

أما شيركوه فعمل على أن يستعين بالمصريين أنفسهم ضد وزيرهم ، وكان شيئاً طبعياً أن يلجأ إلى الإسكندرية وإلى الإسكندرانيين ، إذ ظلت

• Lane - Poole, Saladin P. 88 (١).

• Lane - Poole. A Short Hist, of Egypt. P. 86 (٢)

Lane, Poole, Saladin P. 89 (٣)

تلك المدينة تحمل لواء المعارضة للحكومة المركزية في القاهرة طوال العهد الأخير من الحكم الفاطمي ، فإليها لجأ نزار بن الخليفة المستنصر عندما أقصى عن الخلافة عقب وفاة أبيه ، وفيها قاد معارضته ، وكذلك اتخذها الأفضل بن بدر الجمالي قاعدة لنزاعه ضد الخليفة الفاطمي ، كما خطب فيها للخليفة العباسي ، وقد سبق ذكر ذلك كله في الفصل الأول (١) ، ثم إن أول مدرسة سننية في مصر الفاطمية أقيمت بالإسكندرية لتعليم المذهب الشافعي أيام وزارة ابن مصال ، وقام بالتدريس فيها الإمام الفقيه الحافظ السلفي ، وقد سبق ذكر ذلك في الفصل الأول أيضا ، وإليها خرج ظهير الدين مرتفع نائرا على ضرغام (٢) ، والخلاصة أن الإسكندرية كانت المدينة التي يمكن أن يلجأ إليها شيركوه ليستعين بها ، ولذلك أرسل إلى أهلها يستحثهم ويستجد بهم على شاور لأنه أدخل الفرنج إلى دار الإسلام ، وأنفق أموال المسلمين عليهم (٣) .

ولقد صادف استجداد شيركوه بأهل الإسكندرية وجود أحد أحفاد ابن مصال بها ، وربما كان وجود ذلك الحفيد السنني الناقم

(١) انظر ص ٣٨ وما يتلوها .

(٢) انظر أيضا صفحات ١٠٨ — ١٠٩ .

(٣) يقول ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٦٨) إن شيركوه كتب إلى أهل الإسكندرية يستجد بهم على شاور لأجل ادخاله الفرنج إلى دار الإسلام وتضييمه أموال بيت المسلمين فيهم فقاموا معه وأمسوا عليهم نجم الدين ابن مصال وهو ابن أحد وزراء المصريين - وكان لجأ إلى الإسكندرية متخفيا فظفر في هذه الفتنة .

على الخلافة الفاطمية عاملاً من بين العوامل التي دعت شيركوه إلى الالتجاء إلى تلك المدينة ، وعلى كل حال فقد تزعم هذا الحفيد الإسكندريين لنصرة شيركوه ، وكان بالإسكندرية في ذلك الوقت أيضاً الشريف الإدريسي ، فحمّله حفيد ابن مصلح رسالة إلى شيركوه فحواها أن السلاح الذي طلبه سيصله ، وقد وصله فعلاً بعد ذلك بيومين (١) ، ولم يقتصر الأمر على انضمام الإسكندرية إلى شيركوه ، بل انضمت إليه أيضاً بعض القبائل العربية كالإشراف الجعفرين والطلحيين وغيرهم (٢) ، ومعنى ذلك كله أن شيركوه استطاع أن يكون لنفسه حزباً في مصر يعتمد عليه عند الحاجة .

ولما وصل رد حفيد ابن مصلح إلى شيركوه بإجابته إلى ما طلب سار جنوباً بعد أن علم أن الصليبيين اجتازوا النيل ، وظل شيركوه في سيره والصليبيون يتبعونه حتى التقيا عند البابين جنوبي المنيا بحوالي عشرة أميال ، وكان شيركوه قد أرسل من عيون وأرصاده من يكشف له (٣) حال شاور والصليبيين ، فلما عادوا حدثوه عن عددهم وعددهم وعزمهم على الظفر به وبجيشه .

نالت تلك الأخبار من الجيش النورى ، وقتت في عضده ، حتى لقد استنثار شيركوه رجاله ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعودة إلى الشام ، وحيثهم في ذلك أنه ليس لهم ملجأ في حالة الهزيمة ، وهي النتيجة التي لم يكونوا يشكون فيها - كما يقرر

---

(١) ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٦٨)

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٥ .

ابن أبي طي (١) - ومع ذلك وبالرغم من روح اليأس التي سيطرت على الجيش النورى ، فإن جندياً واحداً هو شرف الدين برغش استطاع أن يحول اليأس في قلوب العساكر النورية إلى أمل ، إذ قام في الجمع فقال : من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيتسه ، والله لأن عدتم إلى الملك العادل ( نور الدين ) من غير غلبة وبلاء تُعذرون فيه ، ليأخذن أقطاعاتكم وليعودن عليكم بجمع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار يتصرف فيها الكفار (٢) . ومن المحتمل أن يكون شيركوه هو الذى أوعز إلى برغش بتلك الكلمة بدليل أنه وافق عليها ، وتابعه في ذلك صلاح الدين ثم كثر الموافقون على القتال حتى اجتمعت الكلمة على لقاء العدو (٣) .

وكانت معركة البابين في الحقيقة اختياراً صارماً لمهارة شيركوه وتنظيمه الحربى إذ استطاع بجيشه القليل العدد والعدد ، وفي تلك الجهة الثانية بعيداً من قواعده ، أن يهزم شاور الصليبيين ومن معهم . ويرجع العسامل الأول في انتصاره إلى تلك الطريقة الفذة التي لقي بها أعداءه . فقد قسم الجيش إلى قلب وجناحين ، وجعل صلاح الدين في القلب (٤) وأسر إليه أن يرتد بانتظام عند نشوب المعركة ، بينما قاد هو الميمنة ، فلما التحم الجيشان في ١٨ أبريل سنة ١١٦٧ ( ٢٥ جمادى الآخر

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٤٣ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٦ .

(٤) نفس المصدر .



سنة ٥٦٢ هـ) تراجع صلاح الدين تبعا لتلك الخطة الموضوعية ، واندفع الصليبيون وراءه . وعندئذ هجم شيركوه على ميسرة أعدائه - وكانوا من المصريين - فبدد جمعهم واضطرم إلى الفرار . فلما أدرك الصليبيون أن حلفاءهم قد فروا ، أخذهم الذعر ، وتبعوهم فارين إلى الشمال بعد أن رأوا شيركوه يقوم بحركة لتطويقهم وحصرهم (١) . وهكذا انتصر شيركوه وصلاح الدين على شاور وعمورى ومن معهما بجمعيين ، وتخطى شيركوه موقفه الحرج بنجاح ملحوظ .

ويلاحظ هنا أن شيركوه لم يتبع أعداءه ، وإنما سار رأساً إلى الاسكندرية متخذاً الطريق الصحراوى (٢) . أما التجاؤه إلى تلك المدينة فتعليله واضح ، وهو ميل أهلها له وتأيدهم لسياسته ضد شاور ، ولكن عدم تتبعه لأعدائه الفارين أمر يوجب الالتفات . وتفسيره أن شيركوه رأى ألاّ قبل له بأولئك الأعداء أو أن الفرصة المناسبة لم تسنح بعد للاشتباك معهم في معركة فاصلة . والظاهر أنه أراد أولاً أن يوقف وعى المصريين ، ويشيرهم ضد شاور وحلفاءه من الصليبيين أى أنه رأى أن أعداءه - وقتذاك - أقوى منه وأكثر نفراً ، ولذلك تركهم يفرون من أول صدمة وهو في نفس الوقت لا يريد أن يكتفى من الغنيمة بالأبواب فيقنع بذلك النصر ويغادر مصر ، وإنما هو يريد أن يفتح تلك البلاد وأن يستقر فيها ، ولذلك عزم على أن يتخذ من الاسكندرية - وهى المدينة التى اعتادت أن تستقبل غيره من المعارضين للخلافة الفاطمية

(١) انظر تفاصيل هذه المعركة في 136 - 146 Schlumberger. p. p.

Lane Poole - Saladin P. 89 .

(٢) راجع الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

ووزرائها بالقاهرة — قاعدة لأعمالها الحربية وغير الحربية . ودخل  
شيركوه الاسكندرية فعلا بمساعدة من أهلها(١) ، وجعل من أحد  
قصورها سجنا(٢) لمن أسرم في موقعة البابين ، ثم أمده أهلها بما يلزمه  
من سلاح ومال(٣) .

ولم يمكث شيركوه في الاسكندرية إلا الوقت اللازم لتدبير شئونها  
رتظيم إدارتها ، ثم ترك عليها من قبله ابن أخيه صلاح الدين ، بعد أن  
استحلف له وجوها وأوصام به(٤) . ثم ترك معه من أعجزه المرض  
أو الضعف عن المغامرة(٥) ، أما هو فقد غادرها وولى وجهه شطر  
الصعيد مرة أخرى ، ولأغراض أخرى فيما يبدو . والراجح أن شيركوه  
غادر الاسكندرية لأنه أراد أن ينشر نفوذه في البلاد وأن يجمع منها  
ما يستطيع جمعه من المال والرجال ليتقوى بها على أعدائه ، ثم لأنه خشى  
إن هو استقر فيها أن يحاصره الصليبيون في البر والبحر فيسيبوا له كثيراً  
من الضيق والضرر(٦) . ولذلك سلك شيركوه سبيلاً وسطاً فترك صلاح  
الدين في الاسكندرية وانطلق هو إلى الصعيد .

وقد حدث ما كان شيركوه يخشاه ، إذ اتجه شاور والصليبيون إلى  
الاسكندرية وحاصروها ، ولم يكن الحصار برياً فقط وإنما حاصرها

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٦ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

(٦) نفس المصدر .

الأسطول الصليبيين من البر أيضا (١) . ودام الحصار خمسة وسبعين يوما - كما يقال (٢) - بذل صلاح الدين خلالها. ومع الاسكندريون الشيء الكثير من الجهد والمال . وجاءت مدة ذلك الحصار فرصة طيبة خبر فيها صلاح الدين كثيراً من فنون الحكم والإدارة .

فلم يكذ شيركوه يسمع بما يقاسيه صلاح الدين في الحصار حتى أسرع إليه وكان في قوص التي استمد منها شاور قوته التي أوصلته إلى منصب الوزارة - وقد صحب شيركوه جمع كبير من العربان وأبناء الصعيد الذين انصرفوا عن الوزير الفاطمي بعد ما تبين لهم من سوء معاملته لأمراتهم بعد وزارته . ولذا يبدو واضحاً أن شيركوه عاد من الصعيد وهو من القوة بحيث خشيه شاور والصليبيون بدليل أنه لم يكذ يبلغهم أمر رجوعه لنجدة صلاح الدين حتى رفعوا الحصار عن الاسكندرية (٣) .

ثم استقر الفريقان على الصلح ، وشروطه أن يتحمل شاور ما بذل نور الدين من نفقات في تلك الحملة الثانية ، وقدرت تلك النفقات بخمسين ألف دينار ، على أن ينقل الضعفاء من الجيش النورى إلى الشام على مراكب الصليبيين . ومن بين الشروط أيضا ، أن الفرنج لا بمصر ولا يتسلطون منها قرية واحدة ، وأن الاسكندرية المصريين ، (٤) .

---

(١) Lane Poole, Saladin 89 ، حسن إبراهيم الفاطميون ص ٣٠٤

(٢) يقول P. 191 enson

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٦٩

(٤) نفس المصدر ص ١٤٣

أما الصليبيون فقد استقر بينهم وبين المصريين أن تكون لهم شحنة بالقاهرة وهذا يناقض المعاهد (١) التي لم يكن مدادها قد جف بعد — وأن تكون أبوابها يسد فرسانهم « لئلا يمنع نور الدين من إنقاذ عسكر إليهم » (٢) ، وأن تدفع مصر للسلك الصليبي مائة ألف دينار ضريبة سنوية ثابتة (٣) .

وعلى هذا الأساس غادر شيركوه وعموري مصر للمرة الثانية وفي ضمير كل منهما أن يعود إليها مرة ثالثة ، بعد أن تأكد الفريقان من ضعفها وأهميتها في وقت واحد ، وبعد أن درسا خلال الحملتين السابقتين كل ما يريدانه عنها . وهذا يفسر الحقيقة القائلة بأن الأمر خرج عن طوق شاور منذ فراره واستنجاهه بنور الدين . ولعل التسابق بين الفريقين على مصر الآن قد أصبح أوضح وأظهر من أى وقت مضى .

وقد أفاد صلاح الدين كثيراً من تلك الحملة الثانية ، فخير فنون الحرب والإدارة خبرة عملية في البابين والاسكندرية ، كما أتيج له أن يدرس مصر دراسة عملية خلال تلك المدة ، مما ساعده على السير بخطى ناجحة فيما بعد .

ويبدو أن صلاح الدين توقع ما ستكون عليه معاملة شاور لمن عاونوه وآزروه أيام الحرب والحصار ، فاستحلفه ألا يتعرض لهم بأذى ، ولكن شاور — الذي لم يكن ليعبأ بالإيمان ولا بالمواثيق — قبض على

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٦ ، السيوطي حسن المحاضرة ج ٢

ص ١٨ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٤٣ .

(٣) Lane Poole, Saladin P. 91

نجم الدين بن مصال وعلى غيره من أنصار شيركوه وضيق عليهم ، وعلم بذلك صلاح الدين فتحدث في الأمر إلى عموري ، الذي أرسل إلى شاور يلفت نظره إلى خطأ تلك السياسة واستحطفه من جديد . ومع ذلك فقد أعاد شاور الكرة ، ولم يحترم الوعد فخرج إلى الشام البعض من أولئك الموالين وبقي البعض الآخر (١) مهم بمصر . وفي هذا ما يدل على أنه قد أصبح لشيركوه في مصر حزب يؤيده ، مما سهّل على الأسرة فيما بعد تنفيذ سياستها . وعلى تلك الصورة اتهمت الحملة الثانية وعاد شيركوه إلى الشام فوصل دمشق في ٥ سبتمبر سنة ١١٦٧ (١٨ ذى القعدة سنة ٥٦٢ هـ) ، لا ليصرف عنها نظره ولكن ليعود إليها من جديد .

وكما أن شيركوه لم يستطع أن يصرف تفكيره عن مصر عقب الحملة الأولى ، فكذلك كان الحال عقب الحملة الثانية . بل لقد أدرك بنفسه طمع الصليبيين فيها ، مما زاد في رغبته في العودة إليها (٢) . وفي هذا الصدد يقول ابن أبي طى إن شيركوه خرج من مصر ، وفي قلبه الداء الدوى منها ، لأنه شاهدها وشاهد مغلاتها فوجدتها أمراً عظيماً (٣) .

على أن النقطة الهامة هنا هي أن شاور نفسه قد أدرك نوايا شيركوه الحقيقية من وراء حملاته على مصر ، وعلم أنه إنما يعمل لحساب الأسرة الأيوبية لا لنور الدين وحده . وقد ذكر ذلك ابن شداد في عبارة واضحة فقال : إن شاور علم أن شيركوه قد طمع في البلاد وإنه لا بد

(١) راجع في هذا كله الروضتين ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) راجع ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٠ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

له من قصدها، (١). وحاول شاور أن يقف حائلاً بين شيركوه وبين تحقيق رغبته ، مستعيناً على ذلك بعمورى ملك بيت المقدس ، فكان من نتيجة تلك السياسة أن أرسل نور الدين حملته الثانية ، وفشل شاور بذلك في إبعاد شيركوه عن مصر . وعندئذ اتجه تفكير شاور وجهة أخرى ، وهى أن يصرف تفكير نور الدين نفسه عن مصر فيستطيع بذلك أن يقضى شيركوه عنها .

ويظهر أن نور الدين قد استمع على الأقل لمقالة شاور وقد أورد ابن أبي طى نصاً خلاصته أنه سمع عن أبيه أن شاور كاتب نور الدين في أن يصرف شيركوه عن مصر وضمن له في نظير ذلك أن يحمل إليه مالا سنويا ثابتا . فلما بلغه أن نور الدين نجح في ذلك ، أنفذ إليه رسولا بهدية ثمينة ومعه كتاب هام ذكر نصه أبو شامة في كتابه الروضتين (٢). والقارىء لذلك الكتاب يدرك أن نور الدين لا بد أن يكون قد كتب إلى شاور قبل ذلك ، وبالتالي لا بد أن تكون قد جرت بين الرجلين مراسلات بدليل ما يقوله شاور في أول كتابه . «ورد كتاب استدعى شكرى وحمدي ، ويدرك القارىء لهذا الكتاب أيضا أن شاور قد ضرب لنور الدين على نعمة محببة إلى نفسه ، وهى اتحاد القوى الإسلامية في الشرق ، إذ يؤيد شاور بعد بضع عبارات من المدح والتفايق فكرة اتحاد المسلمين حيث يقول حسبما جاء في الروضتين ، فأسعد رأيا دل على نصرة الكلمة ودعا إلى سبيل الفئمة المسلمة ووفر على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة ، ثم يؤكد بعد ذلك أنه لا يزال عند كلته من الولاء

(٤) سيرة صلاح الدين ص ٢٩ — ٣٠ .

(١) الروضتين ج ١ ص ١٦٩ .

نور الدين والحرص على مودته والثقة فيه (١) .

وقد حاول نفس تلك المحاولة أيضا شجاع بن شاور ، إذ يذكر ابن الأثير أن شجاعا كان من المواليين لنور الدين ، وأنه أرسل إليه يعان ولأه ، ويسأله الدخول في طاعته على أن يدفع له مالا سنويا (٢) .

والخلاصة أن شاور ومن ورائه ابنه شجاع - استطاع أن ينجح في صرف نظر نور الدين عن مصر - وبالتالي في إبعاد شيركوه عنها ولو إلى حين ، لأنه إنما كان يخشى جانب شيركوه ، ويعرف تمام المعرفة نواياه نحو مصر ، ويريد أن يصرفه عنها بأية وسيلة . وقد صور الشاعر عرقة الكندي نفسية شاور وخوفه من شيركوه وصفا نهكيا لاذها في بيتين من الشعر أثبتهما أبو شامة في الروضتين (٣) ، ولعل في هذا كله ما ينهض دليلا على أن موقف شيركوه إزاء مصر لم يكن وفقا عاديا ، فإن قائدًا يحاول سيده أن يبعده من إقليم معين لابد أن تكون له في الإقليم مأرب خاصة . ولعل في هذا أيضا ما يضيف جديداً إلى عديد

---

(١) نفس المصدر ، راجع أيضا ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ( ج ٧ ص ٣ ) حيث يقول : « وفيها ( ٥٦٣ هـ ) . ورد من شاور وزير الديار المصرية إلى الملك النادل نور الدين صاحب الشام كتاب فيه يشكر الملك النادل نور الدين على ما صرف به الأمير أسد الدين شيركوه عن التمرض لذكر مصر وكونه إجابته إلى ما طلبه » ثم يورد بعد ذلك نص الكتاب .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٧ .

(٣) قال عرقة :

وهل هم يوما شيركوه بجلق إلى العيد إلا ارتاح في مصر شاور  
هو الملك المنصور والأسد الذي شذا ذكره في الشرق والغرب سائر  
الروضتين ص ١٣٢ .

الإشارات السابقة التي تدل على أغراض الأيوبيين ومحاولاتهم المختلفة للتكوين لأنفسهم .

على أن سياسة شاور في إبعاد شيركوه لم يقدر لها أن تنجح إلا فترة قصيرة من الوقت ، لأنه سرعان ما وجد نور الدين نفسه مضطراً إلى المغامرة من جديد في حوادث مصر ، لا بدعوة من شاور كما حدث في الحملة الأولى ، ولا تحت إلهام شيركوه كما حدث في الحملة الثانية . وإنما بدعوة من الخليفة الفاطمي العاضد نفسه ، وتحت ضغط الظروف التي تطووت تطوراً خطيراً لم يعد من حسن السياسة إزائه الوقوف مكتوف اليدين .

ذلك لأن الصليبيين وطدوا عزمهم على أن يدخلوا مصر مرة أخرى فاتحين ، بعد أن رأوا ضعفها وسهولة فتحها وطمع شيركوه فيها (١) ، وقد عقدوا لذلك الغرض بجمعاً انتهى رأيهم فيه عند ضرورة فتح مصر ، وقد بلغ من ثقة عموري بنتيجة الحملة أنه وزع القرى والأقطاعات على رجاله وعساكره (٢) ، مما يدل على أنه درسها دراسة وافية تمهيداً لفتحها ، وضمها نهائياً إلى أملاكه ، ولا عبرة هنا بما انفرد به وليم الصوري من قول بأن عموري قرر أمر تلك الحملة وهو كاره ، وأنه ظل محافظاً على المعاهدة بينه وبين شاور (٣) ، إذ المعقول أنه كان متردداً في أمر تلك الحملة الثالثة لا كارهاً لها ، وأنه اختار المحافظة على المعاهدة

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٠ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) Yuillaume de Tyre p. 949 ، راجع أيضاً ابن الأثير بالكامل



القائمة بينه وبين شاور إلى حين ، فإنه كان يؤمل كثيراً في مانويل كنين  
امبراطور الدولة البيزنطية وفي مساعدته له (١) ، وانتظار تحقيق ذلك  
الآمل هو سر تروده ، وقد كان لدى عمورى من الأسباب ما جعله  
يطمئن إلى تحقيق ذلك الآمل ، فقد سادت العلاقات الطيبة بين  
الإمبراطور البيزنطى مانويل كنين منذ أيام بلدوين الثالث ( ١١٢١ -  
١١٦٢ م ) ، وزادت تلك العلاقات قوة وصفاء بزواج عمورى - للمرة  
الثانية - من مارى كنين ، إذ أرسل عمورى بعد ذلك الزواج بقليل  
وفداً إلى القسطنطينية لعقد محالفة بين الدولة البيزنطية وملكسكة بيت  
المقدس لفتح مصر ، وتعيين ما يمكن أن يقدمه الإمبراطور مانويل  
كنين من مساعدات في ذلك الفتح ، وقد رأس ذلك الوفد وليم الصورى  
نفسه ، وكان من الأسباب التى بسطها الوفد الصليبي لتبرير رغبتهم في فتح  
مصر أنها جهة غنية قد وقعت تحت سيطرة حكام عاجزين قصيرى النظر .  
وأنها لا بد أن تقع من جراء سياسة وزرائها في يد الأعداء ، وقد وافق  
الإمبراطور البيزنطى على ماطلب رسل الملك الصليبي ، وأظهر استعداده  
لمساعدته بنجدة خريية (٢) ، ثم عاد الوفد الصليبي من القسطنطينية بعد  
أن نجح في مهمته في أكتوبر سنة ١١٦٨ ( ٥٦٤ هـ ) كما كان سياً في  
تقرير القيام بالحملة الصليبية الثالثة على مصر في أقرب فرصة .

على أن هناك سبباً آخر من بين تلك الأسباب التى حمت الصابيين  
على إرسال حملتهم إلى مصر ، وهو أن الشحنة التى تركوها بإللقاهرة  
أخذت تلح على عمورى بإرسال حملته وتكون عليه أمر فتح مصر ، ولا

• Schlumberger. p. 183 (١)

(٢) راجع فى ذلك كله Guillaume de Tyre p. p. 947 — 949

غراية في ذلك ، فقد شاهد رجال تلك الشحنة مدى ما بلغت مصر من ضعف (١) .

وكيفما كان الأمر فقد بدأ عموري بتنفيذ الحملة دون أن ينتظر وصول المدد البيزنطي (٢) ، فتظاهر أولاً بأنه يقصد حمص (٣) ، ثم اتجه فجأة وبكل قوته إلى الجنوب حتى وصل إلى حصن الداروم ، وسمع شاور بذلك فأسرع بإرسال أمير من أمرائه هو بدران ، وسيره إلى الملك الصليبي (٤) . ولكن يظهر أن ذلك الرسول تناسى واجبه ورسالته إزاء الوعود المغربية التي مناه بها عموري (٥) ، مما اضطر شاور أن يرسل رسولا ثانياً هو شمس الخلافة محمد بن مختار ، وعرف شمس الخلافة نوايا الصليبيين الحقيقية من تلك الحملة بعد أخذ ورد طويلين

---

(١) يقول ابن الأثير في هذا الصدد (الكامل ج ١١ ص ١٥٠) إن الصليبيين جعلوا لهم في القاهرة شحنة « وتسلموا أبوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكروا على المسلمين حكماً جائراً وركبواهم بالأذى العظيم ، فلما رأوا ذلك وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام ... يستدعونه لملكها وأهلوه خلوها من المواقع وهوتوا أمرها عليه » .

راجع أيضاً ابن خلدون . العبر ج ٥ ص ٢٤٧ .

(٢) Stevenson p. 193 .

(٣) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ١٥٠ .

(٤) يقال إنه كان في الجيش الصليبي جماعة من المصريين من أعداء شاور وأنهم

شايهوه على قصدها . راجع الروضتين ج ١ ص ١٥٤ .

(٥) يقول ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٧٠) أن عموري وعد بدران بأن يقطعه ثلاث عشرة قرية إن هو أدخل على شاور الحيلة وضلله عن فهم الغرض الحقيقي من الحملة .

إذ يقال أن ذلك الرسول كانت تربطه بعمورى صلوات صداقة قديمة ، فأدلى بها إلى شاور الذى أخذ فى تجنيد الأجناد ، وحشد العساكر والاستعداد للقاء العدو .

ثم تقدم الصليبيون حتى بلبس فى نوفمبر سنة ١١٦٨ ( صفر ٥٦٤ هـ ) وهى المدينة المصرية المنكوبة والتي لاقت أشد النكبات خلال الحملات المتعاقبة الثلاث ، وكان فى معيبتهم بعض المصريين الفسارين من وجه شاور ، مثل علم الملك بن النحاس ، وابن الخياط يحيى ، وابن قرجلة وغيرهم (١) .

وتصدى للصليبيين عند بلبس طلى بن شاور ، ولكنهم غابوه عليها وفتحوها عنوة وبجهد السيف ، وارتكب الصليبيون فى بلبس كثيراً من الفظائع ، فقتلوا أهلها ، وخرّبوا دورها ، وأسروا من سلم من القتل منها ، وبقي بعض أولئك الأسرى فى أسر الصليبيين مدة طويلة (٢) .

ويصور ولیم الصورى نفسه مناظر مروعة لنكبة بلبس فيقول :  
« إن الصليبيين خرجوا وسلاحهم فى أيديهم ، وأخذوا يقتلون كل من وجدوه من الرجال والنساء والشيوخ والشبان ، ثم لأنهم اقتحموا البيوت فأجهزوا على من احتسى فيها ، وسلبوا كل ما عثرت به أيديهم من المتاع والأثاث (٣) .

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥٠ .

(٢) بقى بعض أولئك الأسرى فى أسر الصليبيين حتى رد إليهم حريمهم

سلاح الدين فيما بعد إذ أوقف خراج تلك المدينة على تلك أسراها .

راجع ابن أبي طى (الروضتين ص ١٧٠) .

(٣) Yuillatme de Tyre p. 950 ، راجع أيضا ابن الأثير ج ١١

ص ١٥٠ .

وقد أخطأ الصليبيون في معاملتهم بليس تلك المعاملة القاسية ، إذ باتت تلك المعاملة مثلاً عملياً أمام المصريين ، وصورة بشعة لما سوف يلقونه على أيديهم لو تم لهم الفتح ، فرحبوا بعد ذلك بشركوه وبجيشه ووزرائه ، ثم استماتوا في الدفاع عن القاهرة حتى لا يحيق بهم ما حاق بأهل بليس (١) ، وكان لذلك العمل أيضاً نتيجة إيجابية من جانب القصر إذ أرسل العاضد يستجير بنور الدين ، وقد لطن كتبه بالمداد — كما تقول المراجع (٢) — وأرفق بها شعور نساء القصر علامة على ما هو فيه من ضنك وضيق ، والشئ الهام هنا هو أن العاضد قبل أن يتنازل لنور الدين عن ثلث خراج مصر على أن يقيم شركوه فيها ، وأن يكون للجيش النوري أقطاعات وافرة خارجة عن ذلك الثلث (٣) .

ويقال أن استنجد العاضد بنور الدين كان على غير رغبة شاور ، وأنه كان يريد أن يصابر الصليبيين حتى ينتهي معهم إلى حل (٤) ، وليس هذا ببعيد على عقلية رجل مثل شاور استمر على اعتقاده بأنه يلعب بعقل كل من نور الدين وعمورى والعاضد ، وربما كان شاور يؤمل أن تنتهي تلك الحملة الصليبية إلى ما انتهت إليه سابقاتها ، من الرضا بمبلغ من المال والرحيل عن البلاد ، ويقال من — جهة أخرى

---

(١) يقول ابن الأثير في هذا الصدد أن أهل القاهرة خشوا أن يفعل الصليبيون بهم كما فعلوا بأهل بليس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه .

راجع السكامل ج ١١ ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٢) ابن الأثير ، السكامل ج ١١ ص ١٥١ ، الروضتين ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) السيوطي ، حعن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥١ .

(٤) ابن أبي طي ، الروضتين ج ١ ص ١٧٠ .

أن شاور — لما أدرك نوايا الصليبيين على حقيقتها ، قابل الخليفة  
وبكى بين يديه ، وطلب منه أن يكتب إلى نور الدين (١) ؛ وعلى كل  
حال فالنتيجة في كلتا الحالتين واحدة ، وهي استنجاد مصر بنور الدين  
— وبالتالي بشيركوه — لإنقاذها عما حاق بها من أخطار من ناحية  
الصليبيين .

على أن كتب المصريين بطلب النجدة لم تصل إلى نور الدين وحده  
ولمّا وصلت أيضاً إلى شيركوه وهو بمصر (٢) ، وهذا يؤيد ما سبق  
قوله من أن شيركوه قد أصبح له في مصر مؤيدون وأنصار . ولقد  
خشى نور الدين ما يمكن أن يصيب الجبهة الإسلامية من تصدع إن  
وقعت مصر في أيدي الصليبيين . فأسرع بالكتابة إلى شيركوه  
يستدعية من حصص (٣) ليقود الحملة الثورية الثالثة إلى مصر ، وفي  
نفس الوقت أرسل نور الدين الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر (٤)  
برسالتين إحداهما ظاهرة إلى شاور ، وتفيد بأن العساكر الثورية قادمة  
والأخرى سرية إلى العاضد ، استخطفه فيها على أشياء خاصة لا يستطيع

---

(١) يقول ابن أبي طي (نفس المرجع) إن شمس الخلافة هو الذي أوحى إلى  
العاضد بأن يكتب إلى نور الدين لأنه رأى أن شاور يريد أن يماطل الفرنج  
ولذلك أحضر السكامل بن شاور ونصحه بأن يلجأ إلى العاضد وأن يطلب  
منه مكاتبة نور الدين بطلب النجدة .

(٢) ابن الأثير ، السكامل ج ١١ ص ١٥١ .

(٣) اتقى رسول نور الدين وهو خارج من حلب شيركوه قادماً من حصص «لأن»  
كتب المصريين وصلت إليه هناك » ، (نفس المرجع) .

(٤) ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٧٠) .

الباحث أن يعرفها بالضبط لأنها لم ترد في النصوص التاريخية ،  
— وأمره أن يكتبها عن شاور — وأغلب الظن أنها خاصة بنهاية ذلك  
الوزير (١) .

وهكذا اضطرت الظرزوف نور الدين إلى استدعاء شيركوه لأنه  
القائد الوحيد من بين قواده الذي درس مصر دراسة عملية ، ولكنه  
حرص فيما يبدو — على ألا يرسله وحده — نتيجة لتلك الشكوك التي  
أثارها شاور في نفسه من ناحية طمعه في مصر ، ولذلك أرسل معه  
جماعة من كبار قواده ليكونوا في الظاهر عوناً له في القتال ،  
وليسكونوا في نفس الوقت - وكما يرجح - عيوناً له على حركات شيركوه  
- كما سيبدو فيما يلي - وأولئك القواد هم : عز الدين جرديك ، وشرف  
الدين برغش ، وعين الدولة الياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان  
المنبجى ، وهذا عدا عيسى الهكاري الذي أرسله من قبل (٢) . وقد  
رافق صلاح الدين يوسف بن أيوب (٣) عمه في تلك الحملة أيضا .

وهكذا خدم الصليبيون شيركوه من حيث لا يعلمون من جراء  
حملتهم الثالثة على مصر ، إذ عاد إلى تلك البلاد بناء على دعوة من خليفتها  
وأهلها وبموافقة مخدمه نور الدين ، فكان ذلك كله من أهم عوامل  
نجاحه في الحملة الثالثة واستقراره في مصر بعد ذلك .

---

(١) نفس المرجع ص ١٧١ .

(٢) انظر ما سبق ص ٨١ .

(٣) راجع ابن الأثير ج ١١ ص ١٥١ — ١٥٢ .

أما الصليبيون فانهم تقدموا من بلبس إلى القاهرة ، فزلوا بالقرب من باب البرقية ، ولكي يمنع شاور تقدمهم أمر بإحراق الفسطاط والمراكب الراسية في النيل ، بعد أن أمر سكانها بالهجرة ، وقاسى أهل الفسطاط أثناء تلك الهجرة كثير أمن المصاعب والآلام ففقدوا متاعهم وهلك كثيرون منهم (١) . وقد ظلت النار مشتعلة في تلك المدينة الكبيرة أربعة وخمسين يوماً كما يقال (٢) .

واتتهز شاور فرصة ذلك الحريق ، وأخذ يفاوض عمورى في أمر الجلاء نظير مبلغ من المال ، وأنفذ إليه من أجل ذلك خمس الخلافة (٣) ، ولكن تلك المفاوضات لم تنته إلى شيء لسبب واضح ، وهو أن عمورى إنما جاء تلك المرة للفتح والاستقرار لا لغرض آخر سواه ، وعندئذ لجأ شاور إلى سياسة المخادعة والمخاتلة (٤) حتى يحضر الجيش النورى ، وظل خمس الخلافة رسولا بين الفريقين حتى حضر شيركوه بجيشه من الشام ، ولم يستطع الصليبيون - خلال تلك المدة - أن يدخلوا القاهرة لسبب واضح أيضاً هو حسن بلاء المصريين في الدفاع عنها متأثرين بما أصاب بلبس من نكبات وويلات (٥) ، ومن بين تلك الرسائل التى تبودلت بين الملك الصليبي والوزير المصرى الرسالة الآتية ، وهى من شاور : « إن هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥١ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٧١ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) انظر ما سبق ص ١٣١ .

تسليمه البتة ، ولا أخذه إلا بعد أن يقلل من الفريقين عالم عظيم .  
وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة والرأى أن تحقن دماء أصحابك ودماء  
أصحابى ، وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عقوا ، (١) .

وبمثل هذه الرسالة وتلك الوعود ظل شاوور يخدع عمورى - بعد  
أن يأس من الاتفاق معه - كسباً للوقت حتى تحضر النجدة التورية من  
الشام ، والظاهر أن عمورى علم بما دار بين العاضد ونور الدين ، وبأن  
الجيش التورية لا بد قادمة ، فبدأ يتساهل فى شروطه - ولكن بعد  
فوات الأوان ، ولم يشأ شاوور أن يقطع صلته نهائياً بعمورى مع علمه  
بقرب مقدم الحملة التورية ، فأرسل إليه شمس الخلافة أيضاً يخبره  
بأنه سيظل باقياً على الهدنة ، وبأنه سيرضى شيركوه عند حضوره بشئ  
من المال ، ويحمل إليه الباقي .

وفى أثناء تلك الحوادث كان على الأسطول الصليبي أن يؤيد  
الهجوم البرى ، ووصلت السفن الصليبية فعلاً إلى أشمون طنّاح ،  
واستول الصليبيون على تانيس ونهبوها - كما يقول وليم الصورى (٢) -  
ولكنهم لم يستطيعوا أن يتقدموا إلى أكثر من ذلك ، لأن الطريق  
الذى سلكوه ليس طريقاً طبيعياً لغزو مصر - كما تشهد بذلك حوادث  
التاريخ السابقة واللاحقة - إذ قاوم الفلاحون المصريون الأسطول  
الصليبي مقاومة عنيفة كان لها أثرها الواضح ، فقطعوا سدود النيل ،

(١) الروستين ص ١٧١ .

(٢) Schumberger P. 208 .



وأوقفوا مراكبهم الخاصة في وجه الأسطول الصليبي ، فلما سمع عموري بذلك أرسل فرقة من جيشه (١) لتسهل طريق العبور للأسطول ، ولكنه علم بمجيء شيركوه فأصدر أوامره إليه بالرجوع بعد أن فقد إحدى مراكبه الحربية (٢) . أما هو فقد رحل عن مصر في يناير سنة ١١٦٩ (ربيع الأول ٥٦٤ هـ) بعد أن رأى الأقبيل له بمجيش شيركوه ، وبخاصة وهو مؤيد من جميع الطبقات المصرية .

وفي نفس ذلك التاريخ وصل شيركوه إلى القاهرة ، فدخلها دخول الظافر المنتصر ، واستقبله الناس بالترحاب ووصلت إليه الخلع الكثيرة من العاضد ومن شاور (٣) أيضاً ، وسمع نور الدين بتلك الأخبار فسُرَّ لها وأمر بإذاعتها في الآفاق لأنه اعتبر ذلك - على حد قول ابن الأثير (٤) فتحاً لمصر وحفظاً للشام ، وهنا يقول ابن أبي طلي إن العاضد خرج بنفسه ليلاً إلى شيركوه متنكراً ، واجتمع به في خيمته ، وأفضى إليه بأمور كثيرة منها قتل شاور (٥) .

وبعد رحيل الفرنج ودخول شاور القاهرة ، بدأ الجو يصفو في مصر ، وأخذ المهاجرون المصريون يعودون إلى ديارهم ، ويصلحون ما أفسده شاور عليهم بسياسته العقيمة ، وتنافسوا في خدمة شيركوه ، والترحيب به ، وبدأ شاور هو الآخر يتودد إليه ، ويوطد مركزه

---

(١) Ibid P. 210

(٢) Schlunmbegor P. 210

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥٢ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) الروضتين ج ١ ص ١٧١ .

عنده حتى تسنح الفرصة للانقضاض عليه ، أما أفراد الجيش النورى فقد تمنوا أن يقيموا بمصر ويتمتعوا بجوها وخيراتها (١) .

ومن ثم أخذ شيركوه يدبر الحيلة للقضاء على شاور ، وجمع أصحابه لذلك الغرض وشاورهم فى الأمر ، وقد دون ابن أبى طى مادار فى ذلك الاجتماع التاريخى الهام فذكر نص خطاب شيركوه وفيه يقول لأصحابه « قد علمتم رغبتى فى هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها ، لا سنيا وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندى ، وعلمت أنهم كشفوا عورتها وعلوا مسالك رقعها ، وتيقنت أنى متى خرجت منها عادوا إليها واحتوا عليها ، وهى معظم دار الإسلام ، وحلوبة بيت مالهم ، وقد قوى عندى أن أئب عليها قبل وثوبهم ، وأملكها قبل مملكتهم ، وأخلص من شاور الذى يلعب بنا وبهم ، ويغرنا ويغرهم ، ويضرب بيننا وبينهم . وقد ضيَّع أموال هذه البلاد فى غير وجهها ، وقوى بها الفرنج علينا وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبهم إلى هذه البلاد التى قد قل رجالها وهلكت أبطالها ، (٢) .

ويستطيع الباحث أن يعتبر ذلك الخطاب منهجاً لسياسة شاور فى مصر وبرهاناً على جميع ما تقدم من إشارات بصدد نوايا الأيوبيين ، إذ يبدأ شيركوه أولاً بتذكير السامعين برغبته القديمة فى ملك مصر وخوفه من الصليبيين عليها ، ثم يذكر مميزات تلك البلاد ، ويعلن أنه إنما جاء تلك المرة للوثوب عليها قبل الفرنج ، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقتل شاور الذى يقف حجر عثرة فى تحقيق رغبته ، ثم يعلن أخيراً

(١) الروضتين ج ١ ص ١٧١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٢ .

أنها بلاد قل رجالها وهلكت أبطالها ، أى أصبح من السهل فتحها والاستيلاء عليها .

وقد مهد شاور للجيش النورى بسياسته المتلوية سبيل الإسراع بتنفيذ ما عزموا عليه ، إذ راح يماطل شيركوه فى تقرير ما يلزمه من مال وأقطاع (١) ، بل إنه فكر فى أن يقيم له ولمن معه من الأمراء ولية ثم يقبض عليهم أثناء الاجتماع (٢) على الطريقة المتبعة فى ذلك العهد .

ومما يجدر ذكره فى هذه المناسبة أن شجاعاً بن شاور بدأ يميل إلى شيركوه ويرتفع عن الأفق الضيق الذى يعيش فيه والده ، ويعارض سياسته التقليدية الهدامة التى تقوم على دعوة الصليبيين والاستعانة بهم ضد شيركوه ، ولشجاع فى هذا الصدد قول مشهور وهو « لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ، ويمسكون البلاد » (٣) .

وتنفيذاً لسياسة شيركوه استقر عزم فريق من الجيش النورى (٤) - وعلى رأسهم صلاح الدين - فى القضاء على شاور ، ومضوا فى تنفيذ عزمهم ذات يوم . فقد خرج شاور لزيارة شيركوه عند الإمام الشافعى فلقبه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما بعض الأمراء ، فساروا

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٠ .

(٢) نفس المصدر . راجع أيضاً الروضتين ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥١ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٠ .

معه قليلاً ثم غافلوه وأزلوه عن فرسه وقبضوا عليه وأودعوه في خيمة إلى أن يصدر إذن الخليفة في أمره ، ويبدو أن الخطة كانت مدبرة ، إذ لم يمض وقت طويل حتى جاء إذن العاضد مهوراً بتوقيعه يطلب رأس شاور (١) ، فقتل في ١٨ يناير سنة ١١٦٩ (١٧ ربيع الأول سنة ٥٦٤) وانتهت بمقتله صفحة وزير فاطمي أعمامه حب المنصب عن كل معنى آخر سواه .

والواقع أن التخلص من شاور كان أمراً لا بد منه بالنسبة لشيركوه وفي هذا المعنى يقول ابن خلصان : « وتحقق أسد الدين (شيركوه) أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، وأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه » (٢) .

وبعد مقتل شاور مباشرة خلع العاضد على شيركوه وقلده الوزارة وبدأ سرور شيركوه بتلك النتيجة عظيماً بدليل ما يقوله ابن أبي طي من أنه لما خرج منشور الوزارة إليه أمر بقراءته على رموس الأشهاد ، وفرح به غاية الفرح ، وأعيدت قراءته عليه عدة مرات (٣) . ولا غرابة في ذلك فإنه إنما وصل إلى الغاية البعيدة التي ظلت الأسرة الأيوبية تنتظرها وتسعى إليها منذ أمد طويل .

على أن وصول شيركوه إلى منصب الوزارة في مصر أمراً لا يزال يحتاج إلى تفسير وإيضاح ، إذ ليس من الطبيعي أن يكون شيركوه

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٨٠ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٢ .

(٢) ابن خلصان ج ٢ ص ٣٨٠ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٢ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٧٢ .

وزيراً للعاقد الفاطمي الشيعي وقائداً أعلى لجيوش نور الدين محمود السني في وقت واحد . قد يقال أن العاقد وعد نور الدين عندما استنجد به ضد الصليبيين في الحملة الثالثة بأنه يقبل أن يقيم شيركوه في مصر (١) . ولكن هذا ليس معناه - بالضرورة - أن يكون وزيراً له ، والتعليل المقبول لذلك أن شيركوه وصل إلى الوزارة بإرادته ووفقاً لصالحه وصالح أسرته ، لا برغبة العاقد ولا باختياره ، وأن العاقد الذي لم يكن له في أمر اختيار وزرائه شيء - قد قبل ذلك - أو فهمه فهماً ضمناً اضطراباً وتمشياً مع التقاليد الفاطمية التي سادت في عهدها الأخير وهي أن يكون القائد المنتصر وزيراً ، كما فعل شاور وضرغام وغيرهما . ويرجح ذلك أن نور الدين نفسه لم يرحب باختيار شيركوه وزيراً للعاقد - كما يقول ابن أبي طي وابن الفرات (٢) ، بل على العكس كره أن يصل قائده إلى ذلك المنصب ، وبذت مظاهر القلق على قسيات وجهه يوم أن سمع بذلك النبأ ، فحاول أن يعيد شيركوه إلى الشام ، وكاتب العاقد في ذلك أكثر من مرة (٣) . ولعل في هذا ما يدل دلالة واضحة

---

(١) انظر ما سبق ص ٨١ .

(٢) راجع الروضتين ج ١ ص ١٧٢ ، ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك

ج ٧ ص ٢٥ .

(٣) ذكر ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٧٢) نس كتاب من تلك

الكتب وفيه يقول نور الدين للعاقد « ولقد افترق العبد إلى بئته (أي

بئته شيركوه) واعوز مسكره بمن نقيته واشتد حرب الضلال على المسلمين

لنبيته لأنه ما يزال يرى شياطين الضلال ينهبها بالناقب ويهجم بمقل الشرك

بهمة النافذ الصائب » .

على أن نور الدين بدأ يدرك نوايا الأسرة الأيوبية وأغراضها ، وأنها إنما تحمل وفقاً لمصالحها وأغراضها الخاصة .

ومهما يكن من شيء فإن شيركوه قد أخذ ينظم شؤون البلاد تنظيمًا جديدًا بعد أن خلت له من كل منازع ومعارض (١) ، فاستعمل على الوظائف الهامة من يثق فيهم من رجاله وأخذ ينفذ سياسته الواضحة الهدف ، لولا أن أدركته المنية وشيكا ، وقبل أن يمضى عليه في منصبه الجديد أكثر من شهرين وخمسة أيام إذ توفي في الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ (٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ) ، وكان قرماً يجب أكل اللحوم ويواظب عليه ، فتواترت عليه العلل والأمراض فكان في ذلك هلاكه - كما يقول المؤرخون (٢) ، وهكذا غربت شمس ذلك البطل الأيوبي ، بعد أن مهد السبيل ببسالته وشجاعته لقيام الدولة الأيوبية في مصر (٣) .

هكذا ينتهي فتح مصر باسم نور الدين ويتم ذلك الفتح على يد

---

== راجع في ذلك أيضا ابن القرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٥ وقد أورد نصا لكتاب آخر أرسله نور الدين إلى العاضد يرمي إلى عودة شيركوه إلى الشام .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٢ .  
(٢) الروضتين ج ١ ص ١٧٣ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٣ ، ابن شداد ص ٣٢ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٠ .

(٣) لا يستطيع الباحث أن يذكر ما أداء شيركوه من خدمات للأسرة الأيوبية ، ويكفي أنه هو صاحب الفضل الأول في فتح مصر وفي ذلك يقول ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٧٣) وهو (شيركوه) مشيداً فواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية .

شيركوه ، ولعله قد وضع أن المتنازعين عليها كانوا كثيرين ، بل إن النزاع عليها قام بين أشخاص المعسكر الواحد ، ففي الجانب المصرى قام النزاع بين شاور وضرغام ، وترتب على ذلك تدخل نور الدين والصلبيين فى شئون مصر ، وفى نفس الوقت اضطر العاضد الفاطمى أن يمضى مع كل منهما مُضَيِّباً الضعيف مع القوى ، ويوافقه على ما يفعل موافقة السكاره المغلوب على أمره .

فاذا انتقل الباحث إلى الجانب النورى أدرك أن شيركوه أصبح يحرص على فتح مصر لتكون للأسرة الأيوبية لا لنور الدين ، أما نور الدين فلا يلاحظ عن ذلك شيئاً فى أول الامر ، حتى إذا تقدمت الأيام برزت أمام عيونه الوقائع الدالة على طمع الأيوبيين فى مصر ، فيضطر أن يرسل مع شيركوه بعض كبار قواده فى الحملة الثالثة ، فاذا ما قتل شاور ووزر شيركوه للعاضد بعده ووضح للعيان أن الأسرة الأيوبية قد بدأت تستقر فى مصر ، ولا حاجة إلى تكرار ما أورده ابن أبى طى بصدد قلق نور الدين وتشككه فى شيركوه بعد أن صار وزيراً فاطمياً ، وقد استمر ذلك الشك ينمو فى قلب نور الدين بعد وفاة شيركوه حتى انتهى إلى ما يسميه المؤرخون بالوحشة بين نور الدين وصلاح الدين .

والخلاصة أن النزاع على مصر لم يكن بين شخصين اثنين أو معسكرين اثنين ، وإنما كان نزاعاً بين عدد من الأشخاص ، وكانت نتيجة النهائية فى جانب الأيوبيين ، على أن هناك نقطة أخرى يجب ألا ينتهى ذلك الفصل دون بحثها ، وهى الأسباب التى ساعدت شيركوه على فتح مصر ،

إذ الواضح أن القوة العسكرية لم تكن وحدها العامل الأساسي في نجاحه في فتحها .

ولعل أول تلك الأسباب هو سياسة الظلم والجور التي أصبحت تقليداً يتوارثه الوزراء الفاطميون المتأخرون وبخاصة شاوور وضرغام ، وما كان يلاقه المصريون على أيديهم من ضروب العنت والاضطهاد ، ذلك لأن الإنسان - ككائن حي - في حاجة إلى الشعور بالأمن والطمأنينة - كما يقرر علم النفس - وهذه ناحية حرم منها المصريون في العهد الفاطمي الأخير ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما حل بمدينة بلبليس من النكبات خلال الحملات الثلاث الماضية ، ومنها حريق القسطنطينية الذي دام أربعة وخمسين يوماً حتى رحل أهلها منها في صورة مروعة ، وهذا عدا مطالب الوزراء المالية التي أرهقت بها الشعب ، فكانت النتيجة أن رحب الشعب بالخلاص من ذلك الظلم ، وتاق إلى حياة الدعة والهدوء والاستقرار الكامنة في طبيعة المصريين ، ولذلك استقبل المصريون شيركوه استقبال المنتقد المنتظر .

وترتب على ذلك أن أصبح لشيركوه مؤيدون وأنصار في مصر - وتلك قوة لا يستهان بها - فأيده أولئك الأنصار تأييداً تاماً في حصار الإسكندرية ، ولولا ذلك لما استطاع شيركوه أن يدخل تلك المدينة أو أن يقاوم شاوور والصليبيين ، ثم إن أولئك الأنصار هم الذين أمدوا شيركوه بالمال والسلاح في معركة البابين ، وهم الذين كتبوا إليه وهم في حمص يطلبون حضوره ، فكانوا عاملاً هاماً من عوامل نجاحه .



وهناك سبب آخر جاء في الواقع من ناحية الصليبيين أنفسهم وهو الخطأ الشنيع الذين ارتكبوه في بليس ، فإن المعاملة السيئة التي عاملوا بها أهل تلك المدينة قد حفزت المصريين إلى ضرورة الدفاع عن أنفسهم حتى لا يحمق بهم ما حاق بسكانها ، ولذلك فشل الصليبيون أمام أسوار القاهرة .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإن تلك المعاملة أدت إلى أن يستنجد العاضد وشاور بنور الدين ، فأنفذ شيركوه إليهم ، أي أن شيركوه جاء تلك المرة بناء على رغبة المصريين أنفسهم بما فيهم الخليفة ووزيره ، بخلاف الحملتين السابقتين الذي جاء فيهما معادياً ، ولذلك استقبلوه استقبالا حافلا ، وكانت براعة ذلك الاستقبال الفصل الختامى فى نجاح الحملات النورية فى فتح مصر .

على أنه يجب أن يلاحظ أن المصريين كانوا يفضلون شيركوه على الصليبيين ويظاهرونه عليهم ، إذا كان ولا بد من المفاضلة بين الفريقين ، وهذا واضح من مقاومة الفلاحين المصريين للأسطول الصليبي فى أشمون طنجا وتأييس ، واضطراهم إياه إلى العودة فاشلا .

ويضاف إلى ذلك كله ضعف الجيش المصرى ، وشيوع الرشوة بين رجاله ، وفناء الكثيرين من القواد والأمراء فى الحوادث الأخيرة على يد شاور مرة وعلى يد ضرغام أخرى ، فكانت النتيجة أن عجز الجيش المصرى عن الدفاع من مصر ، وأوقعوها فريسة سهلة يتنازع عليها الصليبيون ونور الدين .

والخلاصة التي يستطيع أن يصل إليها الباحث في هذا الفصل كله أن الأسرة الأيوبية رغبت في ملك مصر منذ فرار شاور واستنجاهه بنور الدين ، وأن تلك الرغبة بدأت تظهر شيئاً فشيئاً حتى عرفها شاور وأدركها كذلك نور الدين ، ولكن بعد أن أصبح شيركوه أكثر قواده خبرة بشئون مصر ، ولذلك اضطر أن يرسل معه بعض كبار قواده في الحملة الثالثة ، ليحولوا بين شيركوه وبين تنفيذ رغبته ، وسيبدو ذلك بصورة أوضح في الفصل التالي .

---

# الفصل السابع

## صلاح الدين يوسف بن أيوب

وزارته للعاضد الفاطمي ، ونيابته عن نور الدين محمود

٥١٥٥١٥٥١٥٥١٥

الزراع على الوزارة بعد شريكه - اختيار صلاح الدين للوزارة -  
أسباب اختياره - ملاحظات على وزارته - دقة موقف صلاح الدين -  
سياسته - مؤامرة مؤتمن الخلافة نجاح - معركة السودانين - إغارة  
الصليبيين على دمياط - تأمين الحدود المصرية - التصديق على العاضد  
وصول بني أيوب إلى مصر .

رغبة نور الدين وصلاح الدين في قطع خطبة العاضد - تمهيد  
صلاح الدين لقطمها - غزو صلاح الدين لحصن السكرك - خوفه من  
مقابلة نور الدين - رجوعه إلى مضر - المجلس الأيوبي - فتح  
الأيوبيين لبلاد النوبة - أسباب فتحها - غزوة الشوبك - عودة  
صلاح الدين - غضب نور الدين على صلاح الدين - وفاة نجم الدين  
أيوب - فتح اليمن - أسبابه .

نشاط أنصار الدولة الفاطمية - حركتهم السرية - مدى نشاطها -  
مؤامرة عمارة البيني - القبض على المتآمرين - القضاء عليهم - وفاة  
نور الدين محمود .

عندما توفي أسد الدين شيركوه في الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ (٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤) لم يكن ابن أخيه صلاح الدين في ذلك الوقت يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره (١) ، فثار النزاع حول من يتولى منصب الوزارة ليملاً مكان شيركوه ، وبدأ ذلك النزاع ظاهراً حيناً ومستتراً أحياناً بين ثلاث قوى متباينة ، وهي العاضد ورجال قصره من جهة ، وكبار القواد الذين أرسلهم نور الدين في بداية الحملة الثالثة ليكونوا عوناً لشيركوه في الظاهر وعيوناً وأرصاداً عليه في حقيقة الأمر من جهة ثانية ، ثم الأسرة الأيوبية من جهة ثالثة .

أما العاضد فقد ذهبت الحوادث الأخيرة بصفوة رجاله وقواده (٢) فلم يبق إلى جانبه من رجاله البارزين سوى كبير الحصيان السود ، وثمن الخلافة نجاح ، ولذلك لم يتطلع إلى ذلك المنصب مصرى واحد منذ مقتل شاور . وهضت أيام وزارة شيركوه التي دامت شهرين وخمسة أيام دون أن تبدو من المصريين بادرة من الثورة أو العصيان ، ولعل جمهور المصريين الذين كانوا يتوقون إلى الأمن والطمأنينة بعد ما أصابهم من ألوان القلق والاضطراب رأوا في حكم شيركوه الحازم ما حقق

---

(١) ولد صلاح الدين كما هو معروف بتسكيريت سنة ٥٣٢ هـ . راجع ما سبق ص ٤٥ .

(٢) في الواقع أن مصر لم تنكب في ذلك الوقت في رجالها حسب بل نكبت أيضا في مالها وتقسية أهلها ، وفي ذلك يقول عمارة البني (النكت ج ١ ص ٨٨) « لم يرب أحد رجال الدولة ( المصرية ) مثلنا رباهم الصالح ( بطلائح ابن رزيك ) ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور » .

لهم تلك الرغبة النفسية الأساسية ، مما جنح بهم إلى السكينة والهدوء ، ولهذا كله لم يقيم أحد من المصريين مطالباً بالوزارة بعد شيركوه ، وإن ظلت تلك الرغبة كامنة في نفوس رجال القصر وحزب العاضد بصفة عامة حتى ظهرت فيما بعد على شكل مؤامرة ثم ثورة قام بها مؤتمن الخلافة نجاح وأنصار الخليفة العاضد من الجنود السودانيين .

أما كبار القواد النوريين فلم يكن نور الدين موفقاً توفيقاً تاماً في اختيارهم كأداة معارضة لبني أيوب في مصر ، ذلك لأن الكثيرين منهم مالوا في النهاية إلى جانب بني أيوب إما بدافع الصداقة كالفقيه الهكاري (١) الذي أخذ على عاتقه تمهيد الأمور لصالح الدين ، والذي ظل يخدمه طوال حياته خدمات جليلة الأثر ، وإما بدافع القربى كالحارمي صهر أيوب وخال صلاح الدين (٢) ، وإما بدافع الجنس الكردى المشترك كالنبيجي وابن المشطوب (٣) ، والنتيجة أنه لم يبق من أولئك القواد النوريين من ظل مخلصاً إخلاصاً تاماً لنور الدين سوى القائد

---

(١) يناسب عيسى الهكاري إلى الحشن بن علي بن أبي طالب — رضى الله عنهم — ومبدأ أمره أنه كان يمتثل بالفقه بالمدرسة الرجائية بعديته حلب وقت إقامة شيركوه بها . ومن هنا اتصل الهكاري بشيركوه حتى أصبح أمامه الذي يصلح به الفرائض الخمس . وفي بداية الحملة الثورية الثالثة على مصر سار الهكاري إليها بكتاب خاص من نور الدين إلى العاضد ، ولما توفى شيركوه عمل الهكاري على أن يلبه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين . ولعل هذا يفسر العلاقة الوثيقة بين الهكاري وبين أيوب . راجع في ذلك ابن خلكان الوفيات ج ١ ص ٣٩٧ .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ١٥٤ ، المقرئى السلوك ج ١ ص ٤٩ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٥٤ .

عين الدولة الياروقى حتى أنه لم يستطع البقاء في مصر في ظل وزارة صلاح الدين ، ففقل راجعاً إلى الشام ، كما سيلي .

وأما الأسرة الأيوبية فقد أصبح صلاح الدين الممثل البارز لها في مصر بعد وفاة عمه شيركوه ، فبدت كفته في الواقع أرجح الكفات المتنازعة على الوزارة لعدة عوامل منها صلة القرابة التي تربط بينه وبين الوزير الراحل شيركوه ، وبخاصة وقد شهدت مصر في العهد الفاطمي المتأخر - أ كثر من مرة - الإبن وزيراً بعد أبيه ، وكان منصبه بعض ما يورثه له ، فقد جاء بعد بدر الجمالي ابنه الأفضل ثم حفيده أحمد ، وجاء بعد طلائع بن رزيك ابنه العادل رزيك ، ومن بين تلك العوامل أن صلاح الدين قام بدور كبير - لا يقل عن دور عمه شيركوه - في فتح مصر ، وأفاد خلال ذلك من التجارب العملية ما أهله للقيام بأعباء منصب الوزارة ، ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من أصدقاء الأسرة الأيوبية كعيسى المهكاري - الذى سبق ذكره - عملوا جاهدين لتكون الوزارة لصلاح الدين من بعد عمه ، ومن بين تلك العوامل أيضاً عامل هام رجح كفة صلاح الدين وهو أن شيركوه ترك ضمن ما ترك - خمسمائة مملوك هم الأسدية (١) ، وعلى رأسهم بهاء الدين قراقوس ، فلسمات سيدهم انحازوا - كما هو المنتظر - إلى جانب صلاح الدين ، ورغبوا في أن تكون الوزارة له ، وتلك قوة كان لها ولاشك أثرها البارز في إتمام ذلك الاختيار (٢) .

(١) راجع ابن أبي طي . الروضتين ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) يمكن أن يقال بناء على ذلك أن تدخل المماليك في شئون الدولة الأيوبية - ذلك التدخل الذى انتهى آخر الأمر بسقوطها - والذى صبغ دولة المماليك فيما بعد بتلك الصبغة التي غابت عليها - يمكن أن يقال إن ذلك التدخل ، قد قام جنباً إلى جنب - مع قيام الدولة الأيوبية نفسها -

وكيفها كان الأمر فإن صلاح الدين انصرف عقب وفاة عمه مباشرة إلى عمل ما يقتضيه حادث الوفاة من واجبات ، فشيح جنازته وأقام له العزاء ثلاثة أيام (١) ، وظل منصب الوزارة شاغراً خلال تلك الأيام الثلاثة حتى يقع الاختيار على الوزير الجديد ، ذلك أنه لم يلبث أن دب النزاع والتنافس بين القواد النوريين على ذلك المنصب ، نتيجة لمصالحهم المتباينة ، وكاد ذلك النزاع أن ينتهي إلى نتيجة خطيرة (٢) لولا أن تدخل في الأمر الفقيه عيسى الهكاري لصالح صلاح الدين ، إذ تكفل بإرضاء أولئك القواد ، وكانت خطته أن يستميل الأمراء الساخطين واحداً بعد الآخر مراعيّاً العوامل النفسية الدقيقة التي تحرك كل واحد منهم .

ولقد بدأ الهكاري بشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين فغضب له على وتر حساس هو صلة القرابة التي تربط بينه وبين صلاح الدين ، فهو ابن أخته ، وابن الأخت وما يملك ملك لخاله ، وليس من الجائز أن يكون الحال أول من يسعى إلى هدم ابن أخته ، وأنه إن عكف على معارضته خرج الأمر من يديهما معاً ، وبذلك المقالة استطاع الهكاري أن يستميل الحارمي إلى صلاح الدين وأن يضمن تأييده له ، ولم يتركه حتى عاهدته وحلف له .

ثم قصد الفقيه عيسى بعد ذلك إلى قطب الدين ينال بن حسان

---

(١) ابن أبي طي (الروضتين ص ١٧٣) ، راجع أقوال المهاد الأصفياني بنفسه

المرجع ص ١٦١ .

(٢) يقول ابن الأثير (ج ١١ ص ١٥٤) أن كل أمير جمع أصحابه لينال بهم

على الوزارة .

النجي ، ولم يعدم معه هو الآخر وسيلة نفسية يخفف بها من حدة معارضته وسخطه ، وهي أنهما كرديان ، وأن ليس من الحكمة أن يتعارضا ويتنازعا ، فيخرج الأمر من الأكراد إلى الأتراك ، وكذلك قام الفقيه عيسى بإقناع غير هذين الأميرين بطريقته الماهرة (١) .

وهكذا لبس المسكاري لكل حالة لبوسها متبعاً أدق قواعد الدهاء في إقناع المخاطب والاستحواز على شعوره ووجدانه ، غير أن واحداً من أولئك الأمراء النوريين لم تنفع فيه رقى الدبلوماسية ولم تنته المفاوضات والوعود عن معارضة صلاح الدين والسكيد له ، وهو عين الدولة الياروقى ، ولما وجد الياروقى أن الميدان في مصر قد ضاق بمعارضته رحل إلى الشام ، لينفث هناك دسائسه وسمومه في بلاط نور الدين ، فكان سبباً من أسباب ما حدث فيما بعد بين الرجلين .

وكانت نتيجة تلك المفاوضات التي جمعت كلمة النوريين على اختيار صلاح الدين للوزارة أن الخليفة العاضد استدعى صلاح الدين وخلع عليه خلع الوزارة ، ولقبه بالملك الناصر وهو اللقب الذي حمله شيركوه نفسه من قبل .

والمتواتر في كتب التاريخ عربية كانت أم أجنبية (٢) أن الذى حمل العاضد على اختيار صلاح الدين ما كان يظنه من ضعفه وهدونه ورغبته

---

(١) انظر تفصائيل تلك المفاوضات في ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٤ ،

الروستين ج ١ ص ١٧٣ ، ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٣٨١ .

(٢) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٢ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٤ ،

ابن خلدون الغير ج ٥ ص ٢٨٣ ، Schlumberger. p.p. 238 - 240



في العزلة والابتعاد عن الناس ، وما كان يرجوه من وراء ذلك الاختيار أيضاً في حدوث الانقسام من أمراء الجيش النورى واستغلاله لعله يؤدى إلى فرصة ليطردهم جميعاً من البلاد المصرية (١) .

على أن ذلك التعليل لا يستند على كثير من الحقيقة ، فإنه لم يحدث في تاريخ العاضد أن اختار وزيراً من وزرائه ، وإنما فرض أولئك الوزراء جميعاً سلطتهم عليه ، ولم يقف هو منهم سوى موقف السميع المطيع ، بل إنه اختير للخلافة بناء على رغبة وزير من الوزراء وهو طلائع بن رزيك (٢) ، فكيف انقب ذلك الخليفة الضعيف هكذا بين عشية وضحاها إلى رجل قادر يستطيع أن يختار وأن يبنى اختياره على أسباب ، وقد يقال أن رجال القصر هم الذين اختاروا صلاح الدين ، ولكن أولئك الرجال لم يكونوا شيئاً مذكورا بجانب أمراء الجيش النورى حتى يستطيعوا أن يفرضوا كلمتهم عليهم ، ولو كان أمر اختيار الوزراء بيد رجال القصر ، لما تم اختيار صلاح الدين أو غيره من الأمراء النوريين ، ولأصبح واحد من رجال العاضد وزيراً ، ثم إن السبب الذى قيل أن صلاح الدين اختير من أجله وهو ضعفه أو هدومه ليس من العوالب فى شيء ، فقد اشتهر صلاح الدين بالعزلة والاعتكاف عن الناس ، ولكن العزلة والهدوء ليس معناها الضعف ، ثم إن إثارة العزلة والاعتكاف كان وقت إقامته بالشام وقيل أن تلقى على عاتقه أعباء الأمر ، فلما أرادت له الأسرة أن يصحب عمه شيركوه إلى مصر فى الحملات النورية الثلاث ليكمل على يديه دروسه فى الحرب والحياة ،

---

(١) انظر إبراهيم الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٦ ، ابن الأثير ، الكامل ج ١١

ص ١٥٤ .

(٢) راجع الفصل الثالث .

ترك العزلة والاعتساف ، وبدأ يشاطر في الحوادث الجارية بنصيب مرموق (١) . ومن ثم بدأ صلاح الدين الساعد الأيمن لعمه في كل أعماله ، فساهم في حصار بليس أيام الحملة الأولى ، وبرز في معركة البابين في الحملة الثانية حتى استدرج الأعداء ليلقي بهم إلى الهزيمة والفرار وقام بالإسكندرية أيام حصار الصايبيين لها مدة الحملة الثالثة ، يبت من روحه المعنوية في المحاصرين ، حتى جاءته النجدة من عمه شيركوه ، ثم إن صلاح الدين كان زعيم القائلين بفكرة القضاء على شاور ، وهو الذي أخرج تلك الفكرة الصائبة إلى حيز التنفيذ (٢) ، بل إن ابن أبي طي ليذهب إلى عكس الرأي المتواتر تماماً (٣) ، فيقول إن العاضد مال إلى صلاح الدين لما كان يبدو عليه من الحزم والعقل وسداد الرأي ، وخصوصاً عند مقتل شاور .

وبناء على ذلك كله لم يكن صلاح الدين في يوم من الأيام وهو في مصر مظنة اللين والسهولة ، ولم تكن مظنة اللين والسهولة أو غيرها من الأوصاف المتشابهة سبباً في اختياره للوزارة ، بل الراجح أن اختياره جاء نتيجة للعوامل السالفة وبفعل القواد النوريين أنفسهم بعد إجماعهم على اختياره عقب مفاوضات المسكرى ، واعتماداً على هذه الفروض لم يعد اختيار العاضد له أن يكون اختياراً إسمياً (٤) ، كما أنه يبدو أن الجانب المصرى لم يساهم في ذلك الاختيار بشيء ، وقد أدلى العماد الكاتب

---

(١) من رأى Stevenson أن مقدرة صلاح الدين الحربية ظهرت على الأقل

خلال الحملتين الثانية والثالثة . راجع ص ١٩٥ .

(٢) راجع ما سبق صفحات ٨٤ - ٨٦ .

(٣) ابن أبي طي ( الروضتين ١ ص ١٧٣ ) .

(٤) راجع Stevenson P. 126 .

الأصفهاني بقول قاطع في هذا الصدد ، حين ذكر أن قراد الجيش النورى بعد اتفاقهم على صلاح الدين اجتمعوا وقالوا : « هذا قائم قيام عمه ونحن بحكمه ، والزمو صاحب القصر بتوليته ، (١) ، وهذا لا يدع مجالاً للشك في أن العاضد لم يكن له شىء من الأمر في اختيار صلاح الدين للوزارة .

على أنه يجب من ناحية أخرى ، ألا يغرب عن البال أن المشكلة التي كانت تعترض الراغبين في الوزارة في مصر وقتذاك ، لم تكن مشكلة الوصول إلى ذلك المنصب ، إذ كان الطريق إليه معروفاً ، وهو طريق القوة والعنف ، وإنما كانت المشكلة الكبرى هي كيف يحتفظون به ويلائمون بين التيارات المختلفة في الدولة الفاطمية ، وعلى ذلك فقد ظن المعاصرون أن مصير صلاح الدين سوف لا يختلف عن مصير غيره من وزراء ذلك العهد الفاطمي المتأخر ، فتركوه يلقى مصيره الذي كانوا يظنونونه محتوماً ، ولكن الحوادث التي تلت أثبتت أنهم كانوا مخطئين .

هكذا أصبح صلاح الدين وزيراً في مصر بعد عمه شيركوه ، وعلى تلك الصورة انتهى المطاف بالأسرة الأيوبية ، بعد طول تنقلاتها

---

(١) نص كلام العباد هو « لما فرغ صلاح الدين بعد ثلاثة أيام من التزبة بأمر الدين اختلف آراء ( كبار القواد ) واختلطت أهواؤهم ، وكاد الشمل لا ينتظم والحلل لا يلتئم ، فاجتمع الأسراء النورية على كلمة واحدة وأيد مساعده ، رعدوا لصلاح الدين الرأى والراية ، وأخلصوا له الولاء والولاية ، وقالوا : هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه وألزموا صاحب القصر بتوليته ، ولعل هذا القول هو أوضح ما كتب عن توليته صلاح الدين للوزارة . راجع الروضتين ج ١ ص ١٦١ .

ومغامراتها - منذ غادرت موطنها الأصلي في دوين - حتى وصلت إلى منصب الوزارة في مصر الفاطمية المتداعية ، وهنا وقبل مغادرة هذه النقطة يستطيع الباحث أن يقدم عدة ملاحظات بصدد وزارة صلاح الدين ، وأول تلك الملاحظات أن نور الدين لم يسترح إلى اختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة - وهذا هو نفس شعوره عند ما سمع بنياً وزارة شيركوه للعاصم (١) ، بل إنه - كما يذهب ابن أبي طى - أعظم ذلك وأسكره ، وغضب لأن صلاح الدين لم يستشره في ذلك الموضوع وكتب إليه في هذا المعنى عدة رسائل غير أن صلاح الدين لم يلتفت إليها وإن لم يخرج عن طاعة نور الدين وأمره ، ويقول المؤرخ نفسه أن نور الدين كثيراً ما كان يقول : « ملك ابن أيوب ، (٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أبا شامة الذى يتهم ابن أبي طى بالتعامل على نور الدين (٣) يعلق على ذلك النص فيقول : « هذا كله مما تقتضيه الطبائع البشرية والجلبة الآدمية ، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصمه الله ، ومن أنصف عذر ومن عرف صبر ، (٤) ،

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤١ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٦١ .

(٣) يذهب أبو شامة إلى أن ابن أبي طى متعامل على نور الدين لأنه كان عدواً عنيفاً للشعبة بينما ابن أبي طى شيعى ، ولو كان الأمر كذلك لوجب أن يكون ابن أبي طى أكثر تحاملاً على صلاح الدين الذى هدم الدولة الشيعية الفاطمية ذاتها . على أن ابن أبي طى لم يذكر شيئاً يخالف المنطق ومجريات الحوادث ولعل الأوان قد آن لاختراع علم التاريخ لوامل العقل والتفكير .

(٤) المرجع السابق .

فكأنه بذلك يتابع ابن أبي طلي فيما ذهب إليه من أن نور الدين لم يسترح إلى اختيار صلاح الدين للوزارة . على أن فيما يذكره غير ابن أبي طلي من المؤرخين من حوادث ما يدل على أن نور الدين قد وقف ذلك الموقف حقيقة من صلاح الدين ، فقد ذكر ابن شداد أن نور الدين أخذ حمص والرحبة من نواب شيركوه وأبنائه عند ما سمع باستقرار صلاح الدين في مصر (١) . وهذا بدوره يدل على أن نفسية نور الدين تغيرت بالنسبة لبني أيوب ، كما ذكر ابن الأثير وابن خلدون أن نور الدين لم يكن يكتب لصلاح الدين باسمه وحده ، بل دأب على أن يكتب إليه باسم « صلاح الدين وجميع الأمراء بالبلاد المصرية » (٢) ، وهذا ليبين له أنه لا يشغل مركزاً ممتازاً عن غيره من بقية القواد والأمراء ، ويقال أن نور الدين ندم في أواخر أيامه على إنفاذ شيركوه إلى مصر ، إذ يعزى إليه أنه قال وهو على فراش مرضه الأخير : « ما أخطأت إلا في إنفاذي أسد الدين (شيركوه) إلى مصر بعد علمي برغبته فيها » (٣) .

وفي هذا كله ما يدل على أن نور الدين فهم حقيقة نوايا بني أيوب ورغبتهم في الاستيلاء على مصر ، وإن كان تأكده من تلك الحقيقة قد جاء بعد فوات الأوان ، كما يدل أيضاً على أن « الوحشة » بين

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٣ . انظر كلام ابن أبي طلي في الروضتين

ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) ابن الأثير ، المكامل ج ١١ ص ١٥٤ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩ ،

وراجع أيضاً Stevenson p. 197 .

(٣) ابن أبي طلي (الروضتين ج ١ ص ١٧٣) .

نور الدين وصلاح الدين بدأت في وقت مبكر عما تراترت عليه  
أقوال المؤرخين .

والواقع أن لنور الدين الحق في أن يخشى جانب صلاح الدين  
والأسرة الأيوبية عامة ، وأن ينقص من أقطاعاتهم بعد أن استقروا  
في مصر ، ذلك لأن مصر تختلف اختلافا تاما عن تكريت وبعليك  
وحمص والرحبة وغيرها من المدن التي حكمها بنو أيوب وقت إقامتهم  
بالشام ، ففي كل تلك المدن ليس من السهل على أسرة من الأسر أن تقيم  
ملكاً مستقلاً دون أن تخشى صاحب نعمتها أو جيرانها الأقوياء ، بينما  
تستطيع أمثال تلك الأسرة أن تقيم ذلك الحكم في مصر على دعائم ثابتة  
لما تنفرد به من ميزات لا تتوفر في إقليم آخر بالشرق الأدنى ، كحدودها  
الجغرافية الواضحة وثروتها الطبيعية الطائلة وتاريخها القديم المعروف ،  
وهذه هي نفس الأسباب التي أدت إلى تعلق بنو أيوب بمصر ، ورغبتهم  
في أن يقيموا دولتهم فيها .

وعما يلاحظ أيضاً أن أحداً من المصريين لم يتطلع إلى منصب  
الوزارة وقتذاك بدليل أن المراجع (١) لم تذكر أن واحداً منهم طالب  
به ، أي أنه أصبح من المسلم به أن يتولاه أحد أفراد الجيش النورى ،  
وعدم ظهور مصريين أو فاطميين بين المتقدمين للوزارة يدعو في الواقع  
إلى الالتفات ، والتعليل المعقول لذلك هو أن الجيش النورى كان من  
القوة والسطوة بحيث لم يترك مجالاً لظهور الطامعين في الوزارة أو في

---

(١) راجع أبو شامة ، الروضتين ، المقرئى ، السلوك ، ابن الأثير الكامل  
ج ١١ الدولة الأتابكية وابن خلكان ، الوفيات ، إذ لم يرد في كل تلك  
المراجع اسم مصرى واحد بين المتقدمين للوزارة .

غيرها ، وتلك حقيقة هامة تفسر السبب في نجاح صلاح الدين بالرغم مما قابله من عقبات ، إذ استطاح أن ينفذ سياسته المرسومة لتحقيق أغراضه دون أن يجد معارضة تذكر من القاطمين .

ومن الآراء المتواترة التي ليس لها نصيب من الصحة أن صلاح الدين تردد في قبول منصب الوزارة (١) ولعل في مفاوضات الهكاري لإقرار الأمر له ما يدل على عكس ذلك الرأي ، ويبين أن صلاح الدين سعى إلى الوزارة سعياً متواصلاً (٢) . إذ ليس من المعقول أن يبذل الهكاري ما يبذل من جهد ليوطد له الأمر وهو كاره . وأغلب الظن أن المؤرخين المعاصرين ذكروا ما ذكروا عن تردد صلاح الدين في مجيئه إلى مصر وبخاصة في المرة الثالثة وفي قبول منصب الوزارة ، ليوجدوا الموقف المناسب لتطبيق الآية القرآنية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، لاسيما أنهم كتبوا التاريخ على أنه عظات وعبر . ثم إن القول بتردد صلاح الدين في القبول لمنصب الوزارة لا يقبل حتى من الناحية المنطقية ، ذلك لأن صلاح الدين أصبح الممثل الوحيد لأسرته في مصر (٣) وبات واجبا عليه أن ينفذ السياسة البعيدة التي وضعها أبوه

---

(١) راجع ابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن الأثير ج ١١

ص ١٥٤ .

(٢) لم يذكر ابن ( المرجع السابق ص ٣٢ ) إن صلاح الدين تردد في قبول

منصب الوزارة بل قال إن شيركوه عرض عليه الأمر قبل وفاته ويتابعه في

ذلك المقرئ ( السلوك ج ١ ص ٤٣ ) ولعله نقل عنه . وكذلك لم يذكر

السيوطي شيئاً عن ذلك التردد المزعوم . راجع حسن المحاضرة ج ٢

ص ١٨ .

(٣) كان صلاح الدين يعد إعداداً لمثل ذلك الموقف ولعل في إتقائه مع عمه ==

وعمه (١) ، فلو أنه تردد قليلا وترك زمام الأمر يفلت من يده لانهارت جهود عمه شيركوه في فتح مصر ، وخطط والده أيوب في حمايته والتستر عليه .

لهذا كله أصبح حتميا على صلاح الدين أن يعمل في سرعة وحزم (٢) بعد وفاة عمه شيركوه . وإلى ذلك الوقت يرجع تاريخ وضع أسس سياسته التي سار عليها فيما بعد لتحقيق أغراضه ، بل لعل أصول تلك السياسة ترجع إلى أيام شيركوه نفسه وملخصها على كل حال التقرب من جمهور المصريين وكسب ولائهم وتأيدهم . ثم العمل على إضعاف العاضد ورجاله والتضييق عليهم (٣) ، وهذا هو الذي عزم

---

== شيركوه في الحملات النورية الثلاث على مصر دون غيره من شباب الأسرة الأيوبية . وفي مدح الشعراء له ، وفي تلك الحالة التي أحاطه بها بنو أيوب ما يدك على ذلك . راجع ما سبق .

(١) Stevenson p. 205 .

(٢) يقول ابن شداد في هذا الصدد (سيرة صلاح الدين ص ٣٢-٣٣) إن صلاح الدين شكر نعمة الله عليه فتاب من الحز وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدا حتى توفاه الله رحمة . وفي هذا ما يدل على شدة حساسية صلاح الدين بمركزه ومسئوليته وعزمه على المضي في تنفيذ سياسة بني أيوب إلى النهاية . راجع في هذا المعنى أيضاً ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٧٣) .

(٣) في هذا المعنى يقول عبد المنعم الجيلاني من قصيدة طويلة يمدح فيها صلاح الدين :

ملك تقلد سلك الملك منتظما	وقال للملك هذا منك لي بدك
ففرق المال جما لقلوب به	وحسبه فيهم إدراك ما سألوا
إن الملوك الذين امتد أمرهم	لم يخزنوا المال بل مرها حووا بذلوا

==



صلاح الدين على التوسل به لتوطيد أقدامه في مصر ، إذ وزع الاقطاعات على رجاله وأفراد أسرته وعينهم على الوظائف الهامة . ثم أنه اتخذ المال (١) وسيلة لإرضاء الأهالي ، فأبغى تنفيذاً لتلك السياسة بهض المكوس وإزالة كثيراً من المظالم وسامح الناس في المتأخر عليهم من المال (٢) . كما تساهل مع الأقباط في كثير من المناسبات . والقارىء لتاريخ أبي صالح الأرمي يلاحظ ذلك تماماً ، فكثيراً ما أوصى صلاح الدين بالأساقفة والقسس خيراً وكثيراً ما سهل لهم أن يقيموا شعائر دينهم كما يريدون (٣) . يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين شرع في إنقاص إقطاعات رجال العاضد تمكيناً لدولته الجديدة الناشئة وإضعافاً للدولة الفاطمية ورجالها ومن الأدلة على ذلك أنه أقطع إقليم الفيوم لبعض أفراد أسرته مثل أخيه وري ابن أيوب ومن بعده ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاد (٤) . الواضح من هذا أن صلاح الدين كان يهدف في سياسته نحو الطبقات الشعبية فتخفيف الأعباء المالية ، وإلغاء بعض المظالم والمكوس وتمكين الطوائف الدينية من إقامة شعائر دينها ، كلها أعمال لها مضمونها في إرضاء تلك الطبقات والواقع أن قوة الشعب ظهرت من قبل في صورة جلية عند

== كذا السياسة فالأخذ لو عدوا بجزل المليك وجاءت شدة خذلوا

راجع الروضتين ج ١ ص ١٦٤ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٢ .

(١) Lane - Polo, Saladin P. 151 ، حسن إبراهيم ، الفاطميون

ص ٣٠٨ .

(٢) ابن أبي طي ، الروضتين ج ١ ص ١٧٤ ، السيوطي ، حسن المعاصرة

ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) تاريخ ابن صالح الأرمي ص ٧ - ٩ .

(٤) نفس المرجع ص ٨٩ .

مجيء الحملة الصليبية الثالثة في مصر ، إذ استطاع المصريون — وقتذاك — أن يحولوا بين عموري الأول وبين دخول القاهرة ، وظلوا على مقاومته حتى حضر شيركوه (٦) وسيكون لتلك القوة الجديدة التي استطاع الأيوبيون استخدامها والإفادة منها أثر كبير في نجاح سياستهم وتحقيق أهدافهم في مصر .

على أن موقف صلاح الدين كان موقفا شاذا شائكا عموما بكثير من المصاعب والعقبات ، إذ أصبح منذ توليته الوزارة يمثل وجهتين متعارضتين مختلفتين ، فهو نائب لنور الدين محمود السني ووزير للعاضد الفاطمي . ومن هنا بات موقفه يميل عليه أن يقوم بما تتطلبه هاتان الجهتان من واجبات ، وأن ينفذ ما يصدره إليه كل منهما من أوامر متعارضة متناقضة . حقيقة إنه كان باستطاعة صلاح الدين أن يتغاضى عن رغبات العاضد ورجاله وأن يقتصر على تنفيذ أوامر نور الدين . ولكن ذلك معناه أن يسيء صلاح الدين إلى العاضد ورجاله وأن يثير حربه عليه ، فيعرض بذلك نفسه للخطر ، وإذن فقد أصبح على صلاح الدين أن يتبع خلال ذلك الموقف الشائك — سياسة ترضى نور الدين والعاضد معا وتضمن له في الوقت نفسه مصالحه ومصالح أسرته .

وبتلك السياسة استطاع صلاح الدين أن يتغلب على جميع المشاكل الناشئة عن موقفه المتناقض . وليس مرجع ذلك إلى شخصية صلاح الدين وحسن تديره للأمور فقط ، بل يضاف إلى ذلك أيضا أنه كان رجلا محظوظا في كثير من المواقف وأن أباه نجم الدين كان يمدده دائما

---

(٦) انظر الفصل الثالث .

بالنصائح والإرشادات الدبلوماسية ، فضلا عن قيامه له بوظيفة الرقيب في بلاط نور الدين .

وكانت أولى المشاكل الحقيقية التي قابلها صلاح الدين أن الخليفة ورجالہ شعروا بأنهم إزاء وزير من نوع جديد ، ومن ثم نشطت مآثراتهم للقضاء عليه وفقا للتقاليد المتبعة في ذلك العهد الفاطمي المتأخر . والواقع أنه لم يكن من المنتظر أن يقف رجال القصر مكتوفي الأيدي وصلاح الدين يسلك سياسة من شأنها أن تهدم دولتهم تدريجيا . وقد رأس المتآمرون مؤتمر الخلافة نجاح كبير الحصيان السود ، وكان السبب المباشر لتلك المؤامرة أن صلاح الدين شرع ينقص إقطاعاتهم ويوزعها على رجاله (١) ، وأنه ضايق أهل القصر وشدد عليهم واستبد بأمر الدولة وأضعف جانب الخلافة (٢) . وكانت تلك المؤامرة الأولى ذات شعبيتين إذ عقد المتآمرون مع الصليبيين اتفاقا مؤداه أن يقوموا من جانبهم بغزو مصر ، فإذا ما خرج إليهم صلاح الدين أشعلوا ضده نار الثورة (٣) ، وبذلك يوقعونه في موقف حرج ويتخلصون منه كما ظنوا إلى الأبد . وكان الصليبيون من ناحيتهم قد رحبوا بالمشاركة في تلك المؤامرة . فإن أهميه مصر بالنسبة إليهم لم تكن لتغيب عن بالهم . ولم يكن فشل ذلك النسابق بين الفريقين في حملاتهم على مصر . قد وضع حدا لمطامعهم ، ولذا أسرعوا بقبول الاتفاق مع رجال المؤامرة السابقة

---

(١) إبراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب (مخطوط) ص ١٨ . راجع أيضا أبي صالح

الأرميني ص ٨٩ .

(٢) نفس المصنف في المخطوط ج ٣ ص ٢ .

(٣) المرجع السابق . انظر أيضا ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٥٥ .

Lane - Poole, Saladin P. 151

الذكر ، وما زاد في أهمية بالنسبة إليهم ، أن الاسكندرية ودمياط وغيرها من الموانئ المصرية قد أصبحت مصدر خطر كبير على مواصلاتهم بأوروبا ومراكب حجاجهم وذخائرهم (١) بعد أن أصبحت مصر والشام بيد رجل واحد هو نور الدين (٢) . ولذلك فقد أصبح واجبا عليهم أن يبذلوا ما يستطيعون من جهد لإزالة ذلك الخطر (٣) وعلى ذلك فقد أسرع عموري بالاتفاق مع الامبراطور البيزنطي الذي أمده بأسطول بحري كبير .

ولكن عين صلاح الدين الساهرة لم يفتها ذلك التدبير فعلم بالمؤامرة (٤) وراقب زعيمها نجاح مراقبة دقيقة ، ولكي يتمكن منه ظل بصاربه حتى أمن ، وظن أن صلاح الدين قد نسي أمره ، فلما خرج ذات يوم من بوزيو سنة ١١٦٩ ( ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ ) بعيداً عن

---

(١) L. no - Poole Haladin P. 103

(٢) يقول Stevenson (p. 196) إن الصليبيين لم يتأثروا عملياً بملاك نور الدين لمصر لأن صلاح الدين اتبع سياسة من شأنها أن تتخمد معاملة الخاصة . وهذا صحيح ويفسره ما حدث بين الرجلين بعد ذلك من نزاع .  
(٣) عبر عن ذلك ابن شداد تمبيراً حسناً فقال : ( ص ٣٣ ) « لما علم الفرنج بما جرى من المسلمين وعسكرهم وما تم للسلطان ( صلاح الدين ) في استقامة

الأمر في الديار المصرية خافوا أن يملك بلادهم ويخرب ديارهم » .  
(٤) يقال إن تركانيا كان يعبر البئر البيضاء فرأى مع إنسان ذى خلقان تمانين جديدتين ليس فيهما أثر مشى فأنكرهما وأتى بهما صلاح الدين فوجد بهما مكاتبة الفرنج . ولما فوجئ الرجل بذلك اعترف بالمؤامرة . راجع شفاء القلوب ص ١٨ ، والروضتين ج ١ ص ١٧٨ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٥ . راجع أيضاً المقرئ ( السلوك ج ٢ ص ٤٤ حاشية ٦ ) حيث يرجع الدكتور زيادة إن البئر البيضاء قرية من كور الشرقية .

القصر والحرس الفاطمي أرصد له صلاح الدين من قبض عليه وقتله (١) وقد حدث عقب مقتل نجاح ما هو منتظر، إذ قام السودانيون وكانوا حوالى خمسين ألفاً كما تقول المراجع (٢) يريدون أن يشأروا لزعيمهم المقتول، واتجهت تلك الجموع الغفيرة إلى دار الوزارة - حيث كان يسكن صلاح الدين - فتصدى لهم أخوه تورانشاه بن أيوب (٣)، ودارت المعركة بين الفريقين فيما بين القصرين، وبات صلاح الدين في الواقع في موقف حرج، وأوشكت جهود بني أيوب أن تنهار في غمار تلك اثورة الجائحة، وبما زاد موقف صلاح الدين حرجاً أن العاضد مال إلى تأييد الثوار، وأخذ رجاله يرمون جيش صلاح الدين بالنشاب والحجارة من أعلى قصر الخليفة حتى عاقوه عن القتال، وإزاء ذلك اضطر صلاح الدين إلى أن يأمر بحرق حى السوداين المعروف بالمنصورية، كما هم تورانشاه بإحراق المنطرة التي كان يشرف منها العاضد على المعركة لولا أن صدر تصريح الخليفة يقول: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة (تورانشاه) ويقول: «دونكم والعييد السكلاب اخرجوهم من بلادكم» (٤)، فقت ذلك في عضد الثوار مما أدى إلى

---

(١) كان نجاح قد خرج إلى يستال له في قلوب فأرسل إليه صلاح الدين من

احتز رأسه وأتى به الحنبلي، شفاء القلوب ص ١٨، ابن الأثير الكامل

ص ١١٠ - ١٥٥ .

(٢) يقول التمرزى أنهم بلغوا هذا العدد بانضمام كثير من الأمراء والعامة

إليهم . راجع الخطط ج ٣ ص ٣ .

(٣) حضر تورانشاه إلى مصر في بداية وزارة صلاح الدين . نفس المصدر

ص ٥٩ .

(٤) نفس المصدر . ولله خير مرجع عن تلك المعركة (الخطط ج ٣ ص ٣) .

هن يمتهم وفرارهم إلى الجزيرة ومنها إلى الصعيد حيث ظلوا شوكة في جنب الدولة الأيوبية لعدة سنين .

على أن تلك الأزيمة لم تنته باقصاء السودانيين وإبعادهم عن القاهرة ، إذ لم يلبث الصليبيون أن هاجروا دمياط في نوفمبر سنة ١١٦٩ ( صفر سنة ٥٥٦٥ ) .

واستعد صلاح الدين لتلك المعركة التي كانت من أخطر المعارك التي صادفها في مصر ، والتي كانت ذات أثر فعال في تاريخ قيام الدولة الأيوبية فيها ، فأسرع بارسال جيش إلى دمياط لملاقاة الصليبيين ، كما أسرع بإخبار نور الدين وإيقافه على حقيقة الحال في مصر (١) ، ثم لم يلبث هو أن خف بنفسه إلى ميدان المعركة ، وبينما صلاح الدين يحاول إجلاء تلك الحملة عن دمياط بعث إليه نور الدين بالعساكر من الشام يتلو بعضها بعضا ، ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يهاجم بلاد الصليبيين في فلسطين ليخفف الحصار عن دمياط ، وذلك فضلا عما أمده العاضد به من المال (٢) ، مما يدل على أن الخليفة الفاطمي قد تبرأ من المتآمرين ، وكانت نتيجة ذلك كله أن انتهت الحصار في ديسمبر من نفس السنة باخفاق الصليبيين - كما هو معروف - دون أن يحققوا شيئا من الأغراض التي جاءوا من أجلها (٣) .

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٧ .

(٢) أبو الفداء ، المختصر ص ٤٨ — ٤٩ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ص ١٨ .

ابن شداد ص ٣٣ — ٣٤ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٧ .

(٣) تفاصيل هذا الحصار مبسوط في Schlumberger Ch. IV .

وهكذا نجح صلاح الدين نجاحاً مزدوجاً وهو في بداية حياته السياسية في مصر ، ففضى على الثوار المصريين وشتت شملهم وأبعدهم عن العاصمة ، وهزم الأعداء الخارجين وأحبط تدبيرهم ومسعاهم ، وذلك في الواقع شيء جديد بالنسبة للعصرين المصريين في ذلك الوقت فان عقبة واحدة من تلك العقبات كانت كفيلاً بأن تقضى على صلاح الدين لو أنه كان وزيراً من طراز الوزراء الذين شهدتهم الدولة الفاطمية في أيامها الأخيرة ، وقد كان لذلك النجاح أثر هام في تاريخه ، بل في تاريخ الدولة الأيوبية نفسها ، إذ بات من الواضح أن باستطاعته أن يحمي الدولة من أعاصير الفتن الداخلية والخارجية على السواء ، وأن يمهّد للمصريين الحياة المستقرة الهادئة التي يتوقون إليها بطبيعتهم . ولذلك أنس المصريون إلى صلاح الدين والتفوا حوله ، وقابلوا خطواته التالية - ومن بينها قطع الخطبة الفاطمية - بشيء من الرضا والاستسلام (١) ، أى أنهم نظروا إليه نظرتهم إلى رجل حازم لا يقدم على عمل إلا بعد أن يتخذ له أهبتة ، ويسلك إليه الطريق الواضح المستقيم (٢) .

ولم تظهر عظمة صلاح الدين ورجاحة عقله في القضاء على تلك الفتنة فقط ، وإنما ظهرت بصورة أوضح في طريقة استغلاله لها ، ونجاحه في تحويل نتائجها من ضرر ماحق إلى نفع مؤكد ، فانه لم يكتف بما وصل إليه من نصر ، بل يبدو أنه اتخذ من تأمر نجاحه والصلبيين

---

(١) Lane-Poole, Saladin P. 107

(٢) لشاعر عمارة البني قصيدة مدح فيها صلاح الدين في هذه المناسبة ومنها :

فالناس في أممك مصر كلوا      هتقاؤكم من نازح وقريب

راجع الروضتين ج ١ ص ١٨٢ .

تسكاه لتحقيق مآربه في ناحيتين مختلفتين ناحية نور الدين وناحية  
العاقد .

أما بالنسبة لنور الدين فقد أرسل صلاح الدين إليه عقب جلاء  
الصلبيين عن دمياط يطلب أهله والسبب الحقيقي لذلك فيما يبدو هو  
إتمام الخطة الأيوبية الموضوعه للاستقلال بمصر (١) ، بينما كان السبب  
الذى تذرعه به صلاح الدين لنور الدين هو أن يكون أدله هو ناله على  
إدارة دفة الحكم فيها . وقد أجاب نور الدين ذلك الطلب ، فبدأ موقفه  
بذلك إزاء بني أيوب يحتاج إلى شيء من التوضيح .

لقد سبق القول بأن نور الدين كره أن يكون صلاح الدين وزيراً  
في مصر كما كره ذلك لشيركوه من قبله ، فلماذا إذا ساعده على دمياط ؟  
ولماذا أجاب طلبه بإرسال أسرته إلى مصر ؟ والجواب على ذلك - في  
الواقع - واضح ، فإن كره نور الدين لأن يكون بنو أيوب وزراء  
في مصر الفاطمية ايس معناه أن يكون هو عوناً للصلبيين عليهم ، أو أن  
يترك مصر فريسة سهلة في أيدي الصليبيين ، ثم إن أغراضه من فتح مصر  
لم تتحقق كلها بعد ، إذ لا يزال يطالب بإسقاط الخلافة الفاطمية وذلك  
عمل لا يصلح له إلا صلاح الدين - كما أثبتت الحوادث التالية ويضاف  
إلى ذلك أنه إذا كان نور الدين قد رغب في أن يضع حداً لمطامع

---

(١) نعرض هذا البحث فيما سبق لما عقده المعاصرون لصلاح الدين من المقارنة  
بينه وبين النبي يوسف عليه السلام وقد كان في وصول أسرته إلى مصر الفصل  
الخامس لتلك القصة وفي ذلك يقول ابن شداد (ص ٣٤) « ثم أتخذ  
(صلاح الدين) في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الجور وتجري القصة  
مشاركة لما جرى للنبي يوسف



بنى أيوب في مصر ، فان ذلك يجب أن يكون على يديه لا على أيدي الصليبيين. أما عن موافقة نور الدين على سفر أيوب وبقية أسرته إلى مصر فمسألة فيها رأيان مختلفان ؛ رأى متواتر وهو أن نور الدين أرسلهم ليكونوا عوناً لصلاح الدين على حكم مصر ، وهو رأى لا يستقيم مع مجريات الحوادث ، ولا يتفق مع كره نور الدين لوزارة الأيوبيين في مصر الفاطمية ، ورأى آخر يذكره ابن أبي طي - ولعله الرأي الأرجح - وهو أن نور الدين أرسل أيوباً ليحث ابنه صلاح الدين على قطع خطبة العاضد (١) . وقد أيد ابن أبي طي رأيه بأن الخليفة العباسي المستنجد بالله أرسل إلى نور الدين يعاتبه على تأخير إقامة الدعوة له بمصر (٢) . وحمل رسوله إليه رسالة في ذلك ذكر ابن أبي طي جزءاً منها ، وفيها يقول الخليفة العباسي إن إقامة الخطبة له بمصر « أمر يجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبوية . قبل هجرم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكلية ، وهو عنده من أهم أمنيته ، (٣) . وفي هذا دليل على صحة هذا الرأي مما يميل بالباحث إلى الأخذ به ، وبخاصة لأنه يفسر موقف نور الدين ويلقى ضوءاً على ما فيه من تناقض ظاهري .

وصفوة القول أن صلاح الدين استغل مؤامرة نجاح لمصاحته

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) يذكر السيوطي أيضاً أن الخليفة العباسي أرسل إلى نور الدين يطلبه بالخطبة

له بمصر . راجع حسن المحاضرة ج ٣ ص ١٩ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٨٢ - ١٨٤ .

الخاصة فأرسل إليه نور الدين أسرته . ووصلت الأسرة الأيوبية إلى مصر رجالا ونساء في فبراير سنة ١١٧٠ ( جمادى الثاني سنة ٥٦٥ هـ ) . وما يدل على أن الأسرة الأيوبية جاءت إلى مصر لتستقر فيها أن أبو با وزع — قبل مجيئه إليها — أملاكه بالشام (١) ، وحضر كما يقول العماد الاصفهاني بأهله وجماعته ، وسبده ولبده ، (٢) . وأن كثيرا من التجار وغيرهم ممن كانت لهم صلة بصلاح الدين حضروا معه (٣) .

ولما وصل أيوب إلى مصر خرج العاضد للقائه عند باب الفتوح (٤) وذلك تقليد لم تجر به عادة الخلفاء الفاطميين من قبل ويدل على مقدار تحكم صلاح الدين في العاضد ونفاذ أمره عنده . وتقرر المراجع العربية أن صلاح الدين رغب في أن يتنازل عن الوزارة لآبيه وأن أباه رفض ذلك العرض (٥) . وهذا يوضح شخصية أيوب وزهده في المظاهر ، ورغبته في المضى في فكرته ، وهي ضرورة متابعة صلاح الدين وتأيد ومعاونته حتى يتحقق قيام دولة أيوية في مصر .

أما الوظيفة التي اكتفى بها نجم الدين فهي أن يكون على بيت المال (٦) وهي أهم وظائف الدولة . وأما بقية أفراد الأسرة فقد أقطعهم صلاح الدين

---

(١) العماد الاصفهاني . راجع الروضتين ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥٨ .

(٤) ابن أبي طي ( الروضتين ج ١ ص ١٨٤ ) .

(٥) نفس المصدر ص ١٨٣ ، ابن شداد ص ٣٥ .

(٦) ابن شداد ص ٣٥ .

أملاك السودانين الذين اشتركوا في مؤامرة نجاح (١) . وهكذا استقر بنو أيوب في مصر وبدأوا يخططون خطوتهم النهائية لتأسيس دولتهم فيها . هذا هو مدى استغلال صلاح الدين لتلك المؤامرة بالنسبة لثورالدين أما بالنسبة للعاضد فقد ضعف شأنه بعد القضاء على السودانين فلم يعد له بعدهم نصير قوى (٢) . وبالإضافة إلى هذا فإن صلاح الدين نصب على شئون القصر الفاطمي من قبله رجلا حازما قويا هو بهاء الدين قراقوش (٣) فخطا بذلك خطوة هامة في الاستحواذ على العاضد والقضاء على نفوذه . وبدأ بعد ذلك يمهّد للقضاء على الخلافة الفاطمية نفسها .

أما من ناحية الصليبيين فإن فشلهم في دمياط كان نقطة فاصلة في أدوار الحروب الصليبية إذ انصرف الصليبيون عن التدخل في شئون مصر مؤقتا بعد أن اقتنعوا بعقم محاولاتهم عليها . وظلوا على تلك الحال حتى أواخر عهد الدولة الأيوبية . ومن ناحية أخرى فإن ذلك الفشل جعل صلاح الدين يبدو للمصريين كما بدا شارل مارتل للفرنجة بعد نصرته على المسلمين في موقعة تور . ثم أن صلاح الدين تشجع بعد جلاء الصليبيين عن دمياط . على أن يقوم بالغارات المتتابعة على أملاكهم لتأمين حدود مصر الشرقية وكانت أولى تلك الإغارات أنه هاجم غزة (٤) سنة ١١٧٠ وفي طريقه

---

(١) من بين تلك الاقطاعات ان صلاح الدين أقطع أباه أيوب الاسكندرية ودمياط والبحيرة وأقطع أخاه تورانشاه قوس وأسوان وعيذاب .

ابن ابى طي ( الروضتين ج ١ ص ١٨٤ ) .

(٢) ابن راصل ، مفرج السكروب ج ١ ص ١١٠ ( مخطوط ) .

(٣) هو جلاء الدين عبد الله الأسدي وأصله عبد رومي من عبيد شيركوه

Ency. Isl. art, Karakush وله ترجمة في ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٠

Lane — Poole, saladin P. 106. (٤)

إليها ضرب الحصار على حصن الداروم ، فاستنجد حاكمه بالملك عمورى .  
ولكن صلاح الدين ترك الحصن ليلا وانسل إلى غزة . ثم عاد منها دون  
أن يحاول الاشتباك بجيش الصليبيين في حصن الداروم (١) . وفي ديسمبر  
من السنة نفسها أغار صلاح الدين على أبيه — على رأس خليج العقبة —  
وكانت مفتاح الطريق إلى البحر الأحمر وقتذاك وطريق الحجاج المسلمين  
إلى الحجاز . ولكي يستعيد صلاح الدين هذا المركز الهام الذى انتزعه  
الصليبيون من مصر قبل ذلك بنى السفن فى القاهرة على أجزاء ثم نقلها  
على ظهور الإبل إلى البحر الأحمر (٢) . ومن هناك أخذ يهاجم الحصن  
برأ وبجراً حتى سقط فى يده . وبذلك أصبح طريق المسلمين آمناً إلى  
الحجاز .

ولمذنب فقد نجح صلاح الدين فى التغلب على العقبة الأولى التى اعترضت  
سيبله فى مصر ، بل استغلها استغلالاً تاماً لمصلحته الخاصة . وخطا  
— متكثاً عليها — بضع خطوات هامة فى سبيل تحقيق أغراضه وهى  
تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر . على أن تلك العقبة لم تكن الأخيرة  
بين العقبات التى صادفت صلاح الدين .

ذلك لأن نور الدين لم يكن ليكتفى من مصر بأن يكون له نائب  
فيها ، بل أنه أراد أن يزيل منها الدولة الفاطمية ، وأن يرجع مصر إلى  
حظيرة الخلافة العباسية، ويريد أيضاً أن يفيد من موقعها الجغرافى الممتاز

---

(١) Lane Poole, saladin P. 106.

(٢) الماد الروضتين ج ١ ص ١٩١ ، ابن الأثير السكامل ج ١ ص ١٦٤ ابن

واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٣١ .

ومن مواردنا الطائفة في حروبه مع الصليبيين . ولذلك أخذ نور الدين منذ ثبتت أقدام رجاله في مصر يلح على صلاح الدين بقطع خطبة العاضد، وكتب إليه - كما يقول النويري - يأمره بالقبض على الخليفة الفاطمي والخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله (١) - الذي جاء بعد المستنجد - ولكن صلاح الدين أراد من ذلك - كما يقول المؤرخ نفسه وكما يقول غيره - أن يتقوى بالعاضد على نور الدين إن هو أراد الدخول إلى مصر (٢) . إلا أن نور الدين لم يأخذ بوجهة نظر صلاح الدين وألزمه بذلك إلزاماً لا قسمة له فيه . كما يقول ابن خلكان (٣) .

على أن إزالة الخلافة الفاطمية كانت أيضاً من رغبات صلاح الدين، ذلك لأنه إذا كان مقصد نور الدين أن يزيل الدولة الشيعية فإن رغبة صلاح الدين كانت الاستقلال بمصر، ليكون لنفسه ولأسرته دولة فيها. وهذا لا يتأتى - بالضرورة - إلا إذا سقطت الدولة القائمة . وإذن فقد كان من صالح الرجلين أن تسقط الخلافة الفاطمية ، ولا خلاف بينهما في ذلك فيما عدا أن صلاح الدين أراد أن يتخذ للأمر أهيته حتى لا يعصف ذلك العمل الجريء بمصالحه ومصالح أسرته ، تلك المصالح التي كان نور الدين بطبيعته عازماً على وضع حد لها في الوقت المناسب . ولهذا اتخذ صلاح الدين الحيلة لنفسه ، فأخذ ينظر إلى المستقبل

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ج ٢٦ ص ١٠٣ (مخطوط) .

(٢) المرجع السابق ، وراجع 'أيضاً ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٦٤ -

١٦٥ .

(٣) الوفيات ج ٢ ص ٣٨٣ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٥ . ابن خلدون : البر

ج ٤ ص ١٧٤ .

نظرة كلها حكمة وسداد فلو أنه أطاع نور الدين وقطع خطبة العاضد منذ وصول أوامره إليه بذلك، لسكان من المتوقع ألا يمر ذلك العمل بسلام ولكنه فضل أن يمهّد لتلك الغاية تمهيداً بطيئاً مشمراً، وأن يهيء عقلية الأهل ويوجّه استعدادهم لخطوته حتى إذا كان الوقت المناسب أقدم على ما يريد وقطع خطبة العاضد وخطب للخليفة العباسي في هدوء.

وكان بما قام به صلاح الدين للتمهيد لتلك الخطوة أنه أسرع بالقبض على من يخشى شرمهم من أنصار العاضد هقب مؤامرة نجاح، وأوهم العاضد أن مصلحته إنما هي في القبض عليهم، لأنهم يصونه ولا يطيعون أوامره (١). وبذلك أبعده صلاح الدين أهوان الدواة الفاطمية.

ثم إن صلاح الدين أخذ يقضى على كثير من مظاهر المذهب الشيعي في البلاد فأزال من الأذان عبارة «حى على خير العمل محمد وعلى خير البشر». وأمر أن يبدل بها كلام مجمل مثل «اللهم أصلح العاضد لدينك»، ثم إنه خطا خطوة أخرى فأمر أن تذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة (٢) وكذلك اسم نور الدين بعد العاضد (٣) وهذه كلها خطوات بطيئة مشمرة في نفس الوقت ولا بد أنها هيأت الأذهان شيئاً فشيئاً إلى قبول قطع اسم العاضد والخلافة الفاطمية من الخطبة.

وفي الوقت الذي أخذ فيه صلاح الدين يزيل تلك المظاهر الشيعية، عمل على نشر مبادئ المذهب السني تدريجياً. فأزال القضاء الشيعي من مصر

(١) ابن لفرات وتاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٦٧ (مخطوط).

(٢) العيني: عقد الجمان ج ٢١ ص ٤٥٨ (مخطوط).

(٣) ابن واصل: مغزج السكروب ج ١ ص ٣٢ (مخطوط).

سنة ١١٧٠ (٥٥٦٦) وولى صدر الدين بن درباس الشافعي منصب قاضي القضاة بها (١) كما استناب رجالا من الشافعية في القضاء بجميع الأعمال (٢). ولم يكتف صلاح الدين بذلك ، بل أحضر كبار العلماء من السنيين ، وأنشأ المدارس في القاهرة والإسكندرية لتدريس المذاهب الأربعة، ومنها مدرسة للفقهاء الشافعية (٣) بجوار الجامع العتيق، وأخرى للمالكية وهي التي عرفت باسم المدرسة القمحية (٤). وكذلك اشترى المظفر عمر - ابن أخي صلاح الدين - منازل الغز بمصر وعمرها مدرسة للشافعية ، ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما (٥) وكانت نتيجة هذا كله أن اختلفت مذاهب الشيعة - كما يقول المقرئ (٦) - والإسماعيلية والإمامية من نفوس المصريين ، ثم قضى صلاح الدين على مجالس الدعوة وكانت من أقوى الوسائل في إذاعة المذهب الشيعي ونشره بين الناس .

ومن الواضح أن نجاح صلاح الدين في تلك الخطوات معناه في

- 
- (١) الحنبلي ، شفاء القلوب ص ١٨ ، العيني عقد الجمان ج ٢١ ص ٤٧٢ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٣ .
- (٢) ابن الأثير ، الكامل ١١ ص ١٦٤ .
- (٣) يقول ابن الأثير ( المرجع السابق ) إنه كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يجلس فيها من يراد حبسه ، فقدمها صلاح وبني فيها مدرسة للشافعية كما بنى بدار المدك مدرسة للشافعية أيضاً .
- (٤) المقرئ ، المخطط ج ٤ ص ١٩٢ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٠ .
- (٥) الحنبلي ، شفاء القلوب ص ١٨ ، ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٦٤ .
- (٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٩٦ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ص ١٨ المقرئ المخطط ج ٢ ص ٢٤٣ .

الواقع القضاء على الدولة الفاطمية ، تلك الدولة التي لم يبق لها إلا أن يذكر اسم خليفتها في الخطبة . أما ما يؤيد الدعوة نفسها ويشيع وجودها بين الناس ، فقد قضى عليه صلاح الدين . أى أنه نجح في القضاء عليها من الناحيتين النظرية والعملية ، وهذا ما يميل بالباحث إلى الاعتقاد ، بأنه لم يكن في الأمر مؤامرة لقطع اسم العاضد من الخطبة ، إذ الواضح مما سبق أن الخلافة الفاطمية أصبحت إسماً ليس له معنى عملي . فلم يكن في قطع الخطبة بعد ذلك ما يعتبر عملاً فجائياً بالنسبة لعقائد الناس أو بالنسبة لما ألفوه ، إذ تعوّدوا — منذ جاء صلاح الدين — ألا يسمعوا اسم العاضد وحده . كما أخذت رسوم المذهب الشيعي وزخارفه تتضامل أمامهم وتضمحل شيئاً فشيئاً ، فسهل عليهم بعد ذلك أن يسمعوا اسم الخليفة العباسي ويرضوا بقطع اسم العاضد . وهذا هو التفسير المعقول لما هو معروف من عدم قيام أحد الاحتجاج على ما قام به صلاح الدين من قطع اسم الخليفة من الخطبة كما سبلى .

ثم إنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن المذهب الشيعي لم يكن مذهباً أصيلاً في مصر ، وأن المصريين أنفسهم لم يكونوا على استعداد للدفاع عنه إذ لم يكن لهم دخل في الحكم أو في الإدارة ، وكانت تلك الأعمال من اختصاص طائفة معينة . أما الشعب فلم يكن يريد إلا أن يمضى في عمله هادئاً لا يعكر صفوه ما طغى على الدولة في أيامها الأخيرة من فوضى وانحلال .

وعلى كل حال فقد انتظر صلاح الدين — بعد أن أطمأن إلى ترتيبه المثمر — حتى تسنح الفرصة المناسبة ليضرب ضربته القاضية وسنحت



تلك الفرصة أخيراً حين مرض العاضد (١) واحتجب في قصره وبتس المتصلون به من شفائه وكان مرضه قد بدأ من أواخر أغسطس سنة ١١٧١ (ذى الحجة سنة ٥٥٦ هـ) وبعد ذلك بأيام جلس العاضد في قصره فشاهد وهو على ما ذاع بين الناس من ضعف القوى وتحاذل الأعضاء حتى أمسك طبيبه ابن السديد عن الحضور إليه وامتنع عن مداواته (٢) أي أن صلاح الدين أقدم على ذلك العمل بعدما رجح عنده أن الموت أقرب إلى العاضد من الحياة . وهذا مبالغة منه في الحذر والاحتياط . ومع ذلك كله، فإن صلاح الدين لم يشأ أن يتعرض للأمر بنفسه، وإنما عهد به إلى أبيه أيوب حتى إذا كانت هناك معارضة اعتذر بأنه لا يعرف ما حدث (٣) . وفعلاً نزل نجم الدين أيوب في جماعة من أصحابه إلى الجامع في الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١) وأمر بإحضار خطيب الجامع إليه فهدده إن هو خطب للعاضد، وأمره أن يخطف للمستضيء العباسي . فلما صعد الخطيب المنبر ووصل في خطبته إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً ؛ ولكنه دعا للائمة المهديين وللملك الناصر صلاح الدين واعتذر بعدئذ بأنه لم يتذكر اسم المستضيء ، ووعد أن يفعل ذلك في الجمعة التالية (٤) . ولكن العاضد لم يمتد أجله إلى تلك

(١) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ١٦٥ .

(٢) أبوالحسن ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ ، الخبلي شفاء القلوب

ص ١٩ للنبي . هتد الجمان ج ٢١ ص ٤٨٥ .

(٤) هذا هو رأي ابن أبي طي (المرجع السابق) ويذهب ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٦٥) إلى أن الخطيب في تلك الجمعة كان قتيماً أعجمياً هو الجبوشاني ويدعى بالأمير المسالم (ابن خلدون ، العبرج ٤ ص ١٨ ويبدوا أن ابن أبي طي =

الجمعة ، اذ مات بعد ذلك بثلاثة أيام . ويقال إنه مات همأ وكداً على قطع اسمه من الخطبة (١) . فلما لم يستنكر الناس ما حدث ولم يبدو منهم شيء من الاعتراض عليه أمر صلاح الدين أن تقطع خطبة العاضد من جميع المساجد فتم له ما أراد . وتم الانقلاب الذي يرجوه نور الدين معه وسقطت الدولة الفاطمية منذ ذلك اليوم سقوطاً صامتاً بعد قيامها في مصر قرنين ونصف قرن من الزمان .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر هزة فرح بالغة عمّت أوساط المذهب السني في الشرق الأدنى كله ، وسارت البشائر بذلك الحادث الهام ، فكتب العماد الاصفهاني بشارة تقرأ في سائر البلاد الاسلامية وفي كل قرية ومدينة حتى يصل حاملها إلى بغداد (٢) . وبشارة ثانية تقرأ بحضرة المستضيء على يد شهاب الدين ابن أبي عسرون (٣) . ولما وصلت البشائر إلى المستضيء بعث بخلعه إلى نور الدين بالشام وصلاح الدين بمصر . ومن بين تلك الخلع سيفان لنور الدين أحدهما قلده به المستضيء للشام والثاني لمصر على أن يكون صلاح الدين نائبه فيها (٤) . ثم قرر صلاح

---

== هو أوضح المراجع ، لأنه لو دعي للمستضيء في تلك الجمعة والعاضد على قيد الحياة - كما يذهب ابن الأثير وابن خلدون - لكان من المحتمل ألا تمر المسألة بسلام . أى أن المقول أن الدهوة ظلت مبهمة والعاضد على قيد الحياة . فلما توفي في الجمعة التالية عمم قطع اسمه والخطبة للمستضيء في جميع المساجد واجمع الروضتين ج ١ ص ١٩٦ ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٥ ، ابن خلدون المبرج ٤ ص ١٨ .

(١) ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ١٩٦) .

(٢) المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٤٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦

ص ٦٣ ونس تلك البشارة وارد في أبي شامة بالروضتين ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) المقرئى السلوك ج ١ ص ٤٤ . أبو المحاسن . النجوم ج ١ ص ٦٣ .

(٤) أبو المحاسن ، النجوم ج ٦ ص ٦٤ .

الدين أن تضرب السكة باسم المستضىء وباسم نور الدين فنقش اسم كل منهما في وجهه (١) كما أمر بإزالة المناطق الفضية بمحاريب جوامع القاهرة ، تلك المناطق التي كانت تحوى أسماء الخلفاء الفاطميين (٢).

ثم بلغ الانقلاب مداه فنصبت الأعلام السود على منابر الجوامع المصرية ولبس الخطباء الثياب السوداء أيضا تلك التي أرسلت خصيصا من بغداد (٣) وأذيع في الناس ألا يتأخر أحد عن صلاة الجمعة ومن عثر عليه عومل بالحبس والتقييد واللوم والتفنيذ ، كما يقول المقرئ (٤) وعلى تلك الصورة عادت مصر مرة أخرى إلى حظيرة الدولة العباسية - أسبيا بالطبع - أما من الناحية العملية فقد كانت تلك الخطوة من أهم الخطوات التي خطاها صلاح الدين لتحقيق استقلاله بمصر وتكوين دولة فيها .

والظاهر أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يحدث اضطرابا ملحوظا في أوساط المذهب الاسماعيلي ، فان رجال هذا المذهب انقسموا على أنفسهم وأصبحوا جماعات متنافرة متنافسة ، فالطيبية كانوا يرجون زوالها والزارية لم يكونوا أقل رغبة منهم في ذلك (٥) وبما لاشك فيه أن تلك الانقسامات المذهبية كانت من أهم العوامل في نجاح صلاح الدين .

---

(١) المقرئ ، الملوك ج ١ ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

(٥) راجع الفصل الأول .

ولعله قد وضع الآن أن صلاح الدين أصبح القوه الكبرى في مصر  
يعاونه أبوه وأفراد أسرته في سياسته وأهدافه . على أنه لم يشأ أن يظهر  
بمظهر المغتبط بما ساء الفاطميين بل كانت تصرفاته كلها بعد وفاة العاضد  
سديدة حاسمة، إذ شيع جنازته وأقام مأتمه ، ثم أمر بعد ذلك بخزائن  
القصر ففتحت ووزع ما فيها على أتباعه وأنصاره ولم ينسى أن يرسل  
منها إلى نور الدين (١) . غير أنه عزم على القضاء على تعاليم الشيعة في  
مصر القضاء الأخير فأمر القاضي الفاضل بفتح خزائن الكتب الفاطمية (٢)  
وأطلق له حرية التصرف فيها ، فاحتفظ القاضي الفاضل بالملائم منها  
وأحرق الباقي . . وأما آل العاضد وأبناؤه وأقاربه فقد أخرجهم صلاح  
الدين من القصر وأودعهم داراً فسيحة تحت إشراف بهاء الدين قراقوش  
وحال بينهم وبين الاختلاط بعضهم بالبعض الآخر (٣) . أما هو نفسه  
فقد ظل في دار الوزارة ولم ينتقل إلى قصر الخلافة حتى لا يثير بمسلكه  
شيئاً من الظنون .

وهكذا خطى صلاح الدين تلك الخطوه أيضاً وهو متمتع برضى  
نور الدين -- ولو ظاهرياً -- وظلت العلاقات بين الرجلين طيبة فيما يبدو  
للمعاصرين حتى ذلك الوقت لسبب واضح وهو أن الغاية التي يسعيان إليها  
كانت واحدة وهي إسقاط الخلافة . ولعل قيام صلاح الدين بتلك الخطوة  
قد أزال من نفس نور الدين بعض الشك . ولكن صلاح الدين كانت له

(١) الروضتين ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) ابن الأثير . السكاهل ج ١١ ص ١٦٥ . ابن خلكان الوفيات ج ٢

ص ٣٨٣ ابن واصل ؛ مفرج الكروب ج ١ ص ٣٢ .

غاية أخرى أبعد وأعمق ، وأصبح عليه من بعد ذلك أن يمضى قدماً لتحقيقها ، ولما كان هذا التحقيق لا بد أن يكون على حساب نور الدين فقد بدأ التنافر يظهر بينهما حتى أدى إلى الوحشة التي يحسكي عنها المؤرخون .

ذلك لأن نور الدين أصبح من بعد ذلك وجهاً لوجه أمام نور الدين . لقد نال نور الدين من مصر كثيراً مما كان ينتخيه فأصبحت — في نظره على الأقل — ملكاً له ، يحكمها نائب من قبَله وأكده ذلك الخليفة العباسي المستضيء — ولعله فعل ذلك بناء على رغبة نور الدين — عند ما بعث إليه بسيفين ، أحدهما قلده إياه للشام والثاني لمصر (١) . ثم أن نور الدين لم يعد يخشى أن يملكها الصليبيون — كما كان الحال من قبل — بل أصبح في استطاعته هو أن يهاجمهم من الشمال والشرق والجنوب وأن يحصرهم في مواقعهم الساحلية . أما الخلافة الفاطمية فقد سقطت ولم يعد في مصر بعد ذلك من المشا كل ما ينتظر الحل . هكذا ظن نور الدين فتوقع أن يبدأ صلاح الدين في مساعدته وفي جهاده ضد الصليبيين (٢) . وانتظر ثمرة ما أنفق في سبيل مصر وما بذل من مال منذ استنجد به شاور لتسع سنوات خلت ، ولما كان الحوادث التالية سارت في طريق غير الذي رسمه نور الدين إذ كانت لصلاح الدين وأسرته أطماع في مصر عليه أن يحققها ولو أدى ذلك إلى الوحشة بينهما .

لقد أراد صلاح الدين أن يُرضى نور الدين فأرسل إليه — بعد استيلائه على القصور الفاطمية — كثيراً من الهدايا والتحف فما كان من

(١) انظر ما سبق ص ١٧٨

(٢) Stevenson p. 199;

نور الدين إلا أن قال : « ما كانت بنا حاجة إلى المال ، ولا نسد به خلة الإقلال فهو يعلم أننا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر ، وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما وجدنا به قدرأ ، ثم تمثل يقول تمام في هذا المعنى (١) .

ولقد صدق نور الدين أنه لم يكن في حاجة إلى المال وحده بل إنه كان في حاجة إلى صلاح الدين نفسه وإلى رجاله ليستعين بهم في جهاده ضد الصليبيين . حقيقة إنه أرسل إلى نور الدين بما وجد في تصور الفاطميين وسك باسمه العملة وخطب له على المنابر ، ولكن صلاح الدين كان - في الوقت نفسه - الحاكم بأمره في مصر ، فلديه جيش قوى على رأسه إخوته (٢) ، وأبناء اخوته . وكان نور الدين يعلم ذلك بالضبط، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ، لأنه مشغول بطبيعة موقفه بجهاد الصليبيين ومشا كل سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وغيرهم من حكام الجزيرة ولذلك فلم يجد الفرصة الملائمة للتفرغ لصلاح الدين (٣) .

أما صلاح الدين فإنه لم ينطلق بكليته إلى حرب الصليبيين - كما كان ينتظر نور الدين - بل راح يوطد أقدامه في الملحقات الجغرافية الطبيعية لمصر . وبدأ بأقليم برقة . وعقد لذلك مجلساً بالإسكندرية حضره أبوه أيوب وخاله الحارمى وابن أخيه تقي الدين عمر (٤) وتقرر في ذلك المجلس أن يغزو تقي الدين عمر ذلك الأقليم . وجهزت الحملة فعلاً وتم الفتح في منتصف

(١) لم ينفق الذهب المرني بكثرة على الحصا وبه فقر الى الذهب

راجع مفرج الكروب من ٤٠ والروضتين ج ١ ص ٢٠٦

(٢) لصلاح الدين خمسة اخوته وأكبر الجميع شمس الدولة تورانشاه م

(٣) Lane-Poole, p. 120

(٤) راجع المقرئى السلوك ج ١ ص ٤٨

عام ١١٧١ م (٥٥٦٧ هـ) ثم أخذ صلاح الدين من بعد ذلك يتابع تأمين حدود مصر من جهة الشرق . وكان في اتجاه صلاح الدين ذلك الاتجاه بداية الوحشة العلنية بينه وبين نور الدين ذلك لأن صلاح الدين سار في أواخر ذلك العام إلى حصن الشوبك بفلسطين وحاصره . ليزيل تلك العقبة السكتود في سبيل القدوم إلى مصر أو الخروج منها (١) وأوشك صلاح الدين أن يفتح ذلك الحصن (٢) . فلما علم بذلك نور الدين أراد أن يساعده فتوجه إليه من دمشق . ولكن أتباع صلاح الدين خوفوه من ذلك اللقاء (٣) . فرحل من الحصن وأرسل إلى نور الدين يعتذر إليه بأن الموقف في مصر يستدعي رجوعه . فشق ذلك على نور الدين، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين منها (٤) .

على أن الناظر في أحوال مصر الداخلية في تلك الفترة لا يجد مبررا لاعتذار صلاح الدين إذ لم يحدث وقتذاك شيء يستدعي رجوعه من غزواته البتة ، مما يدل على صحة ما تواتر بين المؤرخين من أن صلاح الدين لم يشأ أن يقابل نور الدين خوفاً من أن يقبض عليه . ويسدو أن صلاح الدين قد أحس بأن العلاقة بينه وبين نور الدين أخذت تتطور

---

(١) وإنما بدأ بها ( بالشوبك والكرك ) لأنها كانت أقرب إليه في الطريق تتم من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج ( صلاح الدين ) هو بنفسه يبرها بلاد العدو ، فراد توسيع الطريق وتسهيل لتصل البلاد بعضها ببعض .  
وتسهل على السابلة ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٢٦  
راجع أيضا القرظي السلوك ج ١ ص ٥٠

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ١٦٦ ، ابن خلدون ، العبر ج ١ ص ٣٥٠

(٣) ابن واصل مفرج الكرب ( مخطوط ) ص ٣٨ - ٣٩

(٤) نفس المرجع السابقين

تطوراً خطيراً . فجمع من أجل ذلك — كمادته عندما تخرج الأمور — أسرته ، وفيهم والده أيوب وخاله الحارثي وأخبرهم بما ذاع عن عزم نور الدين على قصد مصر . فقام أحد أفراد الأسرة الأيوبية وهو تقي الدين عمر واقترح قتال نور الدين إن هو قصد مصر . ووافق تقي الدين كثير من الحاضرين ، إلا أن نجم الدين لم يوافق على ذلك الرأي ، ونهر ابنه وحفيده ، وأعلن على الملأ الخاضع خضوعهم التام لنور الدين (١) ، وانفضَّ المجلس عند رأى أيوب . وكانت النتيجة أن كتب كثيرون من حضر والاجتماع إلى نور الدين بما حدث — وذلك نفس ما توقعه أيوب — فانتدع نور الدين بما سمع ، وعدل مؤقتاً عن قصد مصر . فلما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين لأمه على إعلان رأيه ، وأفهمه أن بنى أيوب على استعداد لمقاتلة نور الدين — حتى الرمق الأخير — إن هو قصدهم بسوء . ثم ختم كلامه بقوله «والأيام تندرج والله عزول وجل — كل يوم هو في شأن» ولا غرابة في أن يسلك أيوب ذلك المسلك المماكر ، فله في مثل ذلك الموقف رأى مشابه عندما مرض نور الدين ذات مرة وأراد شيركوه — منتهزاً فرصة ذلك المرض — أن يعلن نيات الأسرة الأيوبية لولا أن ردت عليه حكمة أيوب وبعد نظره .

وفي هذا المحضر العائلي الأيوبي الذي تحدثت عنه جميع المراجع (٢)

---

(١) أضاف ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٦٧) أن أيوبا اقترح أثناء الاجتماع أن يكتب صلاح الدين إلى نور الدين كتاباً يقول فيه «بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد . فأى حاجة إلى هذا ؟ يرسل المولى (نور الدين) حاجباً يضع في رقبتي منديلاً وأخذني إليك وماهنا من يمتنع .

(٢) انظر المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٤٩ ، ابراهيم الخليلي ، شفاء القلوب ص ٢١ ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٢٥١ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٦٧ ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٢٨١



التي تعالج موضوع هذا البحث دليل واضح على نوايا الأيوبيين ورغبتهم في مصر ، وفيه أيضا ما يلقي ضوءا على شخصية أيوب وعمقه ودهائه وأياديه البيضاء في تأسيس الدولة الأيوبية وأهمية وجوده بجانب ابنه صلاح الدين . على أن صلاح الدين لم يطمئن — كما يبدو — إلى عدول نور الدين عن قصد مصر ، فأراد أن يتخذ الحيلة لنفسه ، ولذلك فكّر الأيوبيون في أن يضعوا أيديهم على مكان يلجأون إليه أن تصدم نور الدين في مصر واضطروهم إلى الخروج منها (١) . واستقر الرأي على غزو بلاد النوبة . وجّهت لذلك حملة كبيرة بقيادة شمس الدولة تورانشاه . وسار تورانشاه إلى أسوان في أواخر سنة ١١٧٢ (جمادى الأولى سنة ٥٦٨ هـ) ومنها إلى بلاد النوبة حتى استولى على أبريم ثم عاد إلى مصر (٢) بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للغرض الذي أرسل إليها من أجله (٣) .

وقد تذرع صلاح الدين بأن الغرض من تلك الحملة إنما هو القضاء على بقية السودانيين الذين فروا إلى تلك الأصقاع عقب هزيمتهم الماضية ، وهذا كله ليخفي غرضه الحقيقي منها (٤) ، إذ المعروف أن السودانيين

---

(١) راجع ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٧٢

(٢) اقتطع تورانشاه بلاد النوبة لأحد رجاله وهو إبراهيم الكردي وأرسل معه رسولا يكشف خبرها فساد ذلك الرسول حتى دثلة وعاد يقول « وجدت بلادا ضيقة ليس بها من النوع سوى القردة ومخل صغير منه آدمهم » ، وهذه هي حالة بلاد النوبة . السلوك ج ١ ص ٥١

(٣) يقول المقرئ ( نفس المرحم ) أن نور الدين عظم همه في تلك السنة (سنة ٥٦٨ هـ) بأمر مصر وأخذ من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد وأكثر من مراسلته بحمل الأموال .

(٤) لم يذكر ابن الأثير وهو أدق في مرجع في هذا الموضوع شيئا عن السودانيين

لم تقم لها قائمة إلا بعد أن جمعهم حوله أحد المصريين من أبناء الصعيد وهو كنز الدولة فيما بعد .

ثم حدث بعد ذلك أن صدر الأمر من نور الدين إلى صلاح الدين في بداية سنة ١١٧٣ (جمادى الأولى سنة ٥٦٨ هـ) بغزو حصن الكرك، وكانا قد اتفقا من قبل على ذلك ، بعد أن أعتذر صلاح الدين عما حدث في الغزوة الماضية وكانت الخطوة الموضوعية أن يخرج صلاح الدين من مصر ونور الدين من دمشق فأيهما سبق إلى الحصن انتظر صاحبه فخرج صلاح الدين من مصر في مايو سنة ١١٧٣ (شوال سنة ٥٦٨ هـ) وحاصر الحصن فعلا ولكنه رجع عنه عندما علم بقرب وصول نور الدين . وكان عذره تلك المرة أنه سمع بمرض والده ثم أرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري يعتذر إلى نور الدين بهذا العذر وأرسل معه كثيرا من الهدايا الثمينة . فزادت تلك الحادثة من وحشة نور الدين وغضبه على صلاح الدين (١) .

ولما عاد صلاح الدين إلى مصر وجد أن أباه أيوبا قد توفي، ولكن

---

== واخرجهم على صلاح الدين . إنما ذكر السبب صريحا فقال أن الأيوبيين عرفوا نوايا نور الدين بمحوم فاستقر رأيهم على فتح بلاد النوبة ليلجأوا إليها أن هو قصدهم وهزمهم .

الكامل ج ١١ ص ١٧٣

(١) يقول ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٧٦) أن نور الدين غضب لعودة صلاح الدين وأن كان يعرف تماما الغرض من تلك العودة إلا أنه لم يظفر برسول شيئا من ذلك بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وفي هذا دليل على أن نور الدين تأكد من نوايا الأيوبيين ولكنه آثر أن يتناص عن سلوكهم حتى تتساح له الفرصة المناسبة التي يستطع فيها أن ينقض عليهم وأن يخرجهم من مصر .

الوفاة لم تكن نتيجة مرض كما ادعى . وإنما سببها أن أيوبا ركب فرسا  
فنفرت به نفرة أسقطته على الأرض (١) وبقى بعد تلك السقطة أياماً ثم  
توفي (٢) في ٩ أغسطس سنة ١١٧٣ (٢٧ ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ) .  
وبذلك انتهت حياة ذلك الرجل الذي يعتبر بحق العقيلة المدبرة فيما نالته  
الأسرة الأيوبية من نجاح وبذلك أيضاً أصبح على صلاح الدين أن يقابل  
وحده ما يحيط به من مشاكل وعقبات

وإذن فقد أصبحت الوحشة بين الرجلين حقيقة واضحة لا شك فيها  
وبات منتظراً أن يلبأ نور الدين إلى القوة في إخراج صلاح الدين من  
مصر وأورده إلى الطاعة والخضوع . لولا أن المشاكل التي واجهها في  
ذلك الوقت — ومنها نزاعه مع قليج أرسلان سلطان السلاجقة الروم  
ووفاة أخيه قطب الدين مودود وقائده مجد الدين ابن الداية (٣) — قد  
اضطرت به إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة الملائمة .

أما صلاح الدين فلم يقف مكتوف اليدين . بل فكّر في مكان آخر  
يلبأ إليه أن هاجمه نور الدين هذه المرة . ووقع الاختيار على بلاد اليمن —  
بعد أن وضح لديه أن بلاد التوبة لا تصلح لذلك — والأسباب التي  
تذكرها المراجع العربية عن تلك الحملة هي أن تورانشاه — أخا صلاح الدين  
وقائد الحملة — لم يكن أقطاعه بمصر يقوم بنفقته (٤) . وأن عمارة اليمن

---

(١) راجع ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٧٦ ، ابن شداد ص ٤٦ ، النجوم  
الزاهرة ج ٦ ص ٦٧ ، ٦٨ وغيرها .

(٢) دفن أيوب أولاً مع أخيه شيركوه ثم نقلت جثتها معا بعد ذلك إلى الحجاز  
المقرئى السلوك ج ١ ص ٥١ .

(٣) راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٩ ، ١٦٥ .

(٤) ابن أبي طي الروضتين ج ١ ص ٢١٦ .

وكانت ثقته به قد توثقت ظلَّ يغريه بفتحها وبخيراتهما حتى اقتنع (١) وجرّد حملة عليها بعد أن استأذن أخاه صلاح الدين الذي استأذن بدوره نور الدين . أما عن السبب الأول فلا يحتاج تفنيده إلى عناء كبير إذ ليس من المعقول أن ينشط تورانشاه لفتح هذا الإقليم البعيد لمجرد أن إرادته في مصر لا يكفيه . وكان من السهل عليه أن يطلب زيادة إقطاعه وبخاصة وأن صلاح الدين لم يكن ضيقاً على أسرته بشيء في تلك الناحية . أما عن الثاني وهو إغراء عمارة له ليهدي سبيل إبعاد جزء كبير من الجيش ليشور المتآمرون على صلاح الدين ويوقعوا به الهزيمة . فشئ له نصيبه من الصحة ولكنه ليس السبب الأساسي لفتح بلاد اليمن على كل حال (٢) .

أما السبب الحقيقي لهذا الفتح فهو أن صلاح الدين كان يريد أن يطمئن كما سبق القول - إلى مكان يأوي إليه إذا هاجمه نور الدين وغلبه على أمره واضطره إلى الخروج منها (٣) . ولكنه تدرع أمام نور الدين

---

(١) الأبيات الشعرية التي قالها كثيرة نكتفي منها ما يأتي :-  
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به      إلى سواك وأور النار في العلم  
وتخلق ملكاً لا يمسس بفخره      على أحد إلا على عزمك العلي  
ومنها قالوا إلى اليمن اليمون رحلتهم      فقلت ما دونه شيء سوى السفر  
سير يسر بن الدنيا وطيب الثنا      وطول عمر كذا يحكي عن الخضر

أنظر الروضتين ج ١ ص ٢٨٧ القرظي السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٢) يقول ابن أبي طي أن شريكاً من أهل اليمن يسمى هاشم بن غانم كتب إلى عمارة يبلغه استمداده بمساعدة الحملة المصرية وذلك لأن ابن المهدي اعتدى على ذلك الشريف الذي أراد أن ينتقم لنفسه . وعلى كل فقد يكون ذلك طاملاً من هوامل مجاح الحملة . راجع الروضتين ج ١ ص ٢١ .

(٣) يقول إبراهيم الحنبلي (شفاء القلوب) ص ١١ السبب في ذلك «فتح اليمن» أن صلاح الدين كان يخشى أن يخرج نورالدين من مصر فأراد أن يحصل بلداً يلجأ =

بأسباب دينيه هي إجلاله المهدي الخارجي عن زبيد وطررد بنى كرم الشيعيين عن عدن (١) فأذن له نور الدين وهناك سبب آخر هو أن بلاد اليمن كانت تعتبر مكملة لمصر في ذلك العهد إذ الواضح أن صلاح الدين حاول بعد أن استقر في مصر أن يفتح ملحقاتها ويؤمن حدودها ويؤيد ذلك حملاته الحربية على الشوبك والكرك وأيله وبرقه والنوبة تلك الحملات التي سبق الكلام عليها .

. والخلاصة أن صلاح الدين أرسل أخاه تورانشاه لفتح اليمن (٢) . فسار ذلك القائد الأيوبي في أسطول بحري وجيش برى وخرج وهو في طريقة علي الحجاز زائراً ثم استمر في طريقه إلى اليمن حيث لم يجد

---

== إليه عند الحوف فلم تعجبه النوبة فسار إلى اليمن بعد أن استئذن نورالدين . راجع في ذلك أيضا ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١١٧ ، ابن واصل مفرج الكروب ص ٤٢ ويذهب ابن شداد إلى أن صلاح الدين رأى قوته العسكرية وعدد اخوته وقوته بأسهم وبلغه خبر ابن المهدي فأراد أن يستغل قوته في اخضاع ذلك الخارجي « راجع سيرة صلاح الدين ص ٣٦ » .

علي أنه لا ينتظر أن يذكر ابن شداد أكثر من هذا وهو الذي يلاحظ عليه شدة التحفظ في التعرض للعلاقة بين نور الدين وصلاح الدين .

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة تورانشاه .

(٢) يذهب ابو المحاسن ( النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧ ) إلى أن تورانشاه كان يرى في نفسه أنه أحق بالملك من صلاح الدين لأنه أكبر منه سناً، وأن تورانشاه كانت تبدو منه في حالة سكره كلمات في حق صلاح الدين . فأراد صلاح الدين أن يبعده عن مصر ولذلك أرسله إلى اليمن .

وربما كان رأى أبي المحاسن صحيحا في شرطه الأول . ولكنه بادي الضعف في الشرط الثاني لأن صلاح الدين لا يقامر بجزء كبير من جيشه لجزء أنه يريد أن يبعث أخاه تورانشاه وعلى كل فن المعنى المحتمل أن صلاح الدين كان يرى للفرصتين - أي فتح اليمن وإبعاد تورانشاه في وقت واحد .

مقاومة تدكر في فتحها فكللت مجهوداته عليها بالنجاح (١). والواقع أن لتلك الحملة مغزى بعيداً فلو أن صلاح الدين كان لا يزال مخلصاً لنور الدين لكان جديراً به أن يبعث بتلك الحملة لنشاط في حروب نور الدين بدلاً من أن ينامر بها في تلك الرحلة غير المأمونة العاقبة .

ومن مظاهر تلك الوحشة أيضاً أن نور الدين لم يعد يثق في صلاح الدين إذ أرسل إليه رسولا من قبله وصل إلى مصر في سنة ١١٧٣ (٥٦٩ هـ) هو خالد بن القيسراني (٢). ليكشف له أخبارها وليحاسب صلاح الدين على ما أخذ وما أتفق ويقدر عليه ما لا سنويًا يدفعه إلى نور الدين . واكن صلاح الدين استطاع أن يقنع ابن القيسراني بأن قدمه لم تستقر بعد في مصر وأن ذلك الاستقرار يحتاج إلى نفقات باهظة ثم عاد الرسول إلى نور الدين محملاً بالهدايا .

بقيت أمام صلاح الدين بعد ذلك مشكلة لعلها لا تقل خطورة عن المشاكل السابقة ذلك أن سلالة الفاطميين وأنصارهم رغبوا في أن يعيدوا دولة آبائهم وأجدادهم المنهارة . وقد قاموا بمحاولات لإرجاعها ، ووصل

---

(١) تراجع عن أخبار الحملة في اليمن — ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٧٨ —

١٧٩ ، ابن أبي طي (الروضتين ص ٢١٧) .

(٢) في هذا الصدد يقول ابراهيم الحنبلي « وبعث (نور الدين) خالد بن القيسراني أمينا على حواصل البلاد ( المصرية ) فأكرمه صلاح الدين وقال — نحن مما يليك نور الدين . افضل ما أمرك إلا أن جاعة من أكابر الدولة قد تصرفوا في أماكن لا يمكن نزعها منهم » وقال الحنبلي « فلم خالد أن طاعته بخادمة فسكت » أنظر شفاء القلوب ص ٢١ .

راجع أيضاً ، ابن واصل مفرج الكروب ص ٤١ والمقرئزي ، السلوك ج ١١

ص ٥١ — ٥٢ .

بهم الحد إلى الاتفاق مع الصليبيين كما فعلوا أول مرة - ليعضدوهم ضد صلاح الدين وكانت حركة - في الواقع - خطيرة ولكن صلاح الدين استطاع أن يتغلب عليها .

على أنه يمكن أن تقسم تلك المشكلة إلى حركتين مناوئتين لصلاح الدين إحداهما سرية والأخرى علنية . أما الحركة السرية فغايتها واضحة وهي إعادة الدولة الفاطمية : ولكن القائمين عليها اختلفوا فيمن يكون خليفة فرأى البعض أن تكون الخلافة في أنجال العاضد . ورأى البعض الآخر أن تكون في ذوى قرابته (١) . أما الفريق الأول فحجته النظرية التي تقول بالخلافة من الأب إلى الإبن . ولكنهم اختلفوا بعد ذلك أيضا إذ ترك العاضد ولدين . وكان اختلافهم على أيهما يكون خليفة . وأما الفريق الثاني فرأى أن يرشح للخلافة رجلاً قادراً من الفاطميين دون التقييد بمدى قرابته للعاضد حتى يستطيع أن يعيد الأمور إلى نصابها . وأن يكون كفتاً للكفاح ضد صلاح الدين . وكان من نتائج تلك الحركة أن أحد ابني العاضد وهو داؤود - الذي لقبه أنصاره بالحامد لله (٢) - قام يطالب بملك أبيه . وخشى صلاح الدين تلك الحركة فقبض على داؤود وسجنه (٣) سنة ١١٧٤ (٥٦٩ هـ) ولم يخرج من سجنه إلا بعد أن أمن خطره وخطر أنصاره . غير أن الدعوة السرية لم تستكن بعد القبض على داؤود . إذ ظلت بعده في ابنة سليمان

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢١ (٢) ابن واصل، مغرَج الكروب ج ١ ص ٤٦

(٢) المقرئى ، المخطط ج ١ ص ٣٩٢ .

(٣) ابن خلدون ، المبرج ٤ ص ٨٢ .

الذي خرج في الصعيد فقبض عليه صلاح الدين وسجنه حتى توفي (١). وبما يجدر ذكره أن ابن واصل الذي زار مصر سنة ٦٤١ هـ شاهد سليمان ولحظ شدة اهتمام أنصاره به . وآمالهم الكبيرة المعقودة عليه (٢) وقد امتد نشاط تلك الحركة خارج الحدود المصرية . إذ قامت ثورة أخرى بعد ذلك في بلاد المغرب تدعو لأحد أحفاد العاضد وهو محمد بن عبد الله بن العاضد ولكن الحركة أخفقت . إذ قبض على ذلك الحفيد وقتل (٣) وانتهى خطره .

وهذه هي الحركة السرية التي عمل اتباعها على مناوأة صلاح الدين والتي امتدت إلى ما بعد حياته . ولكنها لم تنجح في أغراضها لعاملين أساسيين أولهما أنها كانت حركة سلبية اقتصرت على الجدل النظري ولم تستطع أن تقوم بعمل إيجابي حاسم وثانيهما شدة يقظة صلاح الدين وحساسيته بدقة موقفه ، وقضاؤه على كل فتنة وهي في مهدها . أما الحركة الثانية فكانت خطيرة ، ولولا يقظة صلاح الدين وما كان يبثه حول أعدائه من العيون والأرصاد لآتت تلك الحركة على ملكة الناشئ من أساسه .

والرأى الذي يجمع عليه المؤرخون العرب هو أن تلك الحركة إنما قامت لإرجاع الدولة الفاطمية لذاتها . وهذا القول يحتاج في الحقيقة إلى تعديل فإن المتأمرين الذين قاموا بها لم يكونوا إلا أشتاتا جمع بينهم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٢ .

(٢) مفرج السكروب ج ١ ص ٣٥ ويذكر ابن واصل أن سليمان هذا توفي

سنة ٦٤٤ هـ .

(٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٨٢ .



الحق على الدولة الجديدة — دولة صلاح الدين — وقطعها لأرزاقهم  
ومناصبهم ، وقد عبّر رئيس المؤامرة وهو عمارة اليمى عن ذلك أحسن  
تعبير فى بيت من الشعر يقول فيه أن الدنيا قد صارت إلى بنى أيوب  
فلا ينبغي أن يشيعوا منها ويتركوهم جياعا (١) . فهم والحالة هذه —  
طلاب مناصب قبل أن يكونوا دعاة مبادئ . وحسب الباحث أن  
يذكر أنهم وزّعوا أولا وقبل كل شيء مناصب الدولة فيما بينهم (٢) ؛ أى  
أنهم أرادوا أن يطمئنوا إلى مناصبهم قبل أن يطمئنوا إلى قيام الدولة ،  
وفى معنى آخر أن مصالحهم الشخصية سبقت كل غرض آخر سواه

وإن نظرة واحدة إلى أسماء المتآمرين لتدل على أن المتآمرين جميعاً  
كانوا من أرباب المناصب فى الدولة الفاطمية ، وأنهم قاموا بحركتهم  
لتعود إليهم مناصبهم فكان على رأس المؤامرة عمارة اليمى الذى كان  
عند الفاطميين المتأخرين بمنزلة الوزير (٣) . ومن أعضائها البارزين  
داعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل ، وقاضى القضاة ابن كاهل والكاتب  
عبد الصمد وجماعه من بنى رزيك وآخرين من أسرة شاور والعوريس  
ناظر الديوان (٤) .

---

(١) فى هذا البيت الشعرى يقول عمارة :

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها فلا تشبعوا منها ونحن جياع  
أنظر الروضتين ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن واصل مفرج السكروب ج ١ ص ١٩٤٥ .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٠ .

(٤) المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٥٤ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٧٩

مفرج السكروب ج ١ ص ٤٤ .

وهناك دليل واضح يؤيد هذا الرأي وهو أن عمارة البني - رأس  
المؤامرة - لم يكن شيعياً في يوم من الأيام . بل لقد عرض عليه الفاطميون  
أكثر من مرة أن يعتنق مذهبهم فكان جوابه دائماً الرفض البات  
فكيف يقدم عمارة إذن على تلك الحركة ليقيم دولة لا يؤمن بعقائدها  
لقد أراد عمارة أن يستعطف صلاح الدين بعد أن ضاقت في وجه  
سبل العيش ، فلم يجد شيئاً ظن أنه يقربه إليه سوى أن يذكر له سابقه  
نصرته للذهب السنّي في مصر يوم لم يكن لهذا المذهب فيها ناصر (١)  
فالحقيقة التي لا شك فيها إذن هي أن أولئك المتآمرين أرادوا  
وظائفهم أولاً . أما إعادة الدولة فشيء يتلو ذلك ولا يسبقه .

ولتسكن سيرة عمارة نفسه مثلاً على ذلك . فقد مدح ذلك الشاء  
وزراء العاضد الفاطمي جميعاً دون استثناء . ونال جوائزهم وهباتهم  
جميعاً ، بالرغم من تناقض أولئك الوزراء ومجيبهم الواحد منهم على أنقاض  
الآخر . فلما جاء صلاح الدين ظن عمارة - وهو الشاعر الذي وفقه  
مدح أولئك الوزراء المتنافرين إن باستطلاعته الاحتفاظ بمركزه عند  
صلاح الدين . وطال انتظاره وهو يؤمل الحصول على عطفه ولكه  
انتظاره كان على غير طائل . فأخذ يستعطفه بذكر غلبانه ونسوة

---

(١) يقول عمارة في هذا المعنى مخاطباً صلاح الدين :

فإن كنت ترعى الناس لفته وحده	فنه طرازي بل لناحي وبرقي
ألم ترعى للشافعي وأنتم	أجبل شفيح عند أعلى مشفع
ونصرى له في حين لا أنت ناصر	بضرب صقيلات ولا طعن شرع
يسأل لاقته العراق بسمع	بمصر ولا ريح الشام بزعرع

و ديونه (١) . فلم يكن لذلك كله صدنى عند صلاح الدين .  
ويبدو أن حالة عمارة النفسية ساءت بعد ذلك . وأن اليأس قد  
بلغ به مبلغاً كبيراً (٢) . فكانت النتيجة الطبيعية أنه حقد على صلاح  
الدين ، وودّ لو رجعت أيام الدوثة الفاطمية . ورجع له برجعها  
مركزه الممتاز . ومن ثم اضطر إلى القيام بتلك المؤامرة . والظاهر أن  
عمارة أخير لرأسها بوصف أنه شاعر يجيد القول ويحسن التعبير من  
أغراضها والدعاية لها .

ومهما يكن من شيء فإن المؤامرة كانت واسعة النطاق . إذ فاض  
المتآمرون ملك صقلية النورماندى وملك بيت المقدس الصليبي ورئيس  
الاسماعيلية الحشيشية راشد الدين سنان لهاجموا الشواطئ المصرية في  
الوقت الذى يعلنون فيه الثورة على القاهرة (٣) . - وهذه هى نفس  
الخططة التى اتبعها نجاح من قبل - ووصلت أخبار المؤامرة إلى صلاح

---

(١) يقول عمارة مستطناً صلاح الدين .

أقت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر أقول لصدري كلما ضاع وسم  
أعقل غداً وخيلي ونسوتي بما سفت من عذر ضيف مرقع  
وضايقتي أهل الديون فلم يكن سوى بابسكم فيه ملاذى ومغزعى  
راجع النكت المصرية ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) مما يدل على ذلك قوله :

أنادى من الاخوان غير مجيب وأمنح بالأشعار غير مثيب  
وأقطع أياماً تقسول همومها لأنفاس نفسى كيف شئت فذوبى  
ومستجبد ما بال حالك حالكاً فقلت ستقام لم بين بطيب  
ولا خير فى أسجاع من جاع بطنه ولو أعربت يوماً بلعن هريب  
النسكت ج ١ ص ١٨٣ .

(٣) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٣ .

الدين على يد أحد أعوانه وهو زين الدين علي بن نجا الذي ظل يداخلهم ويشترك معهم حتى عرف خطاتهم كاملة . وعندئذ أدلى بها إلى صلاح الدين (١) . فأحضرهم واحد واحدا : فأقروا واعترفوا واعتذروا بقطع أرزاقهم وأخذ أموالهم (٢) . فاستفتى صلاح الدين العلماء بشأنهم فأفتوا بقتلهم وصلبهم . فشنقهم جميعا بما في ذلك عمارة النبي وكان ذلك في أبريل سنة ١١٧٤ (رمضان سنة سنة ٥٦٩ هـ) وأخذ صلاح الدين من بعد ذلك حذره فأمر بأن يرسل الجنود المصريون إلى أقصى الصعيد واشتد في مراقبة من بقي من سلالة الفساطميين (٣) . وبينما يرى ابن دقاق أن عمارة قتل لولوعه بمرأى العاضد والتعريض ببني أيوب (٥) . يرى الحنبلي أنه قتل لبيتين قاهلما من الشعر (٤) .

وهكذا نجح صلاح الدين في القضاء على تلك الفتنة ثم لم تلبث المشاكل المتعلقة بينه وبين نور الدين أن انتهت أيضا انتهاء تلقائياً إذ توفي الرجل الطيب القلب في ١٥ مايو سنة ١١٧٤ (شوال سنة ٥٦٩ هـ) وهو يستعد لغزو مصر (٦) :

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ص ١٨٠ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ص ١١٢ ، الحنبلي شفاء القلوب

ص ٢١ . ابن أبي علي (الروضتين ج ١ ص ٢٢٠) .

(٣) ابن الأثير ، السكامل ج ١١ ص ١٨٠ .

(٤) هذان البيتان ما :

واقه لا فاز يوم المحرظا المسكم ولا نجا من عذاب الله غير ولي

ولا رأى جنة الخلد التي وعدت من خان عهد الامام العاضدين على

شفاء القلوب ص ٢٠ .

(٥) الانتصار ج ٤ ص ٥٤ .

(٦) ابن واصل ، مفرج القلوب ج ١ ص ٤٨ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٦ -

على أنه يمكن أن تُفسر تلك الحركات جميعاً التي شهدتها مصر في آخر أيام الدولة الفاطمية تفسيراً أكثر سعة وشمولاً . وهو أن الطبقات الحاكمة في مصر - في ذلك الوقت - قد جنحت إلى أن تتعاون مع الأجانب للاحتفاظ بمناصبها ومصالحها الخاصة دون أن تفكر في الاستناد إلى الشعب للاحتفاظ بتلك المناصب والمصالح بالرغم من أن الغالبية الكبرى من الوزراء الفاطميين المتأخرين لم يصلوا إلى منصب الوزارة إلا بالاستعانة بالشعب . والدليل على ذلك شاور نفسه . فان ذلك الوزير لم يستطيع أن يهزم العادل إلا بعد أن حضر من ولاية قوص ، ومعه الجموع الغفيرة من العربان وأبناء الصعيد (١) . فلما اطمأن إلى منصبه تنكر لتلك الطبقات . حتى إذا نشب النزاع بينه وبين ضرعام لم يستطيع أن يلبأ إلى أنصاره مرة أخرى . بما اضطره إلى الاستعانة بنور الدين : وقد أراد شيركوه - فيما يبدو - خلال حملاته على مصر ، أن يفيد من تلك القوة الشعبية فتوغل في الصعيد غير مرة . وربما كان ذلك أساساً للسياسة التي سار عليها صلاح الدين ، وهي سياسة التقرب إلى الشعب بإلغاء المظالم وتخفيف المكوس والتساهل مع الطوائف الدينية وغير ذلك . وعلى أساس ذلك التفسير يمكن أن يفهم موقف كل من نجاح وعمار بنى وأمثالهما وجنوحهم إلى التعاون مع الصليبيين والحشيشيين والنورمانديين . بعد أن فقدوا ثقة الشعب ، وأصبح مساعدهم كله لمصالحهم الخاصة . فنجاح صلاح الدين - إذن - في التغلب على على تلك العقبات وعلى غيرها - بما يأتي ذكره - لا يرجع إلى قوة خارقة

---

(١) راجع الفصل الثالث .

أولاً ما يشبه ذلك من الأسباب المخالفة للعقل والمنطق . وإنما يرجع إلى أساس محسوس هو استناد صلاح الدين إلى قوة الشعب . وعمله على توفير أسباب الأمن والطمأنينة لهم وهذا بالإضافة إلى مختلف الأسباب التي سبق ذكرها ومن هنا يمكن أن يقال أن رضاء المصريين عن سياسة صلاح الدين ، وأخلاقهم إلى الهدوء والسكينة في عهده ، قد قطع على أعدائه خط الرجعة ، وأتاح لصلاح الدين الفرصة الملائمة والوقت الكافي للتفرغ لهم . فكان ذلك عاملاً هاماً من عوامل قيام الدولة الأيوبية في مصر .

والخلاصة أن صلاح الدين نجح نجاحاً تاماً في التغلب على ما صادفه من عقبات منذ أن أصبح وزيراً حتى وفاة نور الدين . وسواء أكانت تلك العقبات داخلية أم خارجية . ففضى على مؤتمن الخلافة نجاح ، وصدء الصليبيين عن دهباط ونجح في فتح اليمن . وفي تأمين الحدود المصرية . واستطاع أن يصمد أمام نور الدين حتى اندرجت الأيام - على حد قول والده أيوب - وتطورت لصالحه . وبذلك تحققت أطماع الأسرة الأيوبية على يديه فان الأساس الذي وضعه والده أيوب وشارك في بنائه عمه شيركوه . فلم يبق عليه بعد ذلك سوى بضع مشاكل داخلية وأخرى خارجية .

# الفصل الخامس

سلطنة صلاح الدين الأيوبي

وفاة نور الدين -- أغراض جديدة لصلاح الدين -- اسماعيل ابن نور الدين وخليفته -- أمراء دمشق -- أمراء حلب -- النزاع بينهما -- سيف الدين غازي -- سر نجاح صلاح الدين -- انتقال اسماعيل إلى حلب -- سعد الدين كشتكين -- القبض على ابن الداية -- خوف أمراء دمشق -- مكاتبتهم لسيف الدين غازي -- مكاتبتهم لصلاح الدين -- ترحيب صلاح الدين بالفرصة .

. حالة الصليبيين -- وفاة عموري -- ابنه بلدوين الرابع -- حالته الصحية -- وصاية رaimond الثالث عليه -- رaimond الثالث .

دخول صلاح الدين دمشق -- رسالة أمراء حلب إلى صلاح الدين -- غزوه لشمال الشام -- فتوحاته -- حصار حلب -- فشل الحصار -- وسائل أعدائه لهزيمة -- فشل تلك الوسائل -- إعلان صلاح الدين استقلاله -- رسالته للخليفة العباسي يطلب تقليده السلطنة -- أهميتها .

تغير سياسة صلاح الدين -- موقعة قرون حماة -- الصلح -- نقض الصلح -- موقعة تل السلطان -- انتصار صلاح الدين -- حصار حلب للمرة الثانية -- استيلاؤه على ما حولها -- فشل الحصار -- الصلح -- تأديب الحشيشية -- مهادنة الصليبيين -- عودة صلاح الدين إلى مصر -- بناء القلعة -- سور القاهرة -- تحصين الاسكندرية -- الأسطول -- نظام

المدارس — نظام التعليم — أثر ذلك في تاريخ مصر في العصور الوسطى.

\* \* \*

توفي نور الدين في ١٥ مايو سنة ١١٧٤ ( ١١ شوال سنة ٥٦٩ ) ،  
وزالت بوفاته الشخصية التي حسب لها صلاح الدين كل حساب ، غير أنه  
لم يظهر بمسرح الحوادث بالشرق الأدنى من رجال البيت الزنكي من  
يمكن أن يشار إليه بأنه أصلح من يكون خلفا لنور الدين . وكان لا بد  
من أن يتقدم أحد أفراد ذلك البيت أو أحد أمراء نور الدين ، ليملاً  
ذلك المكان الشاعر ، لأن السياسة التقليدية التي سار عليها الشرق الأدنى  
الإسلامي منذ أيام زنكي تطلبت أن يوجد بين المسلمين زعيم يستطيع أن  
يواجه الصليبيين بقوة إسلامية كبرى ، ولأن إسماعيل بن نور الدين لم  
يكن إلا طفلاً لا يصلح البتة للقيام بذلك الدور — وإن كان قد لُقِّبَ  
بالصالح — إذ لم تكن سنته — وقت وفاة أبيه ، تزيد عن الحادية  
عشرة (١) .

على أنه كان هناك من أبناء البيت الزنكي بمملكة الموصل أبنان  
لقطب الدين مودود أخى نور الدين وهما عماد الدين زنكى (الثانى)  
وسيف الدين غازى (الثانى) ، وقد كان من المنتظر أن يبرز أحدهما  
ليملاً مكان عمه نور الدين ، لو أنهما تعاونا معا على الوصول إلى تلك  
الغاية ، واستغلا الظروف السانحة التي سادت بالشرق الأدنى في ذلك  
الوقت . على أنه لم يكن هناك شيء من الوفاق بين هذين الأخوين ،

---

(١) ابن خلنكان ، الوفيات ج ٢ ص ٢٩ .



ومرجع ذلك أن أباهما قطب الدين مودود أوصى في حياته أن تكون مملكة الموصل لأبنته غازى متخطيا بذلك ابنه الأكبر زنكى . وقد فعل مودود ذلك نتيجة لمساعي زوجته خاتون ابنة تمرتاش وبإشارة من وزيره نجر الدين عبد المسيح .

أما خاتون فقد سعت لأبنتها لأن زنكى كان زوجا لابنة عمه نور الدين وقد خشى أن يكون في ولاية العهد له اندماج لأملاك مودود في أملاك أخيه نور الدين (١)

وسار زنكى إلى عمه نور الدين مستنصرا به ، فلما حدث في ذلك الوقت أن توفي مودود في ٦ سبتمبر سنة ١١٧٠ (٢٢ ذى الحجة سنة ٥٦٥) أخذ نور الدين يعمل على تسوية النزاع بين ابني أخيه ، ويبدو أنه انتهز تلك الفرصة ليفرض عليهما ما يشبه الحماية (٢) بدليل أنه ترك على قلعة الموصل - وهي عاصمة ذلك القسم الشرقي من البلاد الزنكية - خصيا من خصيائه هو كشتكين ، وأمر غازى « أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير ، على حد قول ابن الأثير (٤) .

وخلاصة هذا كله أن زنكى الثانى وغازى الثانى ابني مودود وأبرز رجال البيت الزنكى بعد نور الدين لم يكونا على شيء من الوفاق فيما بينهما ، فكان ذلك عاملا هاما من عوامل نجاح صلاح الدين فى كل خطوة من خطواته لأنه لم يجد من البيت الزنكى المقاومة الموحدة التى

---

(١) راجع ابن الأثير ، الكامل ح ١١ ص ١٥٩ - ١٦٣ .

(٢) Lane-Poole, Saladin p. 133

(٣) الكامل ح ١١ ١٦٣ .

تستطيع أن تقف أمام أطماعه ومراميه . وقد عبّر عن ذلك كمال الدين ابن الشهرزورى (١) أحسن تعبير في قوله ، هذا ( الخلف ) طريق إلى أذى يحصل بيت الأتابك زنكى ، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين ، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف ويطمع الأعداء ، (٢) .

وعلى ذلك فقد وضح أنه ليس من المنتظر أن يستطيع أحد هذين الأخوين أن يملا مكان عمه نور الدين ، كما بات واضحاً أيضاً أن يتقدم أحد أمراء نور الدين ليملأ مكانه كصلاح الدين مثلاً أو غيره من أولئك الأمراء . وكيفما كان الأمر فإن أمراء نور الدين حلفوا جميعاً -- بما فيهم صلاح الدين (٣) -- للسلطان إسماعيل وأعلنوا ولاءهم له فخطبوا له على المنابر و ضربوا باسمه العملة (٤) . وانفرد من بينهم بالوصاية على إسماعيل شمس الدين محمد بن المقدم أكبر أمراء دمشق وقد أغضبت تلك

---

(١) ينتسب أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبدالله الشهرزورى إلى بيت من بيوت العلم والدين وقد اختمن منذ نشأته بخدمة سيف الدين غازى الأول ثم بأخيه قطب الدين مودود ثم انتقل بعد ذلك إلى خدمة نور الدين محمود وناك في بلاطه مكانة ممتازة وقد ظل ابن الشهرزورى من بعد نور الدين مخلصاً لابنه إسماعيل حتى انتقل إلى خدمة صلاح الدين ، راجع ترجمة حياته في ابن خلدان بالوفيات ح ١ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٦٣ .

(٣) ذكر ابن الأثير ( المرجع السابق ص ١٨٢ ) أن صلاح الدين كتب إلى الملك الصالح إسماعيل يمزيه ويهنئه بالملك وأرسل إليه دنانير مصرية منقوش عليها اسم الصالح دليلاً على ولاءه له -- كما أعلن صلاح أنه مقيم على الولاء لإسماعيل كما كانت الحال أيام أبيه ، راجع أيضاً العيني ، عقد الجلال ج ٢١ ص ٥٤٦ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ح ١١ ص ١٨٢ .

الوصاية صلاح الدين في مصر كما أغضبت ابن الداية — أمير حلب من قبل نور الدين . أما صلاح الدين فقد أرسل إلى ابن المقدم — عقب سماعه بوصايته — يقول : لو علم نور الدين أن فيكم من يقوم مقامى أويثق إليه مثل ثقته إلى تسليم إليه مصر التي هي أعظم السكة وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى ، (١) ويبدو أن ابن المقدم أراد أن يقطع على صلاح الدين خط الرجعة وأن يثير عليه الرأى العام فكتب إليه يقول : لا يقال عنك أنك طمعت في بيت من غرسك ، ورباك وأسسك وأصق مشربك وأضفى ملبسك وأجلى سكوئك ملك مصر وفي دسته أجلسك ، (٢) . وكان من نتيجة تلك المراسلة أن وجد صلاح الدين نفسه مضطراً إلى القنوع بمركوه في مصر حتى لا يثير أمراء نور الدين عليه الرأى الإسلامى العام بدعوى أنه طامع في ملك نور الدين وفي الافتئات على حقوق ابنه إسماعيل . ولذا اكتفى في رده على ابن المقدم بأنه لا يطلب للإسلام والمسلمين إلا جمع الشمل ولا يبتغى البيت الزنكى الأتابكى إلا ما يدفع عنه الضرر ويحلب النفع ويحفظ له الأصل والفرع (٣) .

الواضح من هذا أن ابن المقدم أصبح وصياً على إسماعيل دون أن يشارك صلاح الدين في شيء من ذلك . وقد اقترح كمال الدين بن الشهرزورى على ابن المقدم وغيره من الأمراء أن يشاركوا صلاح الدين في مشاوراتهم بوصفه أميراً من أمراء نور الدين — حتى لا يتخذ من

---

(١) نفس المصدر ، أنظر أيضاً ، ابن واصل مفرج الكرب ج ١ ص ٦٠

(٢) راجع الروضتين ج ١ ص ٢٣٤ ، الحنبلى شفاء القلوب ص ٢٢ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٢٣٤ .

إغفالهم له حجة عليهم فيخرج عن إجماعهم ويعلن عدااه لهم (١). غير أن ذلك الرأى الصائب لم يجد قبولا عند أمراء دمشق إذ خشوا أن يكون في دعوتهم لصالح الدين ما يتيح له سبيل التدخل في أمور الشام (٢). على أن صلاح الدين لم يقتصر على مخاطبة ابن المقدم أو غيره من الأمراء فحسب وإنما كتب إلى إسماعيل نفسه—غداة وفاة والده— يقول له إن منعاة السلطان نور الدين قد وصلته عن طريق الصليبيين ويرجو ألا يكون الخبر صحيحاً ، ويعلن جزعه وحزنه على الحادث ثم يقول إن النصال تدخر للحوادث والرجال تصطنع الأيام ، وينصح بالاتحاد والوثام وعدم الاختلاف والتفرق خوفا من الأعداء ثم يعلن بعد ذلك أنه نصير للسلطان إسماعيل ولليبت الأتابكي ، لا يخذاه ولا يسلبه ، وأنه معه وعلى من هاداه أو ناوأه (٣). وفي هذا ما يدل على أن صلاح الدين أراد أن يتقرب من السلطان إسماعيل ابنزبل من نفسه آثار الوحشة التي حدثت بينه وبين والده نور الدين وليسهل عليه بعد ذلك أن يكون وصياً عليه .

اضطر صلاح الدين إذاً إلى أن يستمر فترة في مصرانتظاراً للفرصة الملائمة ليحقق مأرباً واضحا بمختلف الوسائل التي تقدمت الإشارة إليها، ثم حدثت خلال تلك الفترة عدة حوادث بين مدينتي دمشق وحلب كانت هي نفس الفرصة التي ينتظرها صلاح الدين . ومنشأ تلك الحوادث أن أمراء هاتين المدينتين أرادوا — كل فريق على حدة — أن يستأثروا

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٢ .

(٢) نفس المصدر راجع أيضاً ابن خلدون المبرج ج ٥ ص ٢٨٩ .

(٣) أنظر نص هذا الكتاب في الروضتين ج ١ ص ٢٣٠ ،

بالسلطان الطفل ليتخذوه ستاراً إلى السلطة والنفوذ . ومعنى ذلك أن  
اشرق الاسلامى الأذن الذى بذل زنى وابنه نور الدين ما استطاعا  
من جهد ليجعلاه قوة مؤتتده ضد الصليبين وغيرهم ، قد بات مهدداً من  
جديد بالرجوع إلى الوراى أى إلى الفوضى والتفكك والانحلال ، نتيجة  
لتنازع الأمرآ وإثارهم المنافع الخاصة على صالح المجموع ، ولعل فشل  
أولئك الأمرآ أخيراً يرجع إلى خطأ السياسة التى ساروا عليها وعدم  
ملائمتها لروح العصر ، على حين نجح صلاح الدين لأنه سار على المسبأ  
الذى أثبتت الأيام والحوادث صلاحيته وضرورة السير عليه منذ  
أيام زنى .

وعلى كل حال فقد ثار النزاع بين أمرآه شق وأمرآه حلب حول إقامة  
السلطان اسماعيل . والظاهر أن أكبر أمرآ نور الدين بحلب وهو ابن  
الداية لم يكن يشك فى أنه سيكون الوصى على اسماعيل (١) . ولكنه كان  
عند وفاة نور الدين مريضاً (٢) فتأخر لذلك السبب عن الوصول إلى  
دمشق عند تولية السلطان الجديد بها وإعلان وصاية ابن المقدم . ولهذا  
أرسل ابن الداية إلى اسماعيل يدعوه إلى حلب وحثه فى ذلك أن وجود  
اسماعيل فى حلب يحمى بلاده من ابن عمه غازى (٣) وكان غازى قد تحرك  
فعلاً بعد وفاة عمه نور الدين ، فاستولى على نصيبين والخابور وحران  
والرها والركة وغيرها من املاك نور الدين فى الجزيرة (٤) . أى أن

(١) العهد . الروضتين ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن الأثير ، السكامل ج ١١ ص ١٨٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٢—١٨٣ .

(٤) نفس المرجع ، أنظر أيضاً ابن واصل ، مفرج الكرب ص ١٠٩ .

سلالة البيت الأتابكي نفسه لم يستطيعوا أن يفرقوا بين مصالحهم الشخصية وبين ضرورة بقاء الدولة وحدة حتى تنتهى من مهمتها إزاء الصليبيين .  
ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يتخذ من اعتداء غازى على أملاك نور الدين ذريعة إلى السفر إلى الشام، بدعوى مساعدته اسماعيل وحمايته من ابن عمه غازى (١) إذ أرسل إلى اسماعيل - عند سماعه بذلك النبأ - يظهر استعدادة للحضور إلى نجدته . ولكن اسماعيل لم يوافق على ذلك بتأثير المحيطين به من أمراء دمشق . وهذا - في ذاته دليل يضاف إلى مختلف الأدلة السابقة على أن صلاح الدين كان يعرف كيف يدعو لنفسه في الوقت المناسب .

ويذهب ابن أبي طى إلى أن نور الدين أوصى بأن تكون إقامة ابنه اسماعيل بعد وفاته في حلب (٢) . لشدة وثوقه في إخلاص أمراء تلك المدينة له ولابنه من بعده . والواقع أن ابن الداية أمير حلب كان من أكبر الأمراء المقربين إلى نور الدين ، والسبب في ذلك - كما يذكر العماد الأصفهاني - أن أخاه الأكبر أبا بكر بن الداية أخو رضاع نور الدين وقد تربى معه ولزمه منذ بداية أمره ، فوثق فيه نور الدين وفي إخوته فولأه على حلب ، كما ولي أخاه هلياً قلعة شيزر ، حتى إذا توفي أبو بكر انتقل هذا الأخ الثاني إلى ولاية حلب فبقي عليها متمتعاً بثقة نور الدين . ومن الواضح أن تلك الأسرة كانت موضع الحظوة لدى نور الدين طوال عهده ، إذ كانت ولاية جعبر وتل باشر بيد أخ ثالث وهو سابق الدين عثمان

---

(١) ابن الأثير الكامل - ١١ ص ١٨٣ .

(٢) راجع الروضتين ج ١ ص ١٧٤ .

كما كانت مدينة حارم بيد أخ رابع وهو بدر الدين حسن (١) وإذا فليس عجيباً أن يعتبر ابن الداية أمير حلب أنه أحق الأمراء بالوصاية على اسماعيل ولكنه كان - كما سبق - مريضاً ، فلم يستطع أن يقوم بعمل إيجابي حاسم ، كأن ينتقل مثلاً إلى دمشق ليكون بجانبه وقت تنصيبه ملكاً .

وفي ذلك الوقت كان كشتكين - وهو الذي عينه نور الدين قبل وفاته على قلعة الموصل . قد فرّ عن غازي عند سماعه بوفاة سيده نور الدين (٢) . وحضر إلى حلب (٣) . فأرسله ابن الداية إلى دمشق في بعثة لاقناع اسماعيل بوجوب الانتقال إلى حلب ولكن ابن المقدم اتخذ أهبة فلم يستطع كشتكين أن يدخل دمشق وعاد بعد أن نهبت أثقاله (٤) على أن ابن الداية لم ييأس وأرسل كشتكين إلى دمشق مرة ثانية ونجح كشتكين تلك المرة في أن يدخل دمشق وأن يجتمع هناك بالسلطان اسماعيل وبأمرائه وأن يقنعهم بالانتقال إلى حلب . ووافق الأمراء ومن بينهم ابن المقدم على ذلك الطلب . وهكذا انتقل اسماعيل من دمشق إلى حلب في أغسطس سنة ١١٧٤ (٥) ( ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ ) .

وبدا كأنما أغراض ابن الداية قد تحققت ، ولكن الحقيقة هي أنه وأخوته كانوا أول الضحايا التي سببها انتقال السلطان إلى حلب ، إذ لم يكف كشتكين يدخل المدينة في ركاب اسماعيل ، حتى أخذ في الاستيلاء

---

(١) المهاد (الروصتين ج ١ ص ٢٣٢)

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨١ ، ١٨٣

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨١

(٤) ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٨٩

(٥) راجع ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٧

على قلعتهما ، ثم لم يلبث أن قبض على ابن الداية واخوته وأدوعمهم السجن (١) واستأثر هو بالأمر كله دون الجميع .

وقد كان لعمل كشتكين رد فعل في دمشق بالنسبة لابن المقدم ومن معه إذ بدأوا يوجسون منه خيفة وخافوا أن يمتد أذاه إليهم ، ولذلك أرادوا أن يحتاطوا لما عسى أن يقوم به ضدهم ، فأرسلوا إلى غازي يعرضون عليه دمشق ويطلبون حضوره لنفسها (٢) ، ولو كان غازي شخصية ناضجة مهتة للقيام بدور الزعيم وملء الفراغ الذي تركه عمه ، لما أفلتت منه تلك الفرصة ، ولكنه كان ككثيرين غيره من رجال ذلك العصر ، يكثرون عند الطمع ويقولون عند الفزع . إذ خاف أن يكون في الأمر مكيدة مدبرة ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق ، فيهاجمه ابن المقدم من وراء ظهره ويقطع عليه خط الرجعة (٣) . ولذلك لم يرفض غازي ذلك العرض السخى فحسب ، وإنما أرسل زيادة على ذلك إلى ابن المقدم يفاوضه على إقرار ما بيده . وانتهت المفاوضات بالموافقة (٤) وقنع غازي بما استولى عليه من أملاك نور الدين في الجزيرة . أما السلطان اسماعيل فإنه بقي بحلب في يد كشتكين ، حتى ليقول ابن الأثير إنه تمكن منه تمكناً يقارب الحجر عليه (٥) . عندئذ أرسل ابن المقدم إلى صلاح الدين بمصر

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٨ ، ابن خلدون المبرج ٥ ص ٢٨٩

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٧

(٣) حلق ابن الأثير ( الكامل ج ١١ ص ١٨٧ ) على موقف غازي بيت من

الشعر هو :

رى الجبناء أن الجين حزم وتلك طبيعة الرجل الجبان

(٤) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٧٩

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٧



يعرض نفس العرض (١) الذي رفضه غازى ، وهو المنصور إلى دمشق وهذه هي الفرصة التي كان ينتظرها صلاح الدين .

تلك هي حالة المملكة النورية بالشام بعد وفاة نور الدين ؛ سلطان طفل لم يكن قد بلغ الحلم بعد ينافس في الاستحواذ عليه والاستئثار به جماعة من الأمراء ، لا يختلفون كثيراً عن أولئك الذين التفوا حول عرش المعتمد الفاطمي وغيره من الخلفاء الفاطميين المتأخرين . أما السليل القوي من بيت زنكي - إذا قورن بالصلاح إسماعيل - وهو غازى ، فقد كان لا يقل طمعا في ملك عمه الراحل وابن عمه الطفل عن ابن الداية وابن المقدم وغيرهما من الأمراء .

ويكتمل تصوير تلك الحالة وصف ما كان عاياه الصليبيون في ذلك الوقت . وخلاصته أن عمورى الأول ملك بيت المقدس استغل فرصة وفاة منافسه نور الدين ، واضطراب حالة المسلمين بعده وحاصر حصن بانياس في آخر مايو سنة ١١٧٤ ( آخر شوال سنة ٥٦٩ ) فأسرع ابن المقدم إلى مفاوضته ، واتت المفاوضات برفع الحصار عن ذلك الحصن بعد خمسة عشر يوماً نظير مبلغ من المال وإطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين (٢) وبما تجب الإشارة إليه هنا أن صلاح الدين لما سمع بذلك الصلح كتب إلى السلطان إسماعيل وأمرائه يستنكر ما وقع ، ويظهر استعداده للمعاونة

---

(١) المرجع السابق .

راجع أيضا ابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٣٩

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٤ ، ابن واصل منرج السكروب ج ١

ص ٦٠ و Stevenson P. 213.

ضد الصليبيين (١)، على أنه يمكن القول بأن صلاح الدين كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض آخر هو السفر إلى الشام بدعوة من إسماعيل نفسه وفي هذا المعنى يقول ابن الأثير ه وكان قصد (صلاح الدين) أن يسير له طريق إلى بلاد الشام يمتلك البلاد، (٢)، غير أن الأجل لم يمتد بعمورى الأول بعد ذلك طويلا إذ توفى في ١١ يولييه من تلك السنة .

كانت وفاة عمورى الأول خسارة كبرى بالنسبة للصليبيين . حقيقة أن المسلمين أصيبوا بمثل تلك الخسارة بوفاة نور الدين ، ولكن الفرق بين الحالتين واضح فقد وجد بين صفوف المسلمين من استطاع أن يملأ فراغ نور الدين وهو صلاح الدين على حين لم توجد مثل تلك الشخصية الكبرى بين الصليبيين . ذلك لأن عمورى لم يترك سوى ابنه بلدوين الرابع وهو طفل في الثانية عشرة من عمره . على أن صغر سن ذلك الوريث لم تكن وحدها موضع الضعف في شخصيته ، إذ كان فوق ذلك طفلا مريضاً أبرص (٣) لا يرجى له شفاء . ولذا اختير للصياغة عليه رايمند الثالث أمير طرابلس وهو صليبي مكث في أسر المسلمين ما يقرب من عشر سنوات (٤) ولم يطلق سراحه إلا قبيل وفاة نور الدين. (٥)

---

(١) يظهر أن صلاح الدين كان قد أعد عدته للسفر إلى الشام وقطع فعلا أربعة مراحل ولم يمنه من إتمام رحلته سوى عله بما تم من الصلح بين الصليبيين وابن المقدم راجع العماد (الروضتين ج ١ ص ٢٣١) وابن أبي طي نفس المرجع ص ٢٣٣

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٤

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٩

(٤) Stevenson P. 213.

(٥) أسر نور الدين رايمند سنة ٥٥٩ عند حصاره حارم . ويستفاد مما ورد في ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٧٩) أنه لم يطلق سراح رايمند إلا بعد وفاة

غير أن ذلك الوصى لم يكن كفاً للقيام بما ألقى عليه من أعباء . بل أن إخلاصه للحرب الصليبية كان موضع الشك ويقال أن آراهه في حرب المسلمين لم تكن خالصة ، وإنما كان يشوبها الحرص على مصالحه الخاصة في طرابلس . ذلك أن رايمند الثالث رأى أن ما يمكن أن يناله بالمفاوضة أكثر فعلاً مما يستطيع أن يحصل عليه السيف . ولهذا لم يشأ بل لعله لم يستطع - أن يستغل ما حدث في صفوف المسلمين من اضطراب لصالح الصليبيين . ويتفرع على هذه المشكلة مشكلة أخرى وهى أن بلدوين الرابع بن عمورى كان ميثوسا من ذريته إذا تزوج فاستقر الرأى على أن تزوج أخته الأميرة سييلا من وليم منقرات (١) . غير أن ذلك الزواج الذى تم سنة ١١٧٦ ( نوفمبر ) لم يحل المشكلة بل زادها تعقيداً . إذا توفى وليم منقرات بعد سنة واحدة من زواجه بعد أن أعقب طفلاً . وعلى كل حال فليس هذا هو المجال لتعقيب تلك المشاكل الصليبية ، ويكفى القول بأن صفوف الصليبيين قد خلت بعد عمورى عن استطيع أن يحل محله في زعامة الصليبيين فكان ذلك عاملاً هاماً من عوامل نجاح صلاح الدين فيما بعد .

وهكذا اخلا الجوتاما أمام صلاح الدين في الشام ، إذ توفى نورالدين

---

نورالدين إذ أطلقه كشتكين سنة ٥٥٧ هـ نظير ١٠٠٠ دينار وألف أميرراجع أيضا العباد الروضين ج ١ ص ٢٤٠ ) إلا أن أبا الفرح بن الجوزى يذهب إلى أن رايمند أطلق من الأسر في حياسة نور الدين نفسه لا بعد وفاته . واجع المنتظم ج ٨ ص ٢١٦ .

وعمورى وأعقب كلا منهما طفل لا يرجى منه . أما المحيطون بهذين الطفلين فلم يكن صلاح الدين ليعبأ بهم كثيراً بعد أن جرّب من أمثالهم في أواخر أيام الدولة الفاطمية . والواقع أنه لم يبق أمام صلاح الدين من عقبة سوى أن يتحرك من مصر ليغامر في حوادث الشام ، ويحقق تلك الأغراض الجديدة التي استقرت في نفسه بعد وفاة نور الدين وخلاصتها أن صلاح الدين أصبح يعتقد بأنه الوريث الفعلي لنور الدين (١) — وهذا واضح من كتبه ورسله للخليفة العباسى ولغيره — وأن واجبه الاسمى هو إجلاء الصليبيين عن بلاد المسلمين . ولعل هذا هو السبب في أن صلاح الدين لم يتسرع في جهاد الصليبيين ، وإنما أراد أولاً أن يجهز «المسرح» تجهيزاً حسناً ، حتى إذا بدأ حروبه لم تكن غايتها مجرد مبادلة الهزيمة والنصر وإنما طرد الصليبيين نهائياً من أرض الشام . والواقع أنه لو لم يتدخل صلاح الدين في أمور الشام لانقسمت أملاك نور الدين إلى إقطاعات صغيرة وعجز الشرق الأدنى عجزاً تاماً عن مقاومة الصليبيين ، وهذا هو الاتجاه الذى بدأ واضحاً بعد وفاة نور الدين .

وبالرغم من ذلك فإن صلاح الدين لم يتسرع بالسفر إلى الشام وظل في مصر هو إلى خمسة أشهر ، ومرجع ذلك أنه أراد أن ينتظر حتى تسنح الفرصة المناسبة للانتقال إلى الشام (٢) — كما سبق القول — بدعوة من السلطان إسماعيل أو من بعض أمرائه حتى ينفي عن نفسه تهمة الهجوم والعدوان ، وهذا واضح من مكاتبتة لإسماعيل عند مهاجمة غازى

---

Stevenson P. 205 (١)

Ibid P. 209 (٢)

والصليبيين لأملاك مظهر آ استعداده للحضور إلى نجدته .

على أن انتظار صلاح الدين لتلك الفرصة لم يكن السبب الوحيد لبقائه في مصر إذ تعرّض صلاح الدين خلال تلك المدة لأزميتين كبيرتين لم يستطع إزاءهما ترك مصر إلى الشام. أما أولاهما فكانت ذبلاً للمؤامرة عمارة النيني وسببها أن أخبار القضاء على تلك المؤامرة في مهدها لم تصل ولیم الثاني النورمانی ملك صقلیه وإن كانت قد وصلت إلى ملكة بيت المقدس وإلى الاسماعيلية الذين سبقت الاشارة إلى اتقاقهم مع زعماء المؤامرة على مهاجمة الشواطئ المصرية في الوقت الذي تكون الثورة فيه قد أعلنت في القاهرة (١) . أما ملك بيت المقدس فقد علم بنسقوط المؤامرة فلم يتحرك من فلسطين (٢) . وأما ولیم الثاني النورماندی فقد بعث بحملة إلى الاسكندرية حسب اتفائه المبيد مع المتآمرين. ووصلت الحملة إلى الاسكندرية في يوليو سنة ١١٧٤ ( ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ ) على حين غفلة من أهلها - كما يقول ابن الأثير (٣) - وتقدم رجالها إلى المدينة فصبوا عليها الدبابات والمنجنیقات وأسرع أهل الاسكندرية بإخبار صلاح الدين ومضى اليوم الأول والاسكندريون يقاومون في بسالة وصبر وفي اليوم الثاني وصل لنجدتهم من الجيش المصری من كان إقطاعه قريباً من الاسكندرية (٤) . فشجع ذلك الاسكندريين على المضى في

---

(١) أنظر الفصل الرابع

(٢) Stevenson P. 203

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٦

(٤) نفس المرجع السابق .

المقاومة . أما صلاح الدين فقد وصله الخبر وهو على فاقوس (١) فأسرع بإرسال رسول من قبله إلى الاسكندرية . ايبانخ بقرب وصوله ، ثم بعث بفريق من جيشه إلى دمياط (٢) . خوفاً من أن تكون قد وصلت إليها حملة صليبية أخرى - وهذا مثال واضح لمدى يقظة صلاح الدين ومقدار أفادته من خبراته السابقة . ووصل رسوله إلى الاسكندرية عصر اليوم الثالث والاسكندريون منصرفون من المعركة فنادى الرسول بقرب نجى صلاح الدين فلما سمع الناس نداءه عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه ، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله ، وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عسكره فسقط في أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً ثم هاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموا بما فيها من الأسلحة الكثيرة ، (٣) وكانت نتيجة ذلك أن هزم النورمان وغادروا الاسكندرية مخفقين قبل أن يصل إليها صلاح الدين (٤) .

تلك هي الأزمة الأولى التي صادفها صلاح الدين في مصر في أواخر سنة ١١٧٤ . أما الأزمة الثانية فقد كانت في أسوان وقوص وسببها أن كنز الدولة وهو مصري من الصعيد نزح إلى أسوان (٥) . بعد فتنة

---

(١) المتريزي ، السلوك ج ١ ص ٥٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ص ٦٢١ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٦ . راجع أيضا العماد (الروضتين ج ١ ص ٢٣٤-٢٣٥ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٦٢ .

(٣) نص كلام ابن الأثير في الكامل ج ١١ ص ١٨٦ وابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٣٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٧ ، الروضتين ج ١ ص ٢٣٥ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٦٢-٦٣ .

مؤمن الخلافة نجاح ، واستتباع هناك أن يجمع حوله بقايا الجنود  
السودانية وغيرهم من أنصار الدولة الفاطمية ولما أنس ككز الدولة  
من نفسه القوة لمناهضة صلاح الدين ، قام بحركة يبغى بها إعادة الدولة  
الفاطمية (١) فقتل بعض أسراء صلاح الدين في تلك الجهات. وفي الوقت  
نفسه خرج عباس بن شادي في قرية طود واستولى على بعض بلاد قوص  
فأرسل صلاح الدين إلى هذين الخارجين أخاه الملك العادل بجيش  
كثيف وما زال العادل حتى قتل ابن شادي وبدد جموعه ثم التقى العادل  
بككز الدولة في طود وقتله أيضاً (٢) وانتهت تلك الحركة كلها في سبتمبر  
سنة ١١٧٤ ( صفر سنة ٥٧٠ هـ ) .

وإذن فقد كانت ظروف صلاح الدين مؤاتية وبدأت خالية من المشاغل  
الداخلية عندما وصلته رسل ابن المقدم تطاب حضوره لتسلم دمشق. على  
أن صلاح الدين لم يكتف بتلك الدعوة كحجة يبرر بها سفره إلى الشام ،  
بل أخذ يذيع بين الناس أنه إنما يريد أن يكون بجانب ابن سيده المتوفى  
ليحافظ على أملاكه من الطامعين والمغامرين ، وليرد له جميل والده القديم  
عليه وعلى أسرته (٣) .

وفي استطاعة الباحث أن يعرف الأسباب التي تدرع بها صلاح الدين  
للذهاب إلى الشام — كما ذكرها بنفسه — من إحدى رسائله إلى الخليفة  
العباسي . وفي إحدى تلك الرسائل برز صلاح الدين مغادرته مهصر إلى

---

(١) المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٨ .

الشام بما أصبحت عليه الدولة النورية من تشعب الآراء وتشتت الأمور وطمع أمراء نور الدين فيما تحت أيديهم من أملاك ، تلك الحالة التي لا بد من أن تزيد من أطماع الصليبيين في بلاد المسلمين . واحتج صلاح الدين في تلك الرسالة بالقبض على كبار أمراء نور الدين في حلب ومنهم ابن الداية وإخوته وبما وصله من قيام بعض أمراء دمشق بالتقرب إلى الصليبيين . كما أعلن صلاح الدين بأنه عزم على جهاد الصليبيين وهو ما لا يستطيع أن يقوم به خير قيام دون أن يكون قريباً من أملاكهم أى في بلاد الشام نفسها ، وكان ختام تلك الأسباب التي تدرع بها صلاح الدين أنه يريد أن يحفظ السلطان إسماعيل من يحيطون به من أمراء « يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه (١) » .

والقارىء لتلك الرسالة يلحظ إلى أى حد عمل صلاح الدين على أن يكسب الرأى العام الإسلامى وذلك بإعلانه الجهاد ضد الصليبيين ، وحملة على الأمراء النوريين الذين التجأوا إليهم أو تحالفوا معهم ، ثم بإعلان مسخطة واستيائه من أعمال كشتكين وقبضه على ابن الداية وأخوته وغيرهم من أمراء نور الدين ، وهذا عدا ظهوره بمظهر المدافع عن مصالح السلطان إسماعيل الحافظ لحقوقه الناكر لحق أبيه نور الدين عليه . ومن ذلك يتضح أن صلاح الدين نجح في أن يحول الأمر من مسألة خاصة تهمة بالذات إلى مشكلة عامة تهمة للجميع . وبذلك استطاع أن يكسب القلوب وأن يشعر المعاصرين بأن نجاحه إنما هو نجاح للفكرة الإسلامية

---

(١) راجع هذه الرسالة في الروضتين ج ١ ص ٢٤١-٢٤٣ .



وأن فشله يهدد قواهم المتحدة بالانهلال ويعرض أهلاك المسلمين للضياع على أيدي الصليبيين . وهذا عامل آخر من عوامل نجاح صلاح الدين إذ نجح في الظروف التي فشل فيها غازي . لأنه سار على السياسة التي يرتضيها المعاصرون والتي تشبع رغباتهم المكبوتة ، على حين لم يستطع غازي أن يفهم تلك الروح أو أن يسير على تلك السياسة .

والخلاصة أن صلاح الدين أخذ يتجهز للسفر في النصف الثاني من سنة ١١٧٤ ( أوائل سنة ٥٧٠ هـ ) وكانت رسل ابن المقدم وابن جاولي صاحب بصرى لا تزال مقيمة بمصر تستحثه على الأسراع (١) . وترك صلاح الدين على مصر أخاه الملك العادل (٢) ثم خرج إلى بركة الفيل وانتظر هناك حتى اجتمعت عساكره ثم رحل منها إلى بليس ثم إلى بصرى (٣) حيث رحب به حاكمها ومنها خرج إلى صرخد ثم إلى دمشق (٤) فدخلها في آخر أكتوبر من تلك السنة ( ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ) وقد دخل صلاح الدين دمشق بعد مقاومة يسيرة (٥) وهذا واضح من إحدى الرسائل الدورية التي كان يكتبها القاضي الفاضل إلى

---

(١) العهد الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ .

(٢) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٨ .

(٣) يرسم المقرئى خط سير صلاح الدين إلى الشام بشكل مختلف فيقول أنه نزل أولاً بالجب وهو منتزه يقع بظاهر القاهرة من الجهة الشمالية ثم سار إلى قلعة صدر ثم إلى إيكة بصرى . راجع السلوك ج ١ ص ٥٨ .

(٤) Grousset P. 621 .

(٥) يقول أبو المحاسن ( النجوم ج ٦ ص ٨٣ ) أن ريجان الخادم عزم على قتال صلاح الدين وجيز لذلك الغرض جيشاً . فلما التقي بصلاح الدين نشر صلاح الدين على جيشه ، دبحان الدراهم والدنانير . فلم ينفق في وجهه باب ولا منعه مانع .

مضر على اسان صلاح الدين (١) وما يمتحق الذكر أن صلاح الدين لم يكذب يدخل دمشق حتى ذهب إلى دار العقيقي (٢) وهي مسكن أبيه أيام إقامته بدمشق .

ثم بدأ صلاح الدين بمكاتبة جمال الدين ربحان حاكم القلعة بدمشق حتى أقنعه بتسليمها (٣) . ثم تسلّمها فعلا وأنزل بها أخاه ظهير الدين طغتكين (٤) وأخذ صلاح الدين من بعد ذلك يذيع أسباب مجيئه ويؤكد أنه إنما جاء ليقم بجانب ابن سيده المتوفى ولحمايته من ابن عمه غازي وغيره من الأمرام المستبدين بشؤونه . وكذلك أصدر أوامره بإزالة المكوس والمظالم وإصلاح الحال التي اختلفت وتغيرت من بعد وفاة نور الدين (٥) ، وهذه هي الخطة نفسها التي سار عليها غداة توليه الوزارة في مصر .

استقرت إذن قدم صلاح الدين في دمشق . فإذا كان موقف سعد الدين كشتكين منه ، لقد سمع كشتكين بما ناله صلاح الدين من نصر وتأييد فأشفق هو ومن يؤيده من أمرام نور الدين بحلب على أنفسهم وخافوا أن يقصدهم (٦) ولذلك أجمعوا رأيهم على أن يكتبوا إليه يخوفونه ويهددونه ويتهمونهم بالاعتداء على ابن سيده صاحب الفضل عليه، وحمّلوا

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ١٨٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٨ .

(٤) المقرئى السلوك ج ١ ص ٨٥ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) ابن أبي طي ( الروضتين ج ١ ص ٢٣٧ ) .

ما كتبوا لقطب الدين ينال بن حسان المنبجى - وهو أحد القواد الذين أرسلهم نور الدين إلى مصر في الحملة الثالثة وكانت رسالة أُرعد فيها الأمراء النوريون وأبرقوا، على حد قول ابن أبي طى (١) إذ قالوا فيها أن السيوف التي ملكته مصر بأيديهم والرماح التي حوى بها قصور المصريين على أكتافهم، هي التي ستصدّه وترده عن حلب وترجعه إلى طوره وحده (٢).

ثم وصل المنبجى إلى دمشق بعد استيلاء صلاح الدين عليها بقليل يحمل تلك الرسالة. وكان صلاح الدين لبقاً حقاً حينما خرج للقائه خارج المدينة (٣) مبالغة في إكرامه والترحيب به، على أنه تركه دون أن يقابله (٤) ثلاثة أيام. ثم أحضر المنبجى إلى صلاح الدين، فذكر ما في الرسالة وأتهم صلاح الدين بافتئاته على حقوق السلطان إسماعيل وطمعه في أملاكه. لكن صلاح الدين أغضى عن كل ما سمع - شيمة الرجل القوي الواثق من نفسه - وأكد للمنبجى أنه لا يريد ملكاً لنفسه وأنه لم يحضر إلى الشام إلا لجمع الكلمة وتهذيب الأدور وحيطة الجمهور وسد الثغور وترية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين (٥)، وانتهت

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع. وراجع أيضاً العباد (المرجع نفسه ص ٢٤٠) والخنبلى

شفاء القلوب ص ٢٢.

(٣) العباد الأصغرى (الروضتين ج ١ ص ٢٤٠).

(٤) ابن أبي طى المرجع نفسه.

(٥) نص كلام ابن أبي طى بالروضتين ج ١ ص ٢٣٨. راجع الخنبلى (شفاء

القلوب ص ٢٢) حيث يقول أن صلاح الدين غضب لدى سماعه لكلام المنبجى وهم

بأن يقتله لولا أنه رسول إليه.

المقابلة بين الرجلين دون أن يستطيع أحدهما إقناع الآخر فعاد المنبجى إلى حلب غاضباً . وفهم صلاح الدين من ذلك أن كشتكين لن يسلم له بالوصاية على الصالح اسماعيل . وعندئذ صمم على غزr الشام . والراقم أن الأسباب التي أعلنها صلاح الدين لتبرير مجيئه إلى الشام ولو أنها ظاهرة ، كانت كافية لإغضاب أولئك الأمراء . فليس هناك معنى لرغبته في الوصاية على اسماعيل إلا أنه يريد أن يطرد من حوله من الأمراء . وهذا السبب وحده كاف لإثارة المشاكل بينه وبينهم وقد عمد كشتكين ومن معه من الأمراء إلى محاربة صلاح الدين بنفس السلاح الذي اختاره لمحاربتهم . إذ أذاعوا أن صلاح الدين جاء ليستحوذ على أملاك السلطان اسماعيل . ومعنى ذلك أن ذلك السلطان الطفل أصبح ستاراً للفريقين كل يدعى أنه يعمل لمصلحته ويدافع عن أملاكه والحقيقة أن مصلحة اسماعيل كانت آخر ما يفكر فيه الجميع .

ثم خرج صلاح الدين من دمشق في أواخر سنة ١١٧٤ متجهاً إلى حمص فوصلها في ٨ ديسمبر ( ١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ ) ولم تلبث المدينة أن سلمت إليه وامتنعت عليه القلعة (١) . غير أن صلاح الدين لم يثنأ أن يضيع وقته عليها فترك عليها من يحاصرها ثم غادرها إلى حماه ووصل إلى تلك المدينة في ٢٨ ديسمبر ( أول جمادى الثاني ) فخرج إليه صاحبها عز الدين جرديك — وهو زميله القديم في القبض على الوزير شاور وقتله — وسلكه حماه دون قلعتها التي لم تكن تحت يده ، وذلك بعد أن استخلفه أن يكون وفيأً للسلطان اسماعيل (٢) . ثم اتفق الاثنان على

(١) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٨ .

(٢) المنصر نفسه ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٦٣ .

أن يكون جرديك سفيراً بين صلاح الدين وبين مدينة حلب لإقرار الصلح ومنع القتال . فلما وصل جرديك إلى حلب وفتح كشتكين في أمر الصالح اتهمه كشتكين بممالأته لصلاح الدين وقبض عليه (١) . وأودعه الحبس الذي أودع فيه ابن الداية واخوته . أما صلاح الدين فقد ظل ينتظر أوبة جرديك حتى وصل أحد غلمانه وأخبره بما حدث فعاد إلى حماة ونجح تلك المرة في أخذ قلعتها (٢) . وولى عليها أحد رجاله ثم غادرها إلى حلب .

ووصل صلاح الدين إلى ظاهر حلب في ٣٠ ديسمبر سنة ١١٧٤ (٣ جمادى الأولى الثانية) ونشر أعلامه . فخشى كشتكين أن يسلم إليه الحلبيين المدينة - كما حدث في دمشق - وأخذ يستثير حماسة الناس كما أشار على الصالح أن يخطبهم . ومن أجل ذلك أمر كشتكين أن يجتمع الناس في أحد الميادين العامة ووقف الصالح في رأس الميدان وخطبهم خطبة قصيرة (٤) . ولكنها مؤثرة إذ أحنقته العبرة خلال كلامه . فعلا تشجيع الناس واشتد صياحهم وأعلنوا في صوت واحد الوقوف إلى جانبه ضد صلاح الدين (٤) . ولم تقتصر سياسة كشتكين إزاء الحلبيين على ذلك

(١) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٨ . ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٨ .

(٢) راجع ابن أبي طي (الروضتين ج ١ ص ٢٣٨) .

(٣) نص تلك الخطبة حسبما وردت في الروضتين ج ١ ص ٢٣٨ هو « يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم واللاجئ إليكم كبيركم عندى بمنزلة الأب وشابكم عندى بمنزلة الأخ وصغيركم عندى يحمل محل الولد ثم خنقته العبرة وسبقته الدهمة وعلا نشيجه فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بهائمهم وصجوا بالبكاء والمويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أهلك تقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك .

(٤) يقول ابن الأثير أن صلاح الدين لما حاصر حلب ركب الملك الصالح وجمع =

بل تساهل مع الشيعة وترك لهم حرية العمل بمذهبهم فجهروا « لأول مرة بعد وفاة نور الدين ، بجي على خير العمل وبذكر الأئمة الاثني عشر أمام الجنائز (١) وهكذا أى أن ما كان يحاربه نور الدين في حياته . استباحة الوصى على ابنه بعد وفاته لا اسبب إلا لكي يستقل ذلك الابن وينفذ بإسمه أغراضه . وقد أراد صلاح الدين أن يقبض يوم تلك الخطوة الماهرة فأعلن من جديد أنه جاء لاستخلاص ابن الداية من سجنه . ولعل صلاح الدين كان يؤمل أن ينضم إليه أنصار ذلك الأمير من أهل حلب ولكن ذلك لم يجد نفعا في دخوله المدينة .

على أن كشتكين لم يعتمد فقط على الحلبيين بل ظل يحيك الدسائس ويدبر المؤامرات للقضاء على صلاح الدين . ومن ضمن ما فكر فيه ونفذه للوصول إلى ذلك الغرض أنه راسل سنان مقدم الحشيشية — وهو الذى سبق أن استعان به عمارة الينى قبل أن يقبض عليه ويشنق (٢) — للفتك بصلاح الدين نظير عدد من القرى ومبلغ من المال (٣) . كما استعان برايمند الثالث (٤) . الوصى على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس . أما سنان فقد أرسل جماعة من رجاله اختلطوا بجيش صلاح الدين ولكنهم

---

== اهل حلب وقال لهم : قد عرفتم إحسان أبى إليكم ومحبتته لكم وسيرته فيكم وأنا يتبعكم وقد جاء هذا الظالم ( صلاح الدين ) الجاحد إحسان والذى إليه يأخذ بلدى ولا يراق الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثير وكى فأبكى الناس فذلولوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده . راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٩

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ - ٢٣٩ .

(٢) راجع ما سبق ص ١٢١ .

(٣) ابن أبى طى ( الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ ) .

(٤) ابن خلدون العبرج ٥ ص ٢٩٠ . Grousset vol II P. 622 .

فشلوا في اغتياله . وأما رايمند الثالث فقد قصد إلى حصص التي سبق القول بأنها خضعت لصلاح الدين وكان رسول رايمند إليها في أول فبراير سنة ١١٧٥ (٦ ربيع الأول) فاضطر صلاح الدين إزاء ذلك إلى رفع الحصار عن حلب للملافة رايمند على حصص وكان وصوله إليها في اليوم التالي كافياً لرحيل الصليبيين عنها ورجوعهم من حيث أتوا (١) . واغتم صلاح الدين تلك الفرصة فاستولى على قلعة حصص وهي التي ظالت على مقاومته حتى ذلك الوقت . ثم أقطع المدينة وقلعتها لابن عمه محمد بن شيركوه (٢) . وفي ذلك ما يستدعي الانتفات لأن تلك المدينة كانت إقطاع شيركوه أيام خدمته في بلاط نور الدين ثم استردها نور الدين من نوابه بعد أن علم باستقرار صلاح الدين في مصر (٣) - فكأن صلاح الدين قد أراد أن يرد بذلك اعتبار الأسرة الأيوبية . ثم استولى صلاح الدين على قلعة بعلبك بعد أن يدس حاكها من معونة حلب (٤) وهكذا فشل كشتكين في القضاء على صلاح الدين وهو في بداية مغامراته بأرض الشام ولكنه نجح — على كل حال — في فك حصار حلب .

لم يشأ صلاح الدين بعد ذلك أن يخفي نيته تحت ستار المطالبة بالوصاية على إسماعيل بل عزم على أن يجاهر باستقلاله (٥) ولهذا أرسل

---

(١) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٩ . ابن الأثير السكامل ج ١١ ص ١٨٩ .

(٢) راجع ابن الأثير وابن خلكان الوفيات ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) انظر الفصل الرابع .

(٤) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٩ .

(٥) Grousset vol II P, 626

إلى الخليفة العباسي رسالة طويلة (١) على يد الخطيب ابن البيضاء (٢). وذكر له فيها ما له من الأيادي البيضاء على المسلمين في حياة نور الدين وبعد وفاته وعدد الخدمات التي أدّأها للخلافة العباسية وطلب في ختامها أن يقلده الخليفة المستضيء تقليداً جامعاً لمصر واليمن والمغرب والشام وجميع ما اشتملت عليه المملكة النورية وكل ما يفتحه بسيفه. وما يدل على أن صلاح الدين كان يريد أن يؤسس لأسرته لا لنفسه فقط أنه طلب أيضاً أن يكون التقليد بحيث يشمل من يجيء بعده من بني أيوب. وهذه الرسالة في الواقع لا تمسك المبالغة في أهميتها بالنسبة لموضوع هذا البحث فقد استعرض فيها القاضي الفاضل - على لسان صلاح الدين - جهاد بني أيوب منذ إقامتهم بالشام في خدمة نور الدين وأهمية هذه الرسالة لا تقتصر فقط على أنها كشفت نوايا صلاح الدين التي حرص على إخفائها طوال تلك المدة. وإنما هي فوق ذلك وثيقة هامة على جميع خطوات الأسرة الأيوبية وفيها يكشف القاضي الفاضل أيضاً عن صفحة مجهولة من شباب صلاح الدين قيل أنه قضاهَا خاملاً والحقيقة هي العكس تماماً إذ يقول دكان أول أمرنا أن كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لحسنا كنا نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدي كسر أو مضاف للإسلام معه ضرب فما يجهل أحد صفتنا ولا يمجده عدونا أننا نصطلي الجرة ونملك الكرّة ونقدم الجماعة ونرتب المقاتلة وندير التعبئة إلى أن

---

(١) راجع نس هذه الرسالة بالروشتين ج ١ ص ٢٤١ - ٢٤٣ وأنظر

تلخيصها أيضاً في المترزلي بالسلوك ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) زيادة (السلوك ج ١ ص ٦ حاشية ١) .



ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ولا يضيرنا أن يكون لغيرنا ذكرها (١) .

هذه سطور من تلك الرسالة الهامة يكشف فيها صلاح الدين لأول مرة عن جهاده وجهاد أبيه وعمه في سبيل المسلمين ذلك الجهاد الذي يقول عنه إنه لا يضره أن يكون غيره ذكره - وهو يقصد هنا نور الدين - ما دام له عند الله أجره . فاذا تحدثت الرسالة بعد ذلك عن فتح مصر ذكر القاضي - في عبارة لا تقبل الشك - ما يفيد بأن بني أيوب فكسروا في الاستيلاء على مصر وهم لا يزالون في بلاط نور الدين وذلك حيث يقول وكانت أخبار مصر تأتينا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير (٢) ، وبعد أن وصفت الرسالة حالة مصر الداخلية في ذلك الوقت وصفاً يدل على تمام علم الأيوبيين بها يقول صلاح الدين وسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقلها ونسترجع للإسلام شاردها وتعيد غلى الدين ضالته منها (٣) ، ولعل في هذا كله ما يؤيد ما سبق قوله في هذا البحث من طمع الأيوبيين في مصر ورغبتهم في ملكها وهم لا يزالون بالشام . ثم تمضى الرسالة بعد ذلك فتبين أن بني أيوب فتحوا مصر بأموالهم الخاصة لا بأموال نور الدين وفي ذلك الصدد يقول القاضي على لسان صلاح الدين « فسرنا إليها في عساكر ضخمة وجموع جمة وبأموال اتهمت الموجود وبلغت منا المجهود وأنفقناها من حاصل ذمتنا وكسب

---

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) نفس المصدر .

أيدينا ومن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا (١) ، وعلى الجملة فإن رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله تعتبر وثيقة هامة إذ تكشف عن كل خطوة خطاها صلاح الدين وبنو أيوب بصفة عامة فتلقى بذلك ضوءاً كبيراً على موضوع قيام دولتهم فى مصر .

ومهما يكن من شيء فقد اختلف الوضع بعد أن أعلن صلاح الدين استقلاله وطلب من الخليفة العباسى تقليده الساطنة إذ اختلفت تبعاً لذلك سياسته . فقد كان أولاً يحارب باسم اسماعيل أو بمعنى أدق بدعوى حمايته ويدعى أنه إنما جاء لنصرته والدفاع عنه فلما فشل فى الوصول إلى أغراضه عن ذلك الطريق سلك طريقاً آخر هو طريق العمل العائى فقطع اسم الصالح اسماعيل من الخطبة وحذفه من العملة بالقاهرة ودهشق وقد يبدو أن صلاح الدين لم يكن فى حاجة إلى دن تقليد الخليفة العباسى أو غيره . وهذا صحيح من الناحية العملية . ولكنه وجد من ناحية أخرى أنه لا بد من الحصول على ذلك التقليد تثبتاً لمركزه شرعياً أمام المعاصرين .

وكان لتلك السياسة رد فعل بالنسبة للبيت الزنكى الأتابكى . فقد وضحت لأفراد ذلك البيت نوايا صلاح الدين على حقيقتها وفى صورة لا تقبل الشك أو الجدل وعرفوا تماماً ماذا يريد صلاح الدين بهم وبأملاكهم ومن ثم تجمعوا لمقاومته (٢) . وبما يدل على ذلك تمام الدلالة أن سبب الدين غازى وهو الذى آثر الابتعاد عن مشاكل الشام وقنع بما استولى عليه من أملاك نور الدين لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين

---

(١) نفس المصدر .

(٢) Grousset vol II p. 628

أمام الوضع الجديد ووجد أنه لا بد من تضافر أفراد البيت الزنكي لمقاومة صلاح الدين والتضامن عليه قبل أن يقضى هو عليهم ، ويبدو أن صلاح الدين خشى عاقبة اتحادهم فبدأ يوقع بينهم . والمثل الواضح على ذلك ما فعله صلاح الدين مع زنكي أخى غازى . إذ أرسل إليه يطمعه فى الملك ويوحى إليه بأحقية فيه (١) . فأنار بذلك كامن النزاع بين الأخوين وأوجد برسالته فى صفوفهما ثغرة وكان ذلك عاملاً آخر من عوامل نجاحه فى النهاية .

والمخلص أن غازى أحس أن صلاح الدين قد استفحل أمره وخاف إن هو غفل عنه أن يستحوذ على البلاد ويستقر قدمه فى الملك (٢) . وفى نفس الوقت وصلت إليه رسل السلطان اسماعيل وكتبه بطلب النجدة فجهز غازى من أجل ذلك عسكراً كثيراً جعل عليه أخاه الآخر مسعوداً (٣) . وسار الجيش إلى حلب وغايته القضاء على صلاح الدين وإيقافه عند حده وهناك انضم إليه جيش اسماعيل وانتظر الجميع المعركة .

كان صلاح الدين فى ذلك الوقت فى حمص (٤) فوصل إلى عليه ما أعد له ولم يكن على استعداد للاشتباك معهم . ولكنه لم يشأ أن يتراجع فيقطع فيه عدوه ولذلك أرسل يطلب المدد من مصر . ولكني يحول بين أعدائه وبين مهاجمته خلال فترة الانتظار أرسل يفاوضهم فى طلب الصلح

- 
- (١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٠ .
  - (٢) ابن شداد . سيرة صلاح الدين ص ٣٩ .
  - (٣) ابن خللكان . الوفيات ج ٢ ص ٩٤ .
  - (٤) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٩ .

واشتط المواصلة والخليون في شروطهم وهو يؤخرهم ويظاولهم فاذا عزموا هلى لقائه أبطل عزيمتهم ، بمراسلة يفتعلمها تسويفاً للوقت وقصلاً للزمان ، — على قول ابن أبى طى (١) — وبلغ صلاح الدين الأمر أنه عرض عليهم أن يتنازل عن حصص وحماة وبعليك هلى أن يبقى بدمشق نائباً للسلطان اسماعيل فيها (٢) . وبالرغم من ذلك فان غازى واسماعيل لم يقبلوا ذلك العرض السخى . وقد عمل صلاح الدين خلال تلك الفترة أيضاً على أن يفسد جيش أعدائه فكتب إلى فريق منهم يغيرهم بالانضمام إليه ويبدو أنه نجح فى إقناعهم فكانوا عند اللقاء من دعاة الهزيمة والفرار (٣) . وهكذا وجد صلاح الدين نفسه فى ذلك الموقف الحرج فاحتال وفكر وقدر حتى خرج منه ظافراً .

وأخيراً وصل المدد المشهود وفى الوقت المناسب أى عند بدء المعركة وعلى رأسه فرخشاه وتقى الدين عمر وغيرهما من شباب البيت الأيوبى وبدأت المعركة عند قرون حماة فى ١٣ أبريل سنة ١١٧٥ (١٩ رمضان سنة ٥٧٥٠ هـ) وانتهت بانصاره . كما هو معروف .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١١٠ .

(٣) ابن أبى طى الروضتين ج ١ ص ٢٥٠ .

(٤) بقول ابن شداد (سيرة صلاح الدين ص ٤٠) . لما وقت هذه الواقعة (قرون حماة) كان سيف الدين هلى سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله فى طاعته وكان قد أظهر أخوه الاتماء إلى السلطان (صلاح الدين) واعتصم بذلك واشتد سيف الدين (غازى) فى حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى انهزم من سورته ولم كثيرة وأشرف على الأخذ فبلغه وقوع هذه الواقعة فضاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله إلى الصالح فصالحه .

ويرجع السبب في انتصار صلاح الدين إلى النزاع بين غازي وأخيه زنكي (١). فقد شغل غازي في ذلك النزاع عن حضور المعركة بنفسه ثم يرجع ذلك الانتصار أيضا إلى جهل قائد غازي وهو المعروف بزلفندار (١) وهذا عدا ما انعقد لصلاح الدين من هبة ملأت صدور المعاصرين «ولو لا ذلك لسكانرا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض، كما يقول ابن أبي طي (٢).

وكانت نتيجة تلك المعركة أن وضح للسلطان اسماعيل ولابن عمه غازي أن لا جدوى في مقاومة صلاح الدين وأن الصلح معه خير وأبقى فأرسل اسماعيل إلى صلاح الدين رسله يطلب الهدنة وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يكون للصلح اسماعيل ما هو جار تحت حكمه في شمال الشام إلى حماة والعمرة وكفر طابه (٣). وأن يكون صلاح الدين عوناً له على كل عدو وأن يستمر الدعاء له على المنابر وأن تظل العملة باسمه وقمل صلاح الدين بعد تلك الهدنة راجعا إلى دمشق. فلم يكذب يصل إلى حماة في مايو سنة ١١٧٥ حتى وصلت إليه رسل الخليفة المستنصر ومعهم التشريفات والأعلام والتوقيع من الديوان الخلفي ببغداد بسلطنة صلاح الدين على مصر والشام وغيرهما (٤) - واستولى صلاح الدين وهو في

---

(١) راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٠ حيث يقول « وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين (غازي) » .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٥٠ .

(٣) المرجع السابق . وهنا يقول ابن أبي طي أن صلاح الدين اقترح أولاً حداً فاصلاً بين أملاك التمرقين فرفض السلطان اسماعيل ذلك ولم يوافق على الهدنة إلا بعد أن أضيفت إليه مع حماة المصرية وكفر طابه .

(٤) البهادر (الروضتين) ج ١ ص ٢٥٢ . المقرئى السلوك ج ١ ص ٦٠ .

طريقه على حصن باريه حتى إذا وصل دمشق جاءته رسل الصليبيين يطلبون الهدنة أيضا (١) - وهو ما كان يريده صلاح الدين - فوافق على طلبهم. وكان العام مجد باقاً ذن صلاح الدين لجيشه بالرحيل إلى مصر. أما هو فقد ظل فترة يواظب على الجلوس بدار العدل بدمشق وعلى الصيد (٢) في أرباضها وضواحيها .

وهنا يبدو أن صلاح الدين قد حقق ما انطوت عليه الأيام وأن قيام الدولة الأيوبية في مصر قد أصبح حقيقة واضحة بعد أن اعترف الخليفة للعباسي بسلطنة صلاح الدين وبعد أن قبل السلطان اسماعيل وابن عمه غازي تملك صلاح الدين لما تحتمت يده من أملاك . غير أن الصلح مع غازي واسماعيل لم يستمر طويلاً لما دعا صلاح الدين إلى استئناف النضال في سبيل دولته الناشئة من جديد . ذلك أن غازي نقض الاتفاقية بعد عام واحد من إبرامها وكان صلاح الدين مطمئناً إلى تلك الاتفاقية ولذلك سمح لجيشه بالسفر إلى مصر . وقد علم صلاح الدين بذلك عند ما وصلت إليه نسخة من يمين الحلبيين للبواصلة بنقض الاتفاقية (٣) . وانهز صلاح الدين تلك الفرصة وأراد أن يدعو لنفسه كزعيم للمسلمين لا يبغي إلا إجلاء الصليبيين عن بلادهم فكتب إلى الخليفة العباسي (٤) . يخبره بنقض غازي واسماعيل الاتفاقية التي أقمتها على احترامها وتنفيذها ومدى ما يصيب الجبهة الإسلامية من جراء ذلك

---

(١) السالك ج ١ ص ٥٩ .

(٢) الهامد الروضين ج ١ ص ٢٥٢ .

(٣) راجع الهامد ( الروضين ج ١ ص ٢٥٤ ) الخليل شفاء القلوب ص ٢٣ .

(٤) أنظر ذلك السكتاب بالرجع السابق .

من ضرر ووهن ثم طلب في كتابه إلى الخليفة أن يصدر أمراً للملك  
الأطراف ليرسلوا إلى صلاح الدين بجيوشهم حتى يستطيع أن ينصرف  
إلى جهاد الصليبيين وأن يستخلص منهم بيت المقدس ، الذي طابت  
النفوس عن ثاره وطأطأت الرؤوس تحت عاره وصارت القلوب صخرة  
لا ترق على صخرته والعزائم قاصيه عن تطهير أقصاه من رجس  
الشرك ومعرفته .

ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يثير الرأي العام الإسلامي ضد  
غازي واسماعيل عند ما قال في نفس الرسالة : فإن قعدت بهم ( يقصد  
غازي واسماعيل ) العزائم وأخذتهم في الله لومة لائم فلا أقل من أن  
لا يكونوا أعواناً عليه (أى صلاح الدين) يلقنونه عن قصده . حريصين  
على اتصال المكروه إليه، وفي هذا ما يدل على أن صلاح الدين قد عزم  
منذ ذلك الوقت على جهاد الصليبيين .

على أن صلاح الدين لم يركن إلى مراسلة الخليفة العباسي ولم يلجأ إليه  
ليفض ما بينه وبين اسماعيل وغازي من نزاع ، وإنما فعل ذلك فقط  
ليكسب الخليفة والرأي العام بدليل أنه أرسل في الوقت نفسه يطالب  
بالمدد من مصر ليصفي حسابه مع اسماعيل وابن عمه غازي وأتباعهما .  
ووصل المسدد المنشود ورحل صلاح الدين من مصر واتجه شمالاً  
واستعان أعداؤه بالصليبيين - كعادتهم - وأطلقوا من في أسرهم من  
رجالهم - عربوناً للصدقة المقبلة - ومنهم رايمندي شاتيون المعروف  
في المراجع العربية باسم أرناط (١) . والتقى الفريقان عند تل السلطان

---

(١) المهاد (الروضتين ج ١ ص ٢٥٥) .

في ٢٣ أبريل سنة ١١٧٥ ( ١٠ شوال سنة ٥٧١ ) وكانت نتيجة المعركة أن هزم جيش غازي واسماعيل ووقع جماعة من كبار أمرائهما في أسر صلاح الدين . وبما يدل على أن صلاح الدين كان يريد أن يكسب القلوب قبل البلاد وأنه كان يعرف كيف يدعو لنفسه أنه أطلق سراح من وقع في أسره بل انه خلع عليهم الخلع السنية (١) . فكان ذلك العمل كافياً لأن يغير أولئك الأسرى رأيهم في صلاح الدين ويرغبون في العمل تحت لوائه

ويرجع ابن الأثير الهزيمة إلى جهل زلفندار « قائد جيوش غازي » بمنون القتال ويضرب المثل على ذلك بأن زلفندار أمر بوضع الأعلام في وهدة من الأرض لا يراها من قرب منها . فلما دارت رحى القتال ولم ير رجال الجيش أعلامهم ظنوا أن جيشهم هزم فلم يثبتوا وفروا منهزمين (٢) . وسواء أكان سبب تلك الهزائم المتكررة المتلاحقة راجعاً إلى جهل غازي وقائده بالقتال أم غير ذلك من الأسباب (٣) . فالأمر الواضح هو أن نجم صلاح الدين علا وأن شخصيته أخذت تكتسح ما يقف في سبيله من الرجال أو العقبات وبما يدل على الفرق الواضح بينه وبين أعدائه ما وجد في معسكر أولئك الأعداء - بعد هزيمتهم -

(١) ابن شداد ص ٤٣ . المقرزي السلوك ج ١ ص ٦١ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٢ .

(٣) يذكر ابن الأثير أيضاً ( المرجع السابق ) إن وصول جيش صلاح الدين إلى تل السلطان كان يسد وصول غازي إليها - وكان صلاح الدين متعباً وقد نال العطش وطول الطريق من جيشه فأقترح بعض القواد على غازي أن يساجم في تلك اللحظة جيش صلاح الدين فلم يوافق زلفندار على ذلك الرأي ورأى أن يؤجل القتال إلى المد فلما جاء الند كان جيش صلاح الدين قد استراح فتأتى له بذلك أن ينتصر .



من نحر وعيدان ومغنين ومغنيات (١) . وطيور مختلفة منها القمارى  
والبلابل والمزار في أقفاصها (٢) .

وقد أراد صلاح الدين بعد ذلك النصر أن يهاجم حلب للمرة الثانية  
لأنه لم يعد يثق بأمرائها ولا بجهودهم وموائيقهم وكانوا - على ما يبدو -  
يتوقعون منه ذلك العمل فاستعدوا له . وحاصرهم صلاح الدين . فلما  
ترامى له أن حصار تلك المدينة قد يطول عزم على الاستيلاء على ماحولها  
ليتسنى له عزلها وسهولة الانتصار عليها . ومن ثم استولى على حصون  
بزاعة ومنبج (٣) . وعزار ولكنه ترك الحصن الأخير لإسماعيل إكراماً  
لأخته خاتون ابنة نور الدين (٤) . وقد أغار الحلييون عليه وهو يحاصر  
ذلك الحصن ولكن دون جدوى فاستعانوا عليه من جديد بالحشيشية

---

(١) الهاد (الروضتين ج ١ ص ٢٥٥) .

(٢) استدعى صلاح الدين أحد الندماء وسلمه تلك الأقفاص ليوصلها إلى غازي  
وقال له « سلم منا عليه وقل له عدد إلى اللب بهذه الطيور فهي سليمة لا توقعك في  
مثل هذا الخذور » أنظر المرجع السابق .

(٣) كان على تلك المدينة نياك بن حسان المنبجي أحد القواد الذين أرسلهم  
نور الدين إلى مصر مع شيركوه في الحملة الثالثة . والمعروف أن ذلك القائد انضم  
بوزارة صلاح الدين بمد مفاوضات الهكاري المعروفة . على أن ابن الأثير يقول :  
« الكامل ج ١١ ص ١٩٤ » أن المنبجي أصبح شديد المداوة لصلاح الدين وأنه  
قاومه على منبج مقاومة عنيفة . ولعل المنبجي أدرك وهو في مصر مطامع صلاح الدين  
والأسرة الأيوبية فنادر مصر إلى الشام واشتدت عداوته لصلاح الدين لذلك السبب .  
(٤) أرسل إسماعيل أخته خاتون إلى صلاح الدين وهو على حصار حلب لتسألها  
أن يرد على أخيها عزار فأعطاهما أياها وقدم لها كثيراً من الجواهر والتحف . راجع  
أبا المحاسن النجوم ج ٦ ص ٧٦ .

ونجاصلاح الدين تلك المرة أيضاً من أهدى أولئك الفدائين بأعجوبة (١).  
نما دعا إلى أن يحترس لنفسه بعد ذلك ، وكانت تلك الحادثة سبباً في  
ازدياد حقد صلاح الدين على أمراء حلب . فلم يكد يتهى من عزار حتى  
حاصر حلب وضيقت على أهلها بل أقطع عسكره ضياعها وأمر بحماية  
أموالها ومنع أن يدخلها أو يخرج منها أحد (٢) . وكان كشتكين في تلك  
الأيام خارج حلب في حماة التي انتزعتها من أبناء الداية والتي كان يخشى  
أن يقصدها صلاح الدين بعد عزار . وخشى كشتكين أن يتم الصلح وهو  
بعيد عن حلب فاحتال حتى دخلها وسمح له صلاح الدين بذلك وهو يؤمل  
أن يكون رسولاً للصلح (٣) . وتبادل الفريقان الرهائن فعلاً . ولكن  
كشتكين نكث عهده بعد أن دخل حلب وظل صلاح الدين على حصارها  
حتى تضايق أهلها وطلبوا الصلح . وكان الصلح يحقق رغبة الطرفين فان  
الأمراء المحيطين بإسماعيل خافوا أن يطول الحصار فيضجر الأهالي  
ويستسلمون كما أن صلاح الدين رأى أن الوقت لم يجن بعد لاقتحام تلك  
المدينة الحصينة (٤) فأجابهم إليه وأهم شروطه أن السلطان اسماعيل  
اعترف بتملك صلاح الدين تملكاً شرعياً لجميع ما فتحه من مصر إلى  
حماة في شمال الشام وتم ذلك الصلح في ٢٥ يولييه سنة ١١٧٦ ( المحرم  
سنة ٥٥٧٢ ) .

---

(١) تفاصيل هذه الحادثة بالروضتين ج ١ ص ٢٥٨ . والنجوم الزاهرة

ج ٦ ص ٧٦ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٥٩ . المقرئى السلوك ج ١ ص ٦٣ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٥ .

ومنذ ذلك الوقت أصبح صلاح الدين ملكاً مستقلاً على مصر والشام إذ اعترفت له الخلافة العباسية بذلك. كما أقره إسماعيل الوريث الشرعي لنور الدين ولم يعد بعد ذلك من اعتبار سياسي أو شرعي يمكن أن ينقص تلك الحقيقة.

ومنذ ذلك الوقت أيضاً أي منذ سنة ١١٧٦ (المحرم ٥٥٧٢) أصبح صلاح الدين أقوى حاكم مسلم في الشرق الأدنى.

وأهم ما فعله صلاح الدين بعد ذلك الصلح أنه حاول القضاء على الحشيشية لمحاولاتهم المتعددة للقضاء عليه. فهاجمهم في حصنهم مصاب وأوسعهم قتلاً وأسر (١). حتى شفع فيهم خاله محمود الحارمي. على أن تلك الشفاعة لم تسكن وحدها السبب في رفع الحصار عنهم. بل كان السبب أن الصليبيين أغاروا في ذلك الوقت على البقاع (٢). فخرج إليهم ابن المقدم من بعلبك وأوقع بهم وقتل منهم وأسر (٣). ولهذا خشى صلاح الدين أن يغتتموا فرصة انشغاله ويغيرون على أملاك المسلمين وفي ذلك الوقت كان تورانشاه أخو صلاح الدين قد عاد من اليمن فتركة صلاح الدين على دمشق (٤). وعاد إلى مصر في سبتمبر من تلك السنة لينظّم أمورها ويحصن حدودها ويجعل منها أداة نافعة في جهاد الصليبيين واجلائهم نهائياً عن الشام.

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٧ وراجع أيضاً السلوك ج ١ ص ٦٣ والروايتين

ج ١ ص ٢٦١.

(٢) أرض واسعة بين دمشق وبعلبك وحمص. أنظر ياقوت ج ١ ص ٢٩٩.

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٧.

(٤) المتريزي السلوك ج ١ ص ٦٣.

والمعروف أن مصر كانت قبل مجيء الأيوبيين إليها محالفة من قلعة تحميها فكان لا بد لصلاح الدين من أن يبني بالقاهرة قلعة يستند إليها خوفاً مما يقوم به من أنصار الفاطميين ضده من حركات (١) . وبخاصة وقد وجد نفسه مضطراً لترك مصر إلى الشام لجهاد الصليبيين . وقد انتهز صلاح الدين فرصة وجوده بالقاهرة ليكمل ذلك النقص فبدأ في بناء (٢) القلعة بعد عودته من الشام مباشرة سنة ١١٧٦ (٥٧٢ هـ) ولكن إتمامها لم يتم في حياته والذي تمّ منها إنما هو هيكلها والبئر الحلزوني الذي حفر في الصخر داخلها وبما تجب الإشارة إليه أن مباني صلاح الدين تختلف عما كان موجوداً قبلها . إذ أن تلك المباني القديمة كانت في الغالب على النمط البيزنطي لاختلاط العرب بالدولة البيزنطية وأخذهم عنها ، بينما كانت مباني صلاح الدين على النمط الفرنجي والسبب في هذا واضح وهو أن صلاح الدين نشأ في الشام وقضى شبابه في محاربة الصليبيين . وعرف أساليب دفاعهم وهم في حصونهم ، فبنى على نمطها . وربما يرجع ذلك أيضاً إلى أنه استخدم الأسرى الصليبيين في بنائها (٣) . فكان لهم نصيب في التصميم وطريقة البناء .

كذلك بنى صلاح الدين قلعة المقس وهي برج كبير بنى على النيل وبنيت بالقرب منها أبراج أخرى كلها على النمط الفرنجي . فلما تمت تلك الأعمال أمر صلاح الدين بأن يقام سور يحيط بمصر والقاهرة . وقد بنى

(١) المقرئى الخطط ج ٣ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن الأثير الكامل - ١١ ص ١٩٨ ، المقرئى السلوك ج ١ ص ٦٣ .

(٣) ابن جبير ص ٢٠ ، ٢١ .

ذلك السور من حجارة المقطم والاهرام (١) . واستخدم لبنائه عدداً كبيراً من أسرى الصليبيين (٢) . وهذا السور هو ثالث الأسوار التي بنيت حول القاهرة وأولها بناه جوهر الصقلي وثانيها بناه بدر الجمالي . وقد بنى الاثنان من اللبن .

وكما حصّن صلاح الدين القاهرة فكذلك حصّن الاسكندرية وهي تلك المدينة التي كانت محط أنظار الصليبيين وغيرهم فعمّر أسوارها وأبراجها ولم ينس أن يزيد من قوة مصر البحرية ، فبنى السفن والأساطيل بل جعل للأسطول ديواناً خاصاً (٣) . وكانت تبقى سفنه في القسطنطينية وقوص ، ومنها ترسل إلى ثغور الاسكندرية ودهياط وتيس وقد كان لذلك الأسطول أثره في حروب صلاح الدين وانتصاراته على الصليبيين .

وقد قام بتلك الأعمال البنائية كلها بهاء الدين قراقوش ، الذي يبدو أن صلاح الدين اعتمد عليه في تلك الناحية كل الاعتماد .

أما النقطة الهامة الأخرى فهي أن صلاح الدين أدخل نظاماً جديداً في مصر لم يكن معروفاً من قبل هو نظام المدارس . حقيقة وجدت قبل مجيئه مدارس أخرى كدار الحنكة والجامع الأزهر ولكنهما أنشئتا لغرض خاص هو إذاعة المبادئ الشيعية بين الناس . أما المدارس التي نشرها صلاح الدين فهي دور للعلم يدرس فيها الجميع الشريعة الإسلامية

(١) المفريزي ، الخطط ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٢٢ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٢—٤٨٣ .

على المذاهب الأربعة وقد بدأ صلاح الدين في إنشاء هذه المدارس من أيام وزارته كالمدرسة الناصرية التي أسست سنة ١١٧٠ (٥٥٦ هـ) بجوار جامع عمرو (١) وقصرت على الشافعية والمدرسة القمحية بالقرب منها (٢) وكانت خاصة بالمالكية ، والمدرسة الحنفية التي بنيت سنة ١١٧٦ (٥٥٢ هـ) في دار الوزير الباطني والمدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي (٣) . والغرض من بناء المدارس معروف وهو نشر المذهب السني في مصر وإحلاله محل المذهب الشيعي (٤) .

والخلاصة أن صلاح الدين استطاع أن يخلق لمصر شخصية مستقلة لها طابعها سواء من الناحية الحربية أو السياسية أو الاجتماعية ، فكان من أثر إنشاء المدارس مثلاً أن وجدت في مصر طبقة دراسة مثقفة ثقافة دينية وشرعية واسعة استطاعت أن تقف في وجه الظلم والطغيان وأن تكون ملجأ الشعب ضد من عسى أن يظلمهم من الحكام . ولعل هذا هو السبب في أن المستوى الاجتماعي والخلقي لم ينحط في مصر كما انحط في أوروبا في العصور الوسطى . ولعل هذا هو السبب أيضاً في أن مصر تصدت لتلك الغزوات الساحقة التي هبت على الشرق الإسلامي من أواسط آسيا فأوقفتها عند حدها وحميت الإسلام والحضارة من تخريبها وطغيانها .

---

(١) المقرئى الخطط ج ٤ ص ١٩٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) ذكر ابن جبير نصوصاً هامة عن مدى اهتمام صلاح الدين بالمدارس

وعلان العلم فيها أنظر ص ١٠ وما يتلوها .

وهكذا نجح صلاح في أن يكمل تأسيس الدولة الأيوبية في مصر وأن يحقق أغراض أسرته ، تلك الأسرة التي ظلت مدة طويلة تتحين الفرص للتكوين لنفسها حتى إذا وصلت إلى مسامعهم أخبار مصر وسوء أحوالها الداخلية وجدوا فيها الضالة المنشودة فظل أيوب وشيركوه يعملان جاهدين ليقيا فيها الدولة الأيوبية حتى إذا توفي الأخوان تكفل صلاح الدين بآتمام الخطوات الباقية من ذلك البناء الخالد فنجح في ذلك نجاحاً لعله أكثر كان من المنشود .

## خاتمة

ليس الغرض من هذه الكلمة الختامية أن تكون تلخيصاً لما انتهى إليه البحث من نتائج . وإلا لما خرج الأمر عن أن يكون تكراراً لا مبرر له . وإنما هي كلمة لعلها أن تكون ختاماً مناسباً للدوضوع . وامل فيها . أيضاً ما يساعد على الخروج بفكرة واضحة عنه .

والفكرة الأولى التي أريدَ توكيدها - في الفصل الأول - هي أن الأحوال العامة في الشرق الأدنى في نهاية القرن الجادى عشر وبداية القرن الثانى عشر الميلادى - أى قبيل قيام الدولة الأيوبية في مصر - كانت صالحة إلى حد كبير - لقيام أية دولة جديدة . إذا توافر للقائمين عليها فهم روح ذلك العصر ومعرفة الوسائل المؤدية لتحقيق تلك الغاية . ذلك لأنه لم تكن هناك سلطة مركزية قوية تستطيع أن تحد من رغبات أهل الطموح والمغامرة . فالخلافة الإسلامية - سواء في بغداد أو في القاهرة - بدا عجزها التام عن الاحتفاظ هيبتها وقوتها ، الأمر الذى أدى إلى وقوع الخلفاء - في كلتا المدينتين - تحت سيطرة قوادهم ووزرائهم . وزاد الطين بلة أن السلاجقة الذين استطاع سلاطينهم الثلاثة الأول أن يوجهوا الجزء الأكبر من الشرق الأدنى قد انتهت حالهم بعد انتهاء حكم أولئك السلاطين الثلاثة إلى الانقسام والنزاع والفتن الداخلية . فأتاح ذلك الفرصة أمام المغامرين لاستغلال النظام الإقطاعى الذى نشره السلاجقة ونشأت من ثم الدول الأتابكية المختلفة في الموصل ودمشق وسنجار وأربل وغيرها .



في ذلك القار و الملائم بدأ بنو أيوب يعاومون في حوادث الشرق الأدنى - بعد مغادرتهم موطنهم الأصلي في دوين وبدا في حركاتهم و تنقلاتهم ما يدل على أن البارزين منهم قد وطدوا العزم على أن يؤسسوا لأنفسهم دولة شأن غيرهم من القواد وغير القواد ممن أوجدتهم الحوادث في ذلك الوقت وهذه هي الفكرة الثانية التي يرجى أن تكون قد وضحت في الفصل الثاني .

على أن كتاب من القائدين أيوب وشيركوه اصطدما بعقبة لم يكن من السهل التغلب عليها وقتئذ . ذلك لأن نزول الصليبيين بأرض الشام في نهاية القرن الحادى عشر ونجاحهم في تأسيس اماراتهم اللاتينية الأربعة المعروفة ذلك النجاح الذى يعزى أيضاً إلى ضعف السلطة المركزية في العالم الاسلامى - قد أثار الروح الدينية السكامة في نفوس المسلمين . الذين بدأوا يفتقون لذلك الخطر الصائبي الداهم . ويفهمون أغراض الصليبيين ومراميمهم . وعندئذ وضع لبعض الشخصيات الإسلامية الكبرى كعماد الدين زنكى أنه لا سبيل إلى مقاومة ذلك الخطر إلا بتوحيد القوى الإسلامية في الشرق الأدنى وهنا لم يعد من الحكمة أو بعد النظر أن يعلن الأيوبيون عن أغراضهم في ذلك الوقت الذى تكتمت فيه جميع القوى لمقاومة ذلك الخطر الخارجى . ولهذا حرص الأيوبيون على ألا يبدو من سلوكهم ما يدل على أغراضهم الحقيقية . ولهذا أيضاً لم يوافق أيوب أخاه شيركوه على الاستيلاء على دمشق عندما مرض نور الدين بحلب . وأرجف الناس - يومذاك - بوفاته . ولعل هذا التكتم الذى حرص عليه الأيوبيون هو علة ما يلاقه الباحث من صعوبات في موضوع هذا البحث . ذلك لأن المؤرخين المعاصرين

لم يستطيعوا أن يكتبوا في تلك الناحية بما يمكن أن يرضى الباحث الحديث .

أما الفكرة الثالثة فهي أن الفرصة المناسبة - في ذاتها لم تتج لأيوب أو شيركوه لتأسيس الدولة التي يحملان بها . فإن المدن التي أتيح لهما أن يحكماها - وفقاً للنظام الإقطاعي السائد - وهي تكريت وبلبعك وحص والرحبة لم تكن إحداهما تصلح كقاعدة مستقلة . ولذا راح الأيوبيون بغزو مصر . وفي رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء - وهي الرسالة التي أرسلها صلاح الدين يطلب تقيده السلطنة - ما يدل دلالة قاطعة على أن الأيوبيين فسكروا في الاستيلاء على مصر منذ أن سمعوا باضطراب أحوالها الداخلية وما ينتابها من فتن وفلاقل .

أى قيل أن يرسل نور الدين حملته الأولى إليها .

وليس عجبا أن يفكر الأيوبيون في الاستيلاء على مصر لبقية دولتهم فيها ، وهي البلاد الواضحة الحدود والمعالم الطائلة الثروة . وربما يكون الأيوبيون قد قرأوا شيئا عن تاريخها فعرفوا كيف رآها عمرو ابن العاص في الجاهلية ، فكان أكبر الداعين إلى فتحها بعد انتشار الاسلام !

وربما عرفوا أيضا كيف استطاع أن يستقل بها أحمد بن طولون ومحمد ابن طنج الأخشيد من بعده ، وكيف أن الفاطميين لم ينجحوا في بسط نفوذهم إلا بعد الاستيلاء على مصر . بالرغم من أن دولتهم كانت قد قامت فعلا في شمال أفريقيا .

وهناك رأى آخر يرجى أيضا أن يكون قد وضح في ثنايا البحث

وهو أن الأيوبيين أرادوا أن يعدوا أحد شبانهم البارزين ضمناً لاستمرار سياستهم وبقائها .

وقد وقع اختيارهم على صلاح الدين يوسف بن أيوب لينفذ سياستهم ويحقق أغراضهم .

وبما يدل على ذلك حرص الأسرة الأيوبية على أن يصحب صلاح الدين عمه شيركوه في الحملات النورية الثلاث على مصر .

ولعل في هذا بعض السر في أن بعض الشعراء من أصدقاء الأيوبيين كعرقلة والعماد الاصفهاني قد أخذ يمدح صلاح الدين مدحا له مغزاه ويحيطه بهالة من العبقرية والنبوغ . وقد منح أولئك الشعراء صلاح الدين وتمنوا له أن يملك مصر وأن يدعو اخوته وأهله إليها كما فعل النبي يوسف ابن يعقوب عليه السلام وهو ما فعله صلاح الدين تماما .

هذا يدل على أن أولئك الشعراء - المقربين إلى الأيوبيين - كانوا يعرفون الشيء الكثير عن أغراضهم وعن سياستهم المرسومة للاستيلاء على مصر .

وقد وضحت تلك الأغراض خلال الحملات النورية الثلاث على مصر - تلك الحملات التي كان شيركوه القاعد الأعلى لها - وضوحا لاسيلا إلى إنكاره . بل لقد تأتى لنور الدين نفسه أن يعرف شيئا عن تلك الأغراض فبدأ يستشعر الخطر من استقرار الأيوبيين بمصر عندما وزر شيركوه للعاقد الفاطمي بعد مقتل شاور . وصح ما توقعه نور الدين . إذ خلف صلاح الدين عمه شيركوه في وزارته للعاقد وبدا في سلوكه وسياسته ما يدل على أنه إنما يعمل لنفسه ولأسرته - وقد وضحت تلك الحقيقة فيما تتابع من حوادث - وينتهي في فتوحاته ناحية تمكّن له

في مصر قبل أى شيء آخر ففتح برقة ووطد أقدامه في أطراف مصر الشرقية دون أن يساهم بشيء في حروب نور الدين . وقد نتج عن ذلك كله ما عرف بين المؤرخين بإسم الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين ولولا وفاة نور الدين لوصلت تلك الوحشة إلى نتيجة محتومة في حرب سافرة بين الرجلين .

على أن صلاح الدين الذى كان يتعد جهد طاقته عن المغامرة في حوادث الشام في حياة نور الدين . قد أخذ يتحين الفرص — بعد وفاته — للسفر إليها . ولا غرابة في ذلك ما دام الوريث الشرعى لنور الدين وهو ابنه اسماعيل لم يكن — عند وفاة أبيه — يزيد عن الثانية عشرة من عمره ومن ثم بدت لصلاح الدين أغراض جديدة أراد تحقيقها وهى أنه الوريث الفعلى لنور الدين . ثم جاءت الفرصة المناسبة لسفر صلاح الدين إلى الشام عند دعوة شمس الدين بن المقدم أمير دمشق له . وعندئذ انحدر صلاح الدين إلى الشام بعد أن انتهى من آخر مشاكله في مصر وهى أجلاء الحملة النورماندية عن الإسكندرية والقضاء على بقايا أنصار الفاطميين الذين قاموا في أسوان وقوص تحت زعامة كنز الدولة وعباس بن شادى .

وقد لقي صلاح الدين كثيرا من العنت في الشام . وكان أكثر ماضيقه دعاية أعدائه من أمراء حلب وغيرهم من الأمراء النوريين . بأنه انقلب على ولى نعمته نور الدين قبيل وفاته . وأنه يريد أن يستحوذ على ملك ابنه بعده . ويظهر أن صلاح الدين وجد الأسييل إلى تحقيق أغراضه عن طريق التمسح بإسماعيل والدهوى بأنه جاء إلى الشام ليحميه ويقوم على شئونه . فاضطر إلى أن يسلك الطريق العملى ولذلك أعلن استقلاله

بما تحتم يديه من أملاك . وقطع اسم اسماعيل من الخطبة والعملة . وهى مظاهر التبعية فى ذلك الوقت . ثم أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسى المستضىء رسالته الهامة التى يطالب فيها بتقليده سلطنة مصر والشام واليمن وغيرها من البلاد التى فتحها وأن يكون ذلك التقليد له ولمن يجرى بعده من أفراد أسرته . وعندئذ ناز نائر أفراد البيت الزنكى واستعانوا عليه بالصليبيين والحشيشيين ولكن ذلك كاه لم يجد شيئاً ولم يستطع أن يطلقه من نجم صلاح الدين .

ولإزاء ذلك لم يجد السلطان اسماعيل - أو بالأحرى من حوله من الأمراء - وابن عمه غازى بدا من مصالحة صلاح الدين والاعتراف بتملكه تملكاً شرعياً لما تحتم يديه من أملاك . وفى خلال ذلك الوقت كانت رسل الخليفة العباسى قد وصلت إلى صلاح الدين تحمل تقليد الخليفة له بالسفانة . فلم يعد بعد ذلك كاه من دليل شرعى أو عملى ينقض قيام الدولة الأيوبية فى مصر قياماً شرعياً لا سبيل إلى الشك فيه .

ثم بدا لصلاح الدين أن يوحد القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وهى الفسكرة التى نادى بها ونفذها زنكى العظيم وابنه نور الدين محمود والتى أثبتت الأيام صلاحيتها وأهميتها فعمل صلاح الدين على تحقيق تلك الفسكرة تمهيداً لجهاد الصليبيين جهاداً الفرض منه إجلاؤهم عن الشام لا مجرد مبادلة المهزومة والنصر ولكن ذلك الدور لا يدخل فى نطاق هذا البحث . بعد أن أصبح قيام الدولة الأيوبية فى مصر حقيقة لا تحتاج إلى إيضاح أو دليل جديد .





## مصادر البحث

- ابن الأثير ( | ١٢٢٨ ٥٦٢٠ م ) : على بن أحمد بن أبي الكرم .  
١ - الكامل في التاريخ ج ١٠ ، ١١ . المطبعة الأزهرية بالقاهرة  
سنة ١٣٠١ هـ .
- ٢ - تاريخ الدولة الأتابكية . Recueil des Histoires Croisades.  
Historiens Orientaux. Tome II.
- إسامة بن منقذ ( | ١١٨٨ ٥٨٤ م ) - أبو المظفرين  
مرشد بن علي بن مقلد بن نصر .  
٣ - الإعتبار . ( نشر فيليب حتى ) .  
الإسحاق بن محمد بن عبد المعطى .
- ٤ - لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب  
الدول . القاهرة طبع حجر ١٢٧٦ هـ .  
O, Leary de Lacy.
- ٥ - A short History of the Fatimid Khalifate. London 1923 --
- ٦ - أمين زكي بك : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان باللغة  
الكردية ترجمه إلى العربية محمد علي عوني .
- ابن إياس ( | ١٠٢٢ ٥٢٩٠ م ) . أبو البركات محمد بن أحمد .  
٧ - بدائع الزهور .  
بيلى ( أحمد بيلى ) .
- ٨ - صلاح الدين الأيوبي -- القاهرة سنة ١٩٢٢ م .

- ابن جبير (+ ١٢١٧٨٤٦١ م) أبو الحسن محمد بن أحمد الكتاني.  
٩ — رحلة ابن جبير - مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٩-١٩٠٨ م.  
١٠ — Grousset (René) Histoire des Croisades. Paris 1932.  
١١ — Gibb, (I.I.A.R.) The Damascus Chronicle of the Crusades - London 1932  
ابن الجوزى (+ ٥٩٧ هـ ١٢٠٠ م) أبو الفرج عبد الرحمن  
ابن علي بن الجوزى .  
١٢ — المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. مخطوط بدار الكتب المصرية  
رقم ١٢٩٦ (تاريخ)  
حسن ابراهيم (الدكتور حسن ابراهيم حسن) .  
١٣ — الفاطميون في مصر — المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٢٢  
الحسيني (+ ٦٢٣ هـ) صدر الدين بن ناصر بن علي .  
١٤ — أخبار الدولة السلجوقية .  
١٥ — أبو حديد (محمد فريد بك) .  
صلاح الدين الأيوبي وعصره دار الكتب سنة ١٩٢٧ .  
(الخبيل ابراهيم الخبيل) .  
١٦ — شفاء القلوب في مناقب بني أيوب . مخطوط بمكتبة الجامعة  
رقم ٢٤٠٣١ .  
ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ ١٤٠٥ م) . عبد الرحمن بن محمد .  
١٧ — العبر وديوان المبتدأ والخبر . القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .



- ابن خلكان ( + ٦٨١ هـ ١٢٨١ م ) شمس الدين أبو العباس  
أحمد بن إبراهيم .
- ١٨ — وفیات الأعيان جزآن . القاهرة . ١٣١٠ .
- ابن دحلان ( + ١٣٠٤ هـ ) السيد أحمد بن زين .
- ١٩ — تاريخ الدولة الإسلامية بالجداول المرضية . القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ
- ابن دقاق ( + ٨٠٩ هـ ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م ) ابراهيم  
ابن محمد المصرى .
- ٢٠ — الانتصار لواسطة عقد الأماص . القاهرة ١٣٠٩ هـ ١٨٩٣ م .
- الذهبي ( ٧٤٨ هـ ١٢٤٧ — ١٣٤٨ ) شمس الدين محمد  
ابن أحمد
- ٢١ — تاريخ الإسلام — مخطوط . بدار الكتب بالقاهرة  
زيادة ( الدكتور محمد مصطفى ) .
- ٢٢ — مصر والحروب الصليبية . محاضرة ألقى بنادى الاتحاد  
الإنجليزى المصرى القاهرة سنة ١٩٤٢ .
- ٢٣ — محاضرات غير مطبوعة فى تاريخ الدولة الأيوبية .  
زيادة ( نيفولا زيادة ) .
- ٢٤ — رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى . عدد خاص من  
المقتطف القاهرة ١٩٤٣ .
- ٢٥ — Stevenson: The Crusaders in the East. Cambridge 1907.
- ٢٦ — سبط بن الجوزى ( + ٦٥٤ هـ ١٢٥٧ م ) — أبو المظفر بن  
قبروغلى : مرآة الزمان مخطوط .

- ٢٧ — السيوطي (٩١١ هـ ١٥٠٥ م) عيد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين
- ٢٨ — حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٢٢٧ .  
Gustave Schfumboger.
- ٢٩ — Compagnes du Roi Amaury. lor. Paris 1906.
- أبو شامة ( ٦٦٥ هـ . ١٢٦٧ -- ١٢٦٨ م ) عيد الرحمن  
ابن اسماعيل بن ابراهيم .
- ٣٠ -- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ابن شداد ( -١- ٦٣٢ -- ١٢٣٤ هـ ) القاضي بهاء الدين  
أبو المحاسن يوسف بن رافع .
- ٣١ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة  
صلاح الدين . القاهرة ١٣٤٦
- أبوا صالح ( ٦٠٥ هـ ١٢٠٨ م ) الأرمي . .
- ٣٢ — كنائس واديرة مصر -- اكسفورد سنة ١٨٩٤ .
- عبد اللطيف البغدادي ( ٦٢٩ هـ ١٢٣١ م ) موفق الدين  
عبد اللطيف .
- ٣٣ — مختصر تاريخ مصر .
- ٣٤ — علي سيدو الكروрани . من عمان إلى العمادية .  
علي مبارك باشا .
- ٣٥ — الخطط التوفيقية . المطبعة الأميرية بيولاقي سنة ١٣٠٦ هـ .
- عماد الدين الاصفهاني ( ٥٩٧ هـ ١٢٠١ م ) أبو عبد الله محمد  
بن أبي الرجاء .

- ٣٦- البرق الشامى ( مقتطفات فى الروضتين ) .
- ٣٧- دولة آل سلجوق ( مختصر البندارى ) مطبعة الموسوعات بالقاهرة ( ١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م ) .
- عمارة الينى ( ٥٦٩ هـ ١١٧٤ م ) أبو الحسن نجم الدين الينى . ديوانه .
- ٣٨- ابن العماد . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . القاهرة سنة ١٣٥١ .
- ٣٩- كتاب النسكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية . شالون سنة ١٨٩٧ م . العينى .
- ٤٠- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ Vasil Ev A, A .
- ٤١- Combridge Medieval History Vol. IV. أبو الفدا ( -١٠٨٣٢/١٣٣٣ م ) اسماعيل بن على صاحب حماة .
- ٤٢- المختصر فى أخبار البشر . ابن الفرات .
- ٤٣- تاريخ الدولة والملوك . مخطوط بدار الكتب المصرية أبو الفرج الملقب ( -٦٨٥/١٢٨٦ م ) .
- ٤٤- مختصر الدول Wiet (Gaston)
- ٤٥- L'Egypte Arab, Histoire de la Nation Arabe.
- ٤٦- Précis de L'histoire d'Egypte. الفرمانى ( -١٠٢٩ هـ ) .

٤٧ = أخبار الدول وأثار الأول. بغداد سنة ١٢٨٢ هـ (طبع حجر).

ابن القلاسي ( + ٥٥٥ هـ - ١١٦٠ م ) أبو يعلى حمزة .

٤٨ = ذيل تاريخ دمشق .

القلقشندي ( + ٨٢١ هـ ١٤١٨ م ) أبو العباس أحمد .

٤٩ = صبح الأعشا في صناعة الانشا : ( طبعة دار الكتب )

الكتبي ( ٧٦٤ هـ ١٣٦٢ - ١٣٦٣ م ) محمد بن شاكر

بن أحمد الحلبي .

٥٠ = فوات الوفيات ( مولان سنة ١٢٩٩ هـ ) .

٥١ - La monte : The Arab Heritage (Crusade and fi had)

Le Strange (G).

٥٢ - Palestine under the moslemes.

٥٣ - Baghdad during the Ablasid Chaliphate London 1900-

Stanly Lane-Poole.

٥٤ - The Story of Cairo. London 1901.

٥٥ - A history of Egypt in the Middle Ages London 1901

٥٦ - Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem

London 1893.

٥٧ - The Mohammedan Dynasties Paris 1925.

Margelionth (D,S.)

٥٨ - Cairo, Jorusalem, and Damaseus Oxford 1907.

أبو المحاسن ( ٨٧٤ هـ ٢٤٦٩ م ) جمال الدين بن يوسف

ابن تفرى يروى .

٥٩ : = النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة دارالكتب).

المسعودى ( | - ٣٤٦ ، ٩٥٦ م ).

٦٠ -- مروج الذهب ومعادن الجوهر ( القاهرة ١٣٠٣ هـ ).

٦١ -- ابن مسكوبة ( ٤٢١ هـ ، ١٠٣٠ ) تجارب الأمم ( طبعة  
أن روز ).

المقريزى ( | - ٤٨٥ هـ ١٤٤١ م ) تقى الدين على بن أحمد .

٦٢ -- المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

٦٣ -- السلوك لمعرفة دول الملوك ( نشر الدكتور زيادة ) القاهرة

سنة ١٩٣٤ .

٦٤ -- إغاثة الأمة بكشف الخمة ( نشر الدكتور زيادة وجمال الدين

الشيال ) القاهرة سنة ١٩٤٠ .

ابن ميسر ( + ٦٧٧ هـ ١٢٨٨ م ) محمد بن على بن يوسف .

٦٥ -- تاريخ مصر . المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة بالقاهرة

سنة ١٩١٩ .

٦٦ -- نظام الملك سياسة نامة ترجمه إلى اللغة الفرنسية

. Charles Schefer

النويرى ( ٧٣٢ هـ ١٣٣٢ م ) أحمد بن عبد الوهاب .

٦٧ -- نهضة العرب فى فنون الأدب ( دار الكتب ) .

ابن واصل ( + ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ -- ١٢٩٨ م ) جمال الدين

ابن واصل .

٦٨ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . مخطوط بدار الكتب  
المصرية .

ياقوت (٦٢٩ هـ ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي

٦٩-- معجم البلدان ( القاهرة ١٢٢٣ هـ ) .

٧٠-- إرشاد الأريب إلى معرفة الأريب ( طبعة الرفاعي ) .

يحيى أبي طي ( ٦٣٠ هـ ١١٣٢ م ) .

٧١-- كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين ( نصوص هامة منه في  
الروضتين )

٧٢-- Esicyclopedia of Islam .

٧٣-- الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية .

## فهرس

صفحة	تصدير
٨- ٣	لصاحب العزة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك
١٤- ٩	بعض مصادر البحث الفصل الأول
٥٤- ١٥	الشرق الأدنى قبل قيام الدولة الأيوبية الفصل الثاني
٩٣- ٥٥	الأسرة الأيوبية الفصل الثالث
١٤٦- ٩٤	استيلاء الأبو بين على مصر باسم نور الدين الفصل الرابع
١٩٨-١٤٧	صلاح الدين يوسف بن أيوب وزارته للعاصد الفاطمي ونيابته عن نور الدين الفصل الخامس
٢٣٩-١٩٩	سلطنة صلاح الدين الأيوبي
٢٤٥-٢٤٠	خاتمة
٢٥٤-٢٤٧	مصادر البحث